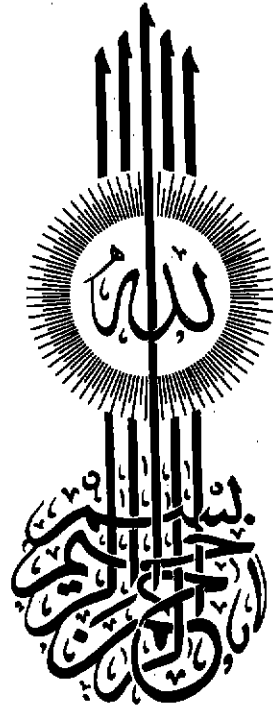


أَيْنَ نَحْنُ مِنْ هَؤُلَاءِ؟

المجلد الرابع

عبد الحكيم القاسم

دار القاسم



رفقاء طريق

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

أما بعد:

فإنَّ الإسلام دين صفاء ونقاء وأخوَّة ومودَّة، يظهر ذلك جليًّا في آيات كثيرة من كتاب الله - عزَّ وجلَّ -، وفي سنَّة نبيِّه ﷺ.

وقد اخترت للأخ القاريء نماذج من الرفقة الصالحة قولاً وفعلًا لأهميتها في عصرنا الحاضر اقتداءً وتأسيًّا.

وهذا هو الجزء الرَّابع عشر من سلسلة «أين نحن من هؤلاء؟!» تحت عنوان «رُفقاء طريق».

أدعو الله - عزَّ وجلَّ - أن يعيننا على أداء حقوق الأخوة الصادقة وأن يجمعنا وأحبتنا تحت ظلِّ عرشه إخوة متحابين.

عبد الملك بن محمد عبدالرحمن القاسم

مدخل

إنَّ الإنسان وهو يسير في هذه الدنيا ويقطع مراحل حياته فيها يحتاج إلى من يؤانسه في الطريق ويسلِّي وحدته في السَّفر . . ويكون له عونًا عند نزول الملمَّات والحوادث، يفرح لفرحه ويحزن لحزنه . . أصاب من الدِّين أوفره ومن الأدب أكثره . . جمع الله له بين الدين والخلق .

إنَّه الأخ المسلم النَّاصح المشفق . . صاحب الخلق والدين .
ولا يخفى أنَّ ثمرة الخلق الحسن، الألفة وانقطاع الوحشة، ومهما طاب الثَّمَر طابت الثمرة، وكيف وقد ورد في الثناء على نفس الألفة سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحبُّ الله من الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقنع، قال الله - تعالى - مظهرًا عظيم مَنِّه على الخلق بنعمة الألفة: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال - تعالى -: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ أي: بالألفة.
ثم ذمَّ التفرقة وزجر عنها فقال - عز من قائل -: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾ إلى ﴿... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].
وقال ﷺ: «إن أقربكم مني مجلسًا أحاسنكم أخلاقًا الموطَّئون أكنافًا الذين يألَفون ويؤلَفون»^(١)،^(٢).

أخي المسلم:

إنَّ التَّحَابَّ في الله والأخوة في دينه من أفضل القربات، وألطف ما

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني.

(٢) الإحياء: (١٧١/٢).

يستفاد من الطاعات في مجاري العادات، ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين في الله - تعالى -، وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونزعات الشيطان، فبالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله زلفى، وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى^(١).

واعلم أنه لا يصلح للصحة كل إنسان، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال ﷺ: الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ^(٢)، ولا بد أن يتميز صاحب بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته وتشرط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحة.

ويطلب من الصَّحبة فوائد دينية ودنيوية:

أَمَّا الدُّنْيَوِيَّةُ: كالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد استئناس بالمشاهدة.

أَمَّا الدِّينِيَّةُ: فيجتمع فيها أيضاً أغراض مختلفة:

منها: الاستفادة من العلم والعمل.

ومنها: الاستفادة من الجاه تحصُّناً به عن إيذاء من يشوش القلب

ويصدُّ عن العبادة.

ومنها: استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت.

ومنها: الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في

الأحوال^(٣).

أخي المسلم:

ينبغي فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسن

(١) الإحياء: (١٧١/١).

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وقال النووي: إسناده صحيح.

(٣) الإحياء: (١٨٥/٢).

الخُلُقِ غير فاسقٍ ولا مبتدعٍ ولا حريصٍ على الدنيا^(١).
وقد أثنى - جلَّ وعلا - على الصَّحبة الطَّيِّبة وجعلها سببًا لدخول
الجنة..

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ - تعالى - يقولُ يومَ القيامة: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي
اليومِ أَظْلَهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»^(٢).
وقال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ،
وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى
يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ...»^(٣).
بل ورفع الله - عزَّ وجلَّ - ذكر الكلب برفقته للصالحين فقال
- تعالى -: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كُتِبَ لَهُمُ...﴾ [الكهف: ٢٢].

إن الخليل هو المرأة التي تعكس صورتك للناس وتريهم من تكون..
فالمرء على دين خليله، فلينظر المرء من يُخالل..
قال أبو سليمان: قوله: «المرء على دين خليله» معناه: لا تخالل إلا
مَنْ رَضِيتَ دينه وأمانته، فَإِنَّكَ إِذَا خَالَلتَهُ قَادَكَ إِلَى دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ.. ولا
تغرر بدينك ولا تخاطر بنفسك فتخالل من ليس مرضيًا في دينه
ومذهبه^(٤).

أَنْتَ فِي النَّاسِ تُقَاسُ
بِمَنْ اخْتَرْتَ خَلِيلًا

(١) الإحياء: (١٨٦/٢).

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) العزلة: (٥١٠).

فأصْحَابُ الْأَخْيَارِ تَعْلَمُوا

وتَنَسَّلْ ذِكْرًا جَمِيعًا

وانظر - أخي المسلم - إلى موقف الأخلاء من بعض يوم القيامة وهو أهم المواقف وأعظمها شأنًا، قال - جلَّ وعلا - يصف حالتهم: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وفي وصف عجيب وتصوير دقيق للصُّحبة وأثرها قال رسول الله ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس الشُّوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إمَّا أن يُحذيك، وإمَّا أن تبتاعَ منه، وإمَّا أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير، إمَّا أن يُحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد ريحًا خبيثة»^(١).

وقال علي - رضي الله عنه - عليكم بالإخوان فإنَّهم عدة في الدنيا والآخرة، ألا تسمع قول أهل النَّار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [١٠٠] وَلَا صَدِيقٍ جَمِيعٍ [١٠١]﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وللأخوة حقوق قد ذكرها عطاء بن ميسرة بقوله: تعاهدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا مشاغل فاعينوهم، وإن كانوا نسوا فذكروهم^(٢).

ولا شكَّ أنَّ لكلَّ إنسانٍ عيبًا وفي كلِّ مخلوقٍ نقصًا. . من أولئك أيضًا من اخترتهم للصُّحبة واصطفيتهم للرفقة ولكن:

(١) متفق عليه.

(٢) الإحياء: (١٧٥/٢).

(٣) حلية الأولياء: (١٩٨/٥).

إِنْ تَجِدْ عَيْباً فُشِّدْ الْخَلَا

فَجَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا^(١)

قال أبو علي الرباطي: صحبت عبدالله الرازي وكان يدخل البادية، فقال: عليّ أن تكون أنت الأمير أو أنا؟، فقلت: بل أنت. فقال: وعليك الطاعة، فقلت: نعم، فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد حملها على ظهره.. فإذا قلت له: أعطني، قال: أأست قلت: أنت الأمير، فعليك الطاعة، فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسي إلى الصّباح وعليه كساء وأنا جالس، يمنع عني المطر.. فكنت أقول مع نفسي: ليتني مثّ ولم أقل: أنت الأمير^(٢).

أين أخي الحبيب هؤلاء من رفقة اليوم.. وصحبة هذا الزّمن؟!

ولهذا قال المأمون: الإخوان ثلاثة:

أحدهم: مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه.

والآخر: مثله مثل الدّواء يحتاج إليه في وقت دون وقت.

والثالث: مثله مثل الدّاء لا يحتاج إليه قطّ.. ولكنّ العبد قد يُبتلى به وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع.

وقد قيل: مثل جملة النّاس كمثّل الشّجر والنّبات..

فمنها: ما له ظلّ وليس له ثمر، وهو مثل الذي ينتفع به في الدّنيا دون الآخرة فإنّ نفع الدّنيا كالظلّ السّريع الزّوال.

ومنها: ما له ثمر وليس له ظل، وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا.

(١) البداية والنهاية: (١٤/١٦٠).

(٢) الإحياء: (٢/١٩٩).

ومنها: ما له ثمر وظلّ جميعاً.
ومنها: ما ليس له واحد منهما كأم غيلان تمزق الثّبات ولا طعم فيها ولا شراب، ومثله من الحيوان الفأرة والعقرب.
النّاسُ شتّى إذا ما أنْتَ دُفَّتْهُمْ لا
يستوون كما لا يستوي الشّجرُ
هذا له ثمرٌ حلّو مذاقته
وذاك ليس له طعمٌ ولا ثمرٌ^(١)
ولكن - أخي الكريم - عليك بحسن الاختيار... والحرص
والتحريّ... وانظر مع من تجتمع وعلى ماذا تجتمع وكيف تختار
الأصدقاء؟! أهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(٢)
[العصر: ٣] فأعانوا على الطّاعة والاستقامة والسير إلى الله أم هم أهل
الضياع والضلال والخسران؟!
فإن الاجتماع بالإخوان قسمان:
أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطّبع وشغل الوقت، فهذا مضرته
أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنّه يفسد القلب ويضيع الوقت.
الثاني: الاجتماع بهم على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر،
فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات:
إحداها: تزين بعضهم لبعض.
الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.
الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود،

وبالجملة، فالاجتماع والخلطة لقاح إمّا للنفس الأمارة وإمّا للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللّقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة من الشيطان، وقد جعل الله - سبحانه - بحكمته الطيبات للطيبين، والطيبين للطيبات وعكس ذلك^(١).

قال أبو حاتم: الكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا ألطف، والكريم يُجلُّ الكرام، ولا يُهين اللّئام، ولا يؤذي العاقل، ولا يمازح الأحمق، ولا يعاشر الفاجر، مؤثراً إخوانه على نفسه باذلاً لهم ما ملك، إذا اطلع على رغبة من أخ لم يدع مكافأتها، وإذا عرف منه مودة لم ينظر في قلق العداوة، وإذا أعطاه من نفسه الإخاء لم يقطعه بشيء من الأشياء^(٢).

وإذا صاحبت فاصحب صاحباً

ذا حياء وعفاف وكـرم

قائلاً للشيء لا إن قلت لا

وإذا قلت نعم قال نعم^(٣)

وليست موافقة الصاحب مقصورة على الحياة فحسب بل إن نفع هذا الخليل يمتد إلى ما بعد ذلك وهو استمرار لهذه المحبة الصادقة والأخوة الظاهرة فقد كان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون مما خلّفت، وهو منفرد

(١) الفوائد: (٦٨).

(٢) روضة العقلاء: (١٧٣).

(٣) شذرات الذهب: (٩٧/١).

بحزنك مهتم مما قدمت وما صرت إليه يدعو لك في ظلمات الليل وأنت تحت أطباق الثرى^(١).

ورأينا هذا الفعل في كثير من الأخلاء الصالحين... يدعون لصاحبهم... وما ذكر في مجلس إلا ترحموا عليه ودعوا له بالمغفرة ولسان أحدهم يقول:

ولقد نظرتُ فلم أجِدْ يُهْدَى لكم

غير الدعاء المستجاب الصالح^(٢)

ومثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى... فهما يتعاونان في إصلاح بعضهما وكذلك يتشاركان في السراء والضراء... وكل منهم للآخر معين ومساعد... يعينه في سير الدنيا إلى الآخرة.

أخي المسلم:

إذا لم تجد رفيقاً صالحاً وأخاً في الله فإنَّ الوحدة وقراءة القرآن خيرٌ لك، والكتب النافعة أثمر والتزوُّد من الطاعات أجدى وأنفع... وقس الأمر وانظر أين الخير؟!

فقد قال مالك بن دينار: كل جليس لا تستفيد منه خيراً فاجتنبه^(٣). وقال بكر بن محمد العابد: قال لي داود الطائي: يا بكر، استوحش من الناس كما تستوحش من السبع^(٤).

وقال عبدالعزيز بن الخطَّاب: رُوي إلى جنب مالك بن دينار كلب

(١) الإحياء: (٢٠٢/٢).

(٢) شذرات الذهب: (٨٥/٧).

(٣) حلية الأولياء: (٣٧٢/٢).

(٤) روضة العقلاء: (٨٢).

عظيم ضخم أسود رابض، فقيل له: يا أبا يحيى، ألا ترى هذا الكلب إلى جنبك؟ قال: هذا خير من جليس الشؤء^(١).

وعندما سئل إبراهيم بن أدهم: لما لا تصحب الناس؟ قال:

إن صحبت من هو فوقى: تكبر عليّ.

وإذا صحبت من هو دونى: لم يعرف حقى.

وإذا صحبت من هو مثلى: حسدنى.

لا تصحب أخا الجهل

فإنك وإيّاها

فكم من جاهل أزدى

حليماً حين يغشاه

يقاس الممرء بالمرء

إذا هو وما شأه

وللشئ على الشئ

مقاييس وأشباه

وللقلب على القلب

دليل حين يلقاه

أخى: اعلم أن كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاصى لله وممقوت عند الله^(٢).

(١) روضة العقلاء: (٨٢).

(٢) الإحياء: (١٨١/٢).

والصحة تنقسم إلى ما يقع عليه الاتفاق، كالصحة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب، أو في المدرسة أو في السوق، أو على باب السلطان أو في الأسفار، وإلى ما ينشأ اختياراً وقصدًا، وأجلُّها وأعظمُّها الأخوة في الدين، فإنَّ من رافق الأخيار أصبح منهم ومن سار مع الطيبين هبتْ نسمات الخير على وجهه.. فهم خير معين بعد الله في الدنيا وهم خير رفيق في السير إلى الدار الآخرة..

انظر إلى حالهم في الدنيا وإلى نماذج من صورهم الطيبة وأفعالهم الزكية.. فقد دخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه فجعل يبكي فقال: ما شأنك؟ قال: عليّ دينٌ!! قال: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، قال: فهو عليّ^(١).

إذا أعجبتك خلــــــــــــــــال امــــــــــــــــريء

فكنه يكن منك ما يُعجبك

فليس على الجود والمكرما

ت إذا جئها حاجبٌ يخجبك^(٢)

نعم من يحجب الإنسان عن التخلُّق بالخلق الحسن؟ ومن يمنع المرء عن معالي الأمور؟..

قال الشعبي: إنَّ كرام النَّاس أسرعهم مودَّةً، وأبطؤهم عداوَّةً، مثل الكوب من الفضَّة يبطء الانكسار، ويسرع الانجبار، وإنَّ لثام النَّاس

(١) حلية الأولياء: (٣/١٤١).

(٢) مدراج السالكين: (٣/٤٥).

أَبْطَوْهُمْ مَوَدَّةً وَأَسْرَعَهُمْ عَدَاوَةً، مِثْلَ الْكُوبِ مِنَ الْفَخَّارِ: يَسْرَعُ الْإِنْكَسَارُ، وَيَبْطِئُ الْإِنْجِبَارُ.

وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: الْكَرِيمُ مَنْ أَعْطَاهُ شُكْرَهُ، وَمَنْ مَنَعَهُ عَذْرَهُ، وَمَنْ قَطَعَهُ وَصْلَهُ، وَمَنْ وَصَلَهُ فَضْلَهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ ابْتَدَأَهُ، وَإِذَا اسْتَضْعَفَ أَحَدًا رَحِمَهُ، وَإِذَا اسْتَضْعَفَهُ أَحَدٌ رَأَى الْمَوْتَ أَكْرَمَ لَهُ مِنْهُ، وَاللَّئِيمُ بَضْدٌ مَا وَصَفَنَاهُ مِنَ الْخِصَالِ كُلِّهَا^(١).

قَالَ بَعْضُهُمْ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: جَمَاعُ الْخَيْرِ كُلُّهُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: إِنْ لَمْ تُمَضْ نَهَارُكَ بِمَا هُوَ لَكَ فَلَا تَمُضْهُ بِمَا هُوَ عَلَيْكَ، وَإِنْ لَمْ تَصْحَبِ الْأَخْيَارَ فَلَا تَصْحَبِ الْأَشْرَارَ، وَإِنْ لَمْ تَتَّفَقْ مَالِكَ فِيمَا لِلَّهِ رِضَاءٌ فَلَا تَتَفَقَّهِ فِيمَا لِلَّهِ فِيهِ سَخَطٌ^(٢).

أَخِي الْمُسْلِمُ:

إِنَّ مَا نَرَاهُ مِنَ التَّكَلُّفِ وَعَدَمِ التَّبَسُّطِ بَيْنَ الْأَحْبَابِ وَمَعَ الْأَصْحَابِ مَرَدُّهُ إِلَى عَدَمِ مَعْرِفَتِنَا حَقُوقَ الْأَخُوَّةِ فِي اللَّهِ... وَمَدَى قُوَّةِ هَذَا الْوَثَاقِ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ: قَالَ لَنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ: يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ يَدَهُ فِي كُمِّ صَاحِبِهِ فَيَأْخُذُ مَا يَرِيدُ؟ قُلْنَا: لَا، قَالَ: فَلَسْتُمْ بِأَخْوَانٍ كَمَا تَزْعُمُونَ^(٣).

وَيَقُولُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ:

إِذَا الْمَرْءُ لَا يَلْقَاكَ إِلَّا تَكَلُّفًا
فَدَعُهُ وَلَا تُكْثِرْ عَلَيْهِ الشَّائِفَا

(١) روضة العقلاء: (١٧٤).

(٢) الزهد للبيهقي: (٣١٠).

(٣) حلية الأولياء: (١٨٧/٣).

ففي الناس أبدالٌ وفي الترك راحةٌ
وفي القلب صبرٌ للحبيب ولو جفا
فما كلُّ مَنْ تهواه يهواك قلبُه
ولا كلُّ مَنْ صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفوُ الودادِ طبيعةً
فلا خيرَ في ودٍّ يجيء تكلفاً
ولا خيرَ في خلٍّ يخون خليله
ويلقاهُ مِنْ بعد المودة بالحنفا
وينكر عيشاً قد تقادم عهدُه
ويظهر سرّاً كان بالأمس في خفا
سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها
صديقٌ صدوقٌ صادقُ الوعدِ مُنصفاً
وصفات الصّاحب الكريم صفات محبوبة وخصال حميدة . . . والشاعر
يميّزه عن اللّئيم فيقول :

وترى الكريم إذا تقدّم وصله
يخفي القبيح ويظهر الإحسانا
وترى اللّئيم إذا تقضى وصله
يخفي الجميل ويظهر البهتاناً^(١)

بل يا أخِي:

إِنَّ الْكَرِيمَ الَّذِي تَبْقَى مَوَدَّتُهُ
ويحفظُ السرَّ إن صافى وإن صرماً
ليس الكريمُ الذي إن زلَّ صاحبه
بثَّ الذي كان من أسرار علماً^(١)
قال بعض الناصحين: لا تصحب من الناس إلا من يكتُم سرَّك ويستر
عيبك فيكون معك في الثَّواب ويؤثرُك بالرَّغائب وينشرُ حستك ويطوي
سيئتك، فإنَّ لم تجده فلا تصحب إلا نفسك.

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يستعِذ بالله من صحبة من إذا
ذكر الله لم يُعنه، وإن نسي لم يُذكِّره، وإن غفل حرضه على ترك الذِّكرِ.
ومَنْ كان أصدقاؤه أشراراً كان هو شرَّهم، وكما أنَّ الخير لا يحبُّ إلا
البررة، كذلك الرديُّ لا يصحبُ إلا الفجرة؛ فإن المرء إذا اضطره الأمر
فليصحب أهل المروءات^(٢).

إِنَّ أَخَاكَ الْحَقَّ مَنْ كَانَ مَعَكَ
وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَنْ إِذَا رِيَبُ زَمَانٍ صَدَعَكَ
شَتَّتَ فِيهِ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكَ^(٣)

أخي الكريم:

إذا أجدبت الأرض وضافت المسالك . . وادلهمت الخطوب وتاهت

(١) تاريخ بغداد: (١٥٨/٥).

(٢) روضة العقلاء: (١٠٢).

(٣) الإحياء: (١٧٨/٢).

الدروب .. هناك يظهر لك الأخ الصادق الوفي .. تستأنس برأيه ..
وتتقوى بهمته يهُوّن عليك المصيبة ويحمل عنك ما أثقل كاهلك ..
أمّا إذا اخضرت الأرض وابتسمت لك الدنيا .. فالكلُّ أصحاب
وأحباب!!

وكلُّ النَّاسِ إِخْوَانُ الرَّخَاءِ إِنَّمَا
أَخْوَكَ الَّذِي أَخَاكَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ^(١)

ومن مصائب الدنيا وشدائدها مصيبة الموت .. فما هو أثر الرفقة
والصحبة .. عند الموت وبعده ..؟! هل إذا وسدت الثرى ينقطع ذكرك
وينساك الأصحاب والأحباب؟! بل هل يُترك أبنائك لليتم والفقر
والعوز .. بل والضياع؟! .

كان بعض السلف يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضي
حوادثهم^{(٢)(٣)} .

ولهذا يوصي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فيقول : عليك بإخوان
الصدق تعيش في أكنافهم ، فإنّهم زينة في الرّخاء وعدّة في البلاء ، وضع
أمر أخيك على أحسنه حتّى يجيئك ما يُقلّيك منه ، واعتزل عدوك واحذر
صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من يخشى الله ، ولا تصحب الفاجر
فتتعلّم من فجوره ، ولا تطلعه على سرّك^(٤) .

(١) العزلة : (٥٤) .

(٢) أعرف من قام بمثل هذا ثمانية عشر سنة .

(٣) منهاج القاصدين : (١٠٨) .

(٤) منهاج القاصدين : (١٠٨) .

قال مالك بن دينار: إِنَّكَ إِنْ تَنْقُلَ الْحَجَارَةَ مَعَ الْأَبْرَارِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَأْكُلَ الْخَبِيصَ ^(١) مَعَ الْفَجَّارِ ^(٢).

وقال أبو حاتم: العاقل لَا يُدَسُّ عَرْضَهُ، وَلَا يُعَوِّدُ نَفْسَهُ أَسْبَابَ الشَّرِّ بِلُزُومِ صَحْبَةِ الْأَشْرَارِ، وَلَا يَغْضِي عَنْ صِيَانَةِ عَرْضِهِ وَرِيَاضَةِ نَفْسِهِ بِصَحْبَةِ الْأَخْيَارِ، عَلَى أَنَّ النَّاسَ عِنْدَ الْخَبْرَةِ يَتَبَيَّنُ مِنْهُمْ أَشْيَاءٌ ضِدُّ الظَّاهِرِ مِنْهَا.

أَخِي الْحَبِيبُ.. أَيْنَ نَحْنُ مِنْ هَؤُلَاءِ؟!

كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ رُبَّمَا يَمُرُّ بِالرَّجُلِ فَيَجْلِسُ إِلَيْهِ لَغَيْرِ قَصْدٍ وَلَا مَجَالَسَةٍ، فَإِذَا قَامَ سَأَلَ عَنْهُ فَإِنْ كَانَ بِهِ فَاقَةٌ وَصَلَهُ، وَإِنْ مَرَضَ عَادَةً حَتَّى يَجْزُهُ إِلَى مُوَاصِلَتِهِ ^(٣).

وَلِلرَّفِيقِ حَقُوقٌ وَلِلصَّدِيقِ وَاجِبَاتٌ وَقَدْ ذَكَرَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: لَجَلِيسِي عَلَيَّ ثَلَاثٌ: إِذَا دَنَا رَحَبْتُ بِهِ، وَإِذَا حَدَّثَ أَقْبَلْتُ، وَإِذَا جَلَسَ أَوْسَعْتُ لَهُ ^(٤).

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بَعْضًا مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿رُحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إِشَارَةً إِلَى الشَّفَقَةِ وَالْإِكْرَامِ، وَمِنْ تَمَامِ الشَّفَقَةِ أَنْ لَا يَنْفَرِدَ بِطَعَامٍ لَذِيذٍ أَوْ بِحَضُورٍ فِي مَسْرَةٍ دُونَهُ بَلْ يَتَنَغَّصُ لِفِرَاقِهِ وَيَسْتَوْحِشُ بِانْفِرَادِهِ ^(٥).

(١) الخبيص: نوع من الحلوى.

(٢) روضة العقلاء: (١٠٠).

(٣) تاريخ بغداد: (٣٦٠/١٣).

(٤) الإحياء: (١٩١/٢).

(٥) المرجع السابق.

وقال رسول الله ﷺ: «خيرُ الأصحاب عند الله خيرُهم لصاحبه»^(١)
 إِذَا أَنْتَ صَاحِبَتْ فَكُنْ فَتًى
 كَأَنَّكَ مَمْلُوكٌ لِكُلِّ رَفِيقٍ
 وَكُنْ مِثْلَ طَعْمِ الْمَاءِ عَذْباً وَبَارِداً

علَى الْكَبْدِ الْحَرِيِّ لِكُلِّ صَدِيقٍ^(٢)
 هذه صحبة الأخيار ورفقة الصالحين تناديك - أخي المسلم - فهي
 عونٌ لك في الشدائد ومنبّه لك عند العثرات .. إعانة على الخير وتواصي
 بالصبر .. فالزم أهل الخير وجاور أهل التقى .

في الجانب الآخر .. ماذا نرى؟! إِنَّهُمْ الْأَشْرَارُ وَرَفَقَاءُ الشُّوءِ .. تزيينٌ
 للفاحشة وإضاعةٌ للطاعات .. وإتيانٌ للمحرّمات .. لا تغني معرفتهم في
 الدنيا شيئاً ولا تثمر في الآخرة إلا شقاءً وندماً .. وصفهم الله - جلّ
 وعلا - يوم القيامة بأنّهم أعداء .. انتهت تلك الرفقة وتلاشت تلك
 الصحبة . وتحول كل ذلك إلى عداوة وبغضاء ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ
 لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] .

كان أبو الدرداء - رضي الله عنه - يقعد إلى القبور، ف قيل له في ذلك ..
 فقال: أجلس إلى قوم يذكرون معادي، وإن غبتُ لم يغتابوني^(٣) .
 وكانوا يتحرّون للصحبة كبار السن من جمل الشَّيب مفارق رؤوسهم
 وعلا الوقار حديثهم، عصرتهم الأيام وخبرتهم الليالي .. أهل الدِّين
 والعقل والحكمة ..

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني .

(٢) التواضع والخمول: (٣٧) .

(٣) منهاج القاصدين: (٤٣٢) .

قال أبو عمرو بن العلاء: رأني سعيد بن جبير وأنا جالس مع الشباب، قال ما يجلسك مع الشباب؟ عليك بالشيوخ^(١).

ومن جلس اليوم إلى الشيوخ لم يرض بمجالس الشباب فهناك تخرج من أفواه الكبار الحكمة والقصة وتذكر السنين الماضية. وما بينهما إلا ذكر لله واستغفار وتسبيح وتحميد. فمن يداني تلك المجالس يربح ومن يلازمهم يفرح، وإن أخذ منهم وأضاف لهم من علمه وقراءته فقد زكى ونما. وله في تلك الرفقة دعوة ومعرفة وخلاصة تجربة. وإلا فعليه بقول أبي الدرداء: لصاحب صالح خير من الوحدة، والوحدة خير من صاحب السوء، ومملي الخير خير من السّاكتِ والسّاكتُ خير من مملي الشر.

وقال أبو حاتم: العاقل لا يصاحب الأشرار؛ لأن صحبة صاحب السوء قطعة من النار، تُعقب الضغائن لا يستقم وده، ولا يفي بعهده. وإن من سعادة المرء خصالاً أربعاً: أن تكون زوجته موافقة، وولده أبراراً، وإخوانه صالحين، وأن يكون رزقه في بلده. وكلّ جليس لا يستفيد المرء منه خيراً تكون مجالسة الكلب خيراً من عشرته، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم، كما أنّ من يدخل مداخل السوء يُتهم.

قال الزهري: وهل يُنتفع من السيِّء الخلق بشيء^(٢).
وقال وهب بن منبه: الأحق كالثوب الخلق، إن رفاته من جانب انخرق

(١) روضة العقلاء: (١٠١).

(٢) روضة العقلاء: (٦٥).

من جانب آخر، مثل الفخار المكسور لا يُرَقَّع ولا يُشَعَّب ولا يعادُ طينًا .
فهذا مَثَلُ الأحمق : إنَّ صحبتهُ عَنَّاكَ ، وإن اعتزلته شتمك ، وإن أعطاك
مَنَّ عليك ، وإن أسرَّ إليك اتهمك ، وإن أسررت إليه خانك ، وإن كان
فوقك حقَّرك ، وإن كان دونك غمزك ^(١) .

وحال بعض مجالس اليوم قريبة من ذلك بل وتزيد على ذلك . .
أخي المسلم:

رفقة العاصي ما هي نتيجتها وفائدتها . إنَّها فراق وشقاق وخسران
ووبال . . في يوم تنقطع تلك المودة وتزول المحبة لأنها بنيت على
جرف هار .

قال علي بن الحسين : ما اصطحب اثنان على معصية إلا أوشك أن
يفترقا على غير طاعة ^(٢) .

وذلك لأن رباط المعصية رباطٌ واه كخيطة العنكبوت سرعان ما ينقطع
ويزول . . لأنَّه رباطٌ غير صادق لم يقم إلا على معصية ولم ينشأ إلا عن
غفلة ومصلحة . . متى انتهت انقطع وتصرَّم !!

لكن أوثق العُرَى رباط الأخوة الدينية الذي ينهك إذا غفلت ، ويذكرك
إذا نسيت ، ويحتسب الأجر في مودتك ورفقتك . . ، ويتقرب إلى الله
- عزَّ وجلَّ - لمحبتك . .

أخي الحبيب:

إنَّ مَنْ ذَكَرَكَ بحقَّ الله عليك وأعانك على الطاعة وجنَّبكَ المعصية لهو

(١) روضة العقلاء : (١٢٢) .

(٢) البداية والنهاية : (١٢١/٩) .

خفر الإخوان وأصدق الأخلاء وأوفى الرّفقاء . . بل إنّه بصنعه هذا خفر لك ممّن يعطرك مالا وبنالك منه إحسانا . . إنّ هذا هو خفر الإحسان وأوفره . . قال بلال بن سعد: أخ لك كلّما لقرك ذكرّك بحظّك من الله، خفر لك من أخ كلّما لقرك وضع في كفّك دينارا^(١).

يدلّك على درب الآخرة ويزودك من زادها ويسهل لك أمر العبادة ويفتح لك طرق الخير . . صاحب خوف ومراقبة وخشية ومحاسبة .

ومن الخوف المستمر، والوجل الدائم قال الفضيل بن عياض: بلغني عن طلحة بن مصرف أنّه ضحك يوما، فوثب على نفسه، فقال: فيم الضّحك؟! إنّما يضحك من قطع الأهوال وجاز الصّراط، ثمّ قال: آليت أن لا أرى ضاحكا حتّى أعلم بماتقع الواقعة، فما رؤي ضاحكا حتّى صار إلى الله - عزّ وجلّ -^(٢).

أخبر:

إنّ رفقة الصّالحين ومصاحبة الطّيبين لهي خير معين على الطّاعة والعبادة بل إنّها من المثبتات على لزوم العجادة والسير إلى الدّار الآخرة . . ولذا حرصوا على مصاحبة الأخيار والحثّ على رفقة الصّالحين .

قال إبراهيم التيمي: إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى، فاغسل يدك منه^(٣).

إنّ مثل هؤلاء الأخيار تجب محبتهم ويحسن القرب منهم قال عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - في ذلك: والله لو صمتُ النّهار لا

(١) حلية الأولياء: (٢٢٥/٥).

(٢) حلية الأولياء: (١٥/٥).

(٣) حلية الأولياء: (٢١٥/٤).

أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالي غلقًا غلقًا في سبيل الله أموت يوم أموت وليس في قلبي حبٌّ لأهل طاعة الله وبغضٌ لأهل معصيته ما نفعني ذلك شيئًا^(١).

ولتأمل في إحدى نصائح من نُحِبُّ في الله . . قال محمد بن يونس بن موسى: سمعت زهير بن نعيم وقد قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن توصي بشيء؟ قال: نعم، أحذر أن يأخذك الله وأنت في غفلة. والمعاملة الطيبة الحسنة صفةٌ ملازمةٌ لأهل الخير فهذا أحدهم وهو يزيد بن أبي حبيب يقول: لا أدع أخًا لي يغضب عليّ مرتين، بل أنظر الأمر الذي يكره فأدعه^(٢).

ألا فنعمت الأخوة ونعمت المحبة.

وكنْتُ إذا صحبتُ رجـالَ قومِ
صحبتهم وشيئتي الوفاءُ
فأحسن حين يُحسن محسنهم
واجتنب الإسـاءة إن أساءوا
وأبصر ما يريبهم بعين
عليها من عيـونهم غطاء^(٣)

دخل جماعة على الحسن وهو نائم فجعل بعضهم يأكل من فاكهة في البيت فقال: رحمك الله، هذا والله فعل الإخوان^(٤).

(١) الإحياء: (١٧٥/٢).

(٢) تذكرة الحفاظ: (١٣٠/١).

(٣) شذرات الذهب: (٣٣/٢).

(٤) منهاج القاصدين: (١٠٨).

وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له وكان غائبًا، فأمر أهله، فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته، فأخبرت الجارية مولاها فقال: إن صدقت فأنت حرة لوجه الله.. سرورًا بما فعل^(١).

لست أنسى تلك الحقوق ولكن
لست أدري بأيهن أكافيء
ومن يكافيء أولئك الرجال؟!

كتب الأوزاعي إلى أخ له: أما بعد: فإنه قد أحيط بك من كل جانب، واعلم أنه يسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر الله والمقام بين يديه، وأن يكون آخر عهدك به.. والسلام^(٢).

أخي المسلم:

وإذا كان هؤلاء الإخوان وأولئك هم الأحبة.. بين فعل حسن ونصيحة مُحَقَّة.. فعليك بهم كما أوصى بذلك علي بن أبي طالب: عليكم بالإخوان فإنهم عُدَّةٌ في الدنيا والآخرة.. ألا تسمعوا قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (٢) [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].^(٣)

ألا إنهم عدة في الدنيا والآخرة.. إذا كان أحدهم مثل أبي سليمان الداراني الذي يقول: تُعرض عليَّ النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل، الكتاب والسنة^(٤).

وما ذاك - أخي الكريم - إلا خوفًا من أن تكون كلمة سوء.. يؤزر

(١) الإحياء: (١٨٩/٢).

(٢) حلية الأولياء: (١٤٠/٦).

(٣) الإحياء: (١٧٥/٢).

(٤) مدارج السالكين: (٤٢/٢).

عليها ولا يؤجر . ومجالس اليوم مجالس لا تَعْرَضُ حديثها على الكتاب والسنة . . بل إِنَّ بعضها فيه استهزاء بالكتاب وأهل السنة - والعياذ بالله . .
أخي الحبيب:

انظر إلى قياسهم في الصَّحبة وما يجب في الرفيق ، فقد كفوك مؤنة البحث ومشقة النظر ووضعوا لك الموازين . .

هذا مالك بن دينار يقول للمغيرة بن حبيب: يا مغيرة . . انظر كلَّ جليس وصاحب لا تستفيد في دينك منه خيراً فأنبذ عنك صحبته^(١) .

وكل ما دون الدين فهو سهل وكل ما وراء الخير فهو هين . . ركيذة الدين هي الأساس وما ظهر خلاف ذلك من زلّة وهنة فالرجوع قريب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولو كان كل ما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة^(٢) .

وقال الفضيل بن عياض: مَنْ طلبَ أَخاً بلا عيبٍ بقي بلا أخ^(٣) .

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل إذا رزقه الله وُدَّ امرئ مسلم صحيح الوداد محافظ عليه: أن يتمسك به، ثم يوطن نفسه على صلته إن صرمه، وعلى الإقبال عليه إن صدّعه، وعن البذل له إن حرّمه، وعلى الدنو منه إن باعده، حتى كأنه ركنٌ من أركانه، وإن من أعظم عيب المرء تلوّثه في الوداد^(٤) .

(١) الزهد: (٤٤٩)، صفوة الصفوة: (٢٨٦/٣) .

(٢) مجموع الفتاوى: (١٧٣/٢٤) .

(٣) روضة العقلاء: (١٦٩) .

(٤) روضة العقلاء: (١٠٣) .

ويجب أخذ أمر الصديق والرفيق على أحسن المحامل وخير التفسيرات .

قالت بنت عبدالله بن مطيع لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف - وكان أجود قریش في زمانه - : ما رأيت قومًا أَلَمَ من إخوانك !! قال لها : مه ، ولم ذلك ؟ قالت : أراهم إذا أيسرت لزموك ، وإذا أعسرت تركوك ، فقال لها : هذا والله من كرم أخلاقهم ، يأتوننا في حال قدرتنا على إكرامهم ، ويتركوننا في حال عجزنا عن القيام بحقهم . . .
فلله درُّه كيف تأوَّل صنيع إخوانه على أوفى وأكمل الأخلاق والنظرات . . وما ذاك إلا من تقاه وإيمانه وحسن خلقه .

وإذا بحثتَ عن التَّقِيِّ وجدتهُ
رجلاً يُصدِّقُ قَوْلَهُ بفِعَالٍ
وإذا اتَّقَى الله امرؤً وأطاعه
فبيده بين مكارم ومَعَالٍ
وعلى التَّقِيِّ إذا نراسخَ في التَّقَى
تاجان : تاجُ سَكِينَةٍ ، وجمالٍ
وإذا تناسبت الرجالُ ، فما أرى
نسبًا يكون كصالح الأعمال^(١)

أخي الحبيب :

ومن لا يغمضُ عينه عن صديقه
وعن بعض ما فيه يمتُّ وهو عاتبٌ

(١) روضة العقلاء : (٢٨٦/٩) .

وَمَنْ يَتَّبِعْ جَاهِدًا كُلَّ عَثْرَةٍ
يَجِدْهَا وَلَا يَبْقَى لَهُ الدَّهْرُ صَاحِبٌ^(١)

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

كان عبدالله بن المبارك إذا عزم على الحجَّ يقول لأصحابه: من عزم منكم في هذا العام على الحجَّ فليأتني بنفقته حتَّى أَكُونَ أَنفَقَ عَلَيْهِ، فيأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كلِّ صرَّةٍ اسمَ صاحبها ويجعلها في صندوق، ثمَّ يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب وحسن الخلق والتيسير عليهم، فإذا قضوا حجَّتَهم يقول لهم: هل أوصاكم أهلوكم بهدية؟، فيشتري لكل واحد منهم ما وصَّاهم أهله من الهدايا المدنية، فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبيضت أبوابها ورُمِّمَ شعثها فإذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم، ثم دعا بذلك الصندوق فتحه وأخرج منه تلك الصُّرر، ثم يُقسَم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم^(٢).

أخي المسلم:

للصدقة الحقَّة شروط فكما أن هناك صداقة قائمة على منفعة فهذه تدوم بدوام هذه المنفعة، وإمَّا صداقة قائمة على الهوى فهذه صداقة في مهبِّ الريح لأنَّها قامت على أساس متقلَّب فلا يأمن أصحابها غرر بعضهم

(١) البداية والنهاية: (٢٨٦/٩).

(٢) البداية والنهاية: (٢٠٣/١٠).

ببعض ، وأما صداقة مبنية على الإيمان والحب في الله فهذه هي الأخوة الصّادقة المستمرة .

أخي الكريم:

سَامِعْ أَخَاكَ إِذَا خَلَّطَ
مِنْهُ الْإِصَابَةَ وَالْعَلَّطَ
وَتَجَافِ عَنْ تَعْنِيفِهِ
إِنْ زَاغَ يَوْمًا أَوْ قَسَّطَ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ إِنْ طَلَبَ
مَتَّ مَهْذَبًا رَمَتِ الشُّطَطَ
مَنْ ذَا الَّذِي مَسَا سَاءَ قَـ

ط وَمَنْ لَهُ الْحَسَنَى فَقَطْ
والأخ هذا الذي تتحمل جفوته وتصبر على زلّته لا يعدو كونه أحد رجلين . . قال عنهم شعيب بن حرب: لا تجلس إلا مع رجلين: رجل إذا جلست إليه يعلمك خيرًا فتقبل منه، أو رجل تعلمه خيرًا فيقبل منك . . والثالث: اهرب منه^(١).

وانظر فيمن حولك لترى كيف هم أصحابك وأحبابك؟! وعليك بمراتب ومنازل ذكرها ابن الجوزي لتتزل كلا منهم منزلته، قال:
كان لنا أصدقاء والأخوة عجائب فأخذت أعتب .

ثم انتبهت لنفسي فقلت: وما ينفع العتاب، فإنّهم إن صلحوا فللعتاب لا للصداقة. فهممت بمقاطعتهم، ثم تفكرت فرأيت الناس بي معارف

(١) صفوة الصفوة: (٨/٣).

وأصدقاء في الظاهر وإخوة مباطنين، فقلت لا تصلح مقاطعتهم.
 إنما ينبغي أن تنقلهم من ديوان الإخوة إلى ديوان الصداقة الظاهرة فإن
 لم يصلحوا لها نقلتهم إلى جملة المعارف، وعاملتهم معاملة المعارف،
 ومن الغلط أن تعاتبهم.

قال يحيى بن معاذ: بشئ الأخ تحتاج أن تقول له اذكرني في دعائك.
 وجمهور الناس اليوم معارف ويندر فيهم الصديق في الظاهر..
 وإياك أن تتخدع بمن يظهر لك الودَّ، فإنَّه مع الزَّمان يبين لك الحال
 فيما أظهره.

وربما أظهر لك ذلك لسبب يناله منك.

قال الفضيل بن عياض: إذا أردت أن تصادق صديقاً فأغضبه فإن رأيتَه
 كما ينبغي فصادقه.

وهذا اليوم مخاطرة، لأنَّك إذا أغضبت أحداً صار عدواً في الحال^(١).
 في زمنهم مخاطرة أما في زمننا فهو أكثر من ذلك؟! فقد شحَّت الأنفس
 وضائق الصدور واندثرت المروءات إلا ما رحم ربي وقليل ما هم!!
 هذا ابن المبارك وقد صحب رجلاً سيئ الخلق في سفر فكان يحتمل
 منه ويداريه فلمَّا فارقه، بكى، ف قيل له في ذلك، فقال: بكيتَه رحمةً له،
 فارقتَه وخُلِّقَ معه لم يفارقه^(٢).

قال الفضيل بن عياض: إذا خالطتَ فخالطَ حَسَنَ الخلق، فإنَّه لا يدعو
 إلا إلى خير، وصاحبُه منه في راحة ولا تخالطُ سيئَ الخلق فإنه لا يدعو

(١) صيد الخاطر: (٤٩٧).

(٢) الإحياء: (٥٧/١٠).

إلا إلى شرٍّ، وصاحبه منه في عناء، ولأن يصحبني فاجرٌ حسن الخلق أحبُّ إليَّ من أن يصحبني قاريء سيء الخلق، إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بعقله وخفَّ على النَّاس وأحبُّوه، وإن العابد إذا كان سيء الخلق ثقل على النَّاس ومقتوه^(١).

أخي الحبيب:

ما هو سوء الخلق؟! وبأي شيء يُعرف حسن الخلق؟! قال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال: قلة الخلاف. وحسن الإنصات. وترك طلب العثرات. وتحسين ما يبدو من السيئات. والتماس المعذرة. واحتمال الأذى. والرجوع بالملامة على النفس. والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره. وطلاقة الوجه للصغير والكبير. ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه^(٢).
سألزم نفسي الصفح عن كلِّ مذنَّب
وإن كثرت منه عليَّ الجرائم
وما النَّاس إلا واحد من ثلاثة
شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاوم
فأما الذي فوقني فأعرف قدره
وأتَّبِع فيه الحقَّ والحقُّ لازم
وأما الذي دوني فإنَّ قال صنت عن
إجابته عرضي وإن لام لائم

(١) روضة العقلاء: (٦٤).

(٢) الإحياء: (٧٧/٣).

وَأَمَّا السَّيِّئُ مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا

تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم^(١)

وأعظم من هذا وذاك قول الله - عزَّ وعلا - : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ
وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٩٩) وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ [الأعراف: ٩٩١، ٢٠٠].

فالآية تشتمل على أربع قواعد في التعامل مع الناس:
فأولها: أخذ العفو.

وثانيها: الأمر بالمعروف.

وثالثها: الإعراض عن الجاهلين.

ورابعها: الاستعاذة بالله من نزغ الشياطين.

وقد روي عن جعفر الصادق أنه قال: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم
الأخلاق منها^(٢).

وذكر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سهولة حصول الخير فقال:
البرُّ شيء هين، وجه طليق، وكلام لين^(٣).

ومن آداب المجالس وواجبات الأخوة في الله ما قاله مجاهد بن
جبر... لا تحدَّ النظر إلى أخيك ولا تسأل من أين جئت؟ وأين
تذهب؟^(٤).

وتأمل مجالس اليوم وكثرة الأسئلة فيها؟!

(١) الإحياء: (١/٣).

(٢) فتح الباري لابن حجر: (٣٠٦/٨).

(٣) الإحياء: (١٢٩/٣).

(٤) صفة الصفوة: (٢٠٩/٢).

ولرفعة النفس وسموها عن الدنيا قال مالك - رحمه الله - : ما جالست
سفيها قط !!

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤالا.؟!

قال مجاهد : صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني ^(١) .
هذه صفة من صفاتهم وفيض من نبعهم . . بها تستمر العشرة وتدوم
المودة .

عن ميمون بن مهران قال : سمعت ابن عباس يقول : ما بلغني عن أخ
مكروه قط إلا أنزلته أحد ثلاث منازل :
إن كان فوقني عرفتُ له قدره ، وإن كان نظيري تفضلت عليه ، وإن كان
دونني لم أجهل به ^(٢) .

وأما ما وقع فيه كثير من الناس فقد قال عنه الحسن : ابن آدم تبغض
الناس على ظنة ، وتنس اليقين من نفسك ^(٣) .
نعم أنت تعلم وتعرف عيوبك ومساوئك وتظن الظنون بمساويء
إخوانك وأحبائك وتبغضهم لذلك الظن .

إن أثر الصبغة الطيبة والرفقة الصالحة ظاهرة لا تحتاج إلى كثير
إيضاح ويكفي من ذلك موقف واحد لتمييز الطرق وتتضح السبل :
﴿ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٣] .
يكفي هذا الموقف لتأخذ المحبة في الله الصدارة وقصب السبق .

(١) السير : (٤٥٢/٤) .

(٢) صفة الصفوة : (٧٥٤/١) .

(٣) الحسن البصري : (١٠٦) .

قال أحمد بن حرب: عبدتُ الله خمسين سنة، فما وجدت حلاوة العبادة حتّى تركت ثلاثة أشياء:

تركت رضا الناس حتى قدرت أن أتكلم بالحق.

وتركت صحبة الفاسقين حتى وجدت صحبة الصّالحين.

وتركت حلاوة الدُّنيا حتى وجدت حلاوة الآخرة^(١).

وحين لا يجد المسلم من يُعينه. . ويثبّته ويشدُّ أزره في رحلة الدنيا

فعليه بقول الإمام أحمد بن حنبل عندما قال: رأيت الخلوة أروح لقلبي^(٢).

(١) السير: (٣٤/١١).

(٢) السير: (٢٢٦/١١).

المحبة في الله

إن المحبة في الله هي أوثق عرى المحبة، وأصدقها وأدومها وأبقاها.. فهي وإن كانت تبدأ في هذه الحياة الدنيا.. إلا أنها تستمر وتبقى في الآخرة.. لأنها محبة قائمة على طاعة الله مستمدة صفاءها من دين الله..

قال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحب»^(١).

صداقة خير تسير في طريق خير.. لأن المسلم بحكم إيمانه بالله - تعالى - لا يحب إذا أحب إلا في الله، ولا يبغض إذا أبغض إلا في الله.. وهو على هذا يحب عباد الله الصالحين ويتقرب منهم ويوادهم ويناصحهم ويواسيهم.. فهم أحبته وإخوانه بل ويتقرب إلى الله بهذا العمل الصالح، وفي الحديث: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان» وذكر منها: «وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا الله»^(٢).

قال عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما -: والله لو صمت النهار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالي غلقاً في سبيل الله، أموت يوم أموت وليس في قلبي حبٌّ لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله.. ما نفعتني ذلك شيئاً^(٣).

وهذه المحبة نابعة من طاعة الله.. لاتدنسها أهداف الدنيا ونوازع البشر فلا أطماع ولا مغامم سوى رضا الله وهو خير مغنم..

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) الإحياء: (١٧٥/٢).

قال سفيان: ليس شيء من عمل أرجو أن لا يشوبه شيء كحبي مجتمعا التميمي^(١).

وهذا كمال الصدق في المحبة والإخلاص في العمل .. إنها محبة في الله .. والله ..

والمحبة في الله تجعل المسلم يرتفع بأخلاقه ويسمو بنفسه عن مواطن الزلل ومظان السوء.

قال عمر بن حفص .. قال لي عمر بن عبد العزيز: إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محملاً من الخير^(٢).

ولا شك أنه إذا أحب الرجل أن ينصف من نفسه، فليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه^(٣).

نعم - أخي الحبيب - أنزل الناس منزلتك .. وأنزل نفسك منزلتهم .. فإنك بهذا تقيم ما اعوجج وتصلح ما فسد.

قال بكر بن عبد الله: إذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا فضل أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل هذا ذنب أحدثته^(٤).

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: ولا تظنن

(١) صفة الصفوة: (١٠٨/٣).

(٢) تاريخ الخلفاء: (٣٢٣).

(٣) الفوائد: (١٩٤).

(٤) صفة الصفوة: (٢٤٨/٣).

بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا وأنت تجد لها في الخير محملاً^(١).

وقال عبدالله بن زيد الجرمي: إذا بلغك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذرًا فقل في نفسك: لعل لأخي عذرًا لا أعلمه^(٢).

اقبل معاذيرَ مَنْ يَأْتِيكَ معذرا

إن برَّ عندك فيما قال أو فجَّرا

فقد أطاعك مَنْ يَأْتِيكَ مُعْذِرًا

وقد أجلك مَنْ يعصيك مُسْتِثْرًا^(٣)

قال حماد: ما رأيت رجلاً أشدَّ تبسمًا في وجوه الرِّجال من أيوب السخيتاني^(٤).

وهذا التبسم والتبسط للمسلمين.. أما ما سواهم.. فالأمر كما قال سفيان الثوري: عندما سُئل: أضافح اليهود والنصارى؟ فقال: برجلك نعم!!^(٥).

فإنَّ لأهل الإسلام كرامة ومنزلة لا يبلغها غيرهم من بني الإنسان. وقد كان لمحمد بن سيرين منازل لا يكرهاها إلا من أهل الذمة، فقليل له في ذلك، فقال: إذا جاء رأس الشهر رُغِئَتْهُ، أكره أن أروِّع مسلمًا^(٦).

(١) تفسير ابن كثير: (٢١٢/٤).

(٢) صفة الصفوة: (٢٣٨/٣).

(٣) طبقات الحنابلة: (٩٤/٤).

(٤) تذكرة الحفاظ: (١٣١/١).

(٥) وفيات الأعيان: (٣٨٨/٢).

(٦) صفة الصفوة: (٢٤/٣)، وحلية الأولياء: (٢١٨/٢).

نعم للمسلم مكانة في نفس أخيه المسلم ومحبة خاصة قال الله - عز وجل - في وصف ذلك بأنهم: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

روي عن محمد بن علي قال: أراد جابر لأبي حمزة السكري أن يبيع داره، فقيل له: بكم؟ قال: بألفين ثمن الدار، وبألفين جوار أبي حمزة، فبلغ ذلك أبا حمزة، فوجه إليه بأربعة آلاف، وقال له: لا تبع دارك^(١).

وانظر - أخي الحبيب - إلى الفرح والسرور برؤية آثار الطاعة ومحبة الخير للمسلمين.. قال صالح بن أحمد بن حنبل: جاء جابرٌ لنا قد خضب، فقال أبي: إنني لأرى الرجل يحيي شيئاً من السنة فأفرح به^(٢).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال أبو معاوية الأسود: إخواني كلهم خيرٌ مني، قيل له: وكيف ذلك يا أبا معاوية؟ قال: كلهم يرى الفضل لي على نفسه، ومن فضلني على نفسه فهو خيرٌ مني.

والمرء يذكر بالجميل بعده
فارفع لذكرك بالجميل بناء
واعلم بأنك تُذكر مرة

فيقال: أحسن، أو يقال أساء
إنها صفات كُملت وجُمِلت بالإسلام.. فكان تاجاً للأخلاق الفاضلة
ونبراساً للمعاملة الحسنة.

وتبقى الدنيا دار الهفوات ومقر الزلات والعثرات.. فهفوة الصديق لا

(١) السير: (٣٨٧/٧).

(٢) السير: (٢٣٥/١١).

تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية أو في حقك بتقصيره في الأخوة، أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نصحه بما يقوم أودّه^(١)، ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله^(٢).

ويكون ذلك عن طريق النصيحة والتوجيه.. وذلك بالحسنى والموعظة الحسنة قال سفيان الثوري: قلت لسعد بن كدام: تُحب أن يهدى إليك عيوبك؟ قال: أما من ناصح فنعم، أما من موبخ فلا^(٣).
قال الإمام الشافعي:

تعمدني بنصحك في انفرادي
وجنبني النصيحة في الجماعة
فإن النصيح بين الناس نوعٌ
من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإن خالفتني وعصيت قولي
فلا تجزع إذا لم تُعط طاعة
حين أمر أبو الدرداء على رجل قد أصاب ذنبًا فكانوا يسبون، فقال:
أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال:
فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله - عز وجل - الذي عافاكم، قالوا: أفلا
نبغضه؟ قال: إنما ابغضوا عمله فإذا تركه فهو أخي..

(١) أود: أي غوج.

(٢) الإحياء: (١٩٩/٢).

(٣) حلية الأولياء: (٢١٧/٧).

وكذلك حكى عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقبل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره، فقال: أحوج ما كان إليّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلف له في المعاتبة وأدعو له بالعودة إلى ما كان عليه^(١).

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يتحجب إلى الناس بلزوم حسن الخلق، وترك سوء الخلق؛ لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا، كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل، وقد تكون في الرجل أخلاق كثيرة صالحة كلها، وخلق سيء، فيفسد الخلق السيء الأخلاق الصالحة كلها^(٢).

والتأصح المشفق هو الأخ الصادق كما قال يحيى بن معاذ: أخوك من عرفك العيوب وصديقك من حذرك من الذنوب.

وحتى حينما تكون المواجهة في مكان عام فانظر إلى الحلم والعفو وطيب النفس وعلوها. خرج علي بن الحسين يوماً في المسجد فسبه رجل، فانتدب الناس إليه فقال: دعوه، ثم أقبل عليه، فقال له ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيا الرجل، فألقى إليه خميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم^(٣).

قال حبيب الجلاب: سألت ابن المبارك: ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: غريزة عقل.

قلت: فإن لم يكن؟ قال: حسن أدب.

(١) الإحياء: (٢/٢٠٠).

(٢) روضة العقلاء: (٦٤).

(٣) البداية والنهاية: (٩/١١٨).

قلت : فإن لم يكن؟ قال : أخ شفيق يستشير .
 قلت : فإن لم يكن؟ قال : صمت طويل . قلت : فإن لم يكن؟ قال :
 موت عاجل^(١) .

وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سرًا حتى قال بعضهم : من
 وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ، ومن وعظه على رؤوس الناس
 فإنما وبخه .

وقال الفضيل بن عياض موضحًا الفرق بين النَّاصِح والَّشَّامِت : المؤمن
 يستر وينصح والفاجر يهتك ويُعير^(٢) .

وينثر أبو الدرداء دررًا من الكلام وجواهر من الحكم فيقول : معاتبه
 الأخ خيرٌ من فقدّه ، ومَنْ لك بأخيك كله أعط أخاك ولن له ولا تطع به
 حاسدًا فتكون مثله ، غدًا يأتيه الموت فيكفيك قتله ، كيف تبكيه بعد
 الموت وفي الحياة تركت وصله^(٣) .

لا أمدحُ المرءَ أبغي من فضائله
 ولا أظلمُ أداجيهِ إذا غضبنا
 ولا يراني على باب أراقبه أبغي
 الدخول إذا ما بابُه حجبنا

قال الخليل بن أحمد النحوي : الرجل أربعة :
 * رجل يدري ولا يدري أنّه يدري فذلك غافل فبّهوه .
 * ورجل لا يدري ويدري أنّه لا يدري فذاك جاهل فعلموه .

(١) السير : (٣٩٧/٨) .

(٢) جامع العلوم والحكم : (٧٧) .

(٣) صفة الصفوة : (٣٦٤/١) .

* ورجل يدري ويدري أنه يدري فذاك عالم فاتَّبِعُوهُ .

* ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذاك مائق فاحذروه^(١) .

والتَّصِيحَةُ طريق النَّاصِحِينَ ، هذا رجل نصَّح لأبي حنيفة : فقال : اتَّقِ اللَّهَ !! فانْتَفَضَ أَبُو حنيفة وَاضْفَرَ ، وَأَطْرَق ، وقال : جزاك الله خيرًا ، ما أَحوج النَّاسَ كلَّ وقتٍ إلى من يقول مثل هذا^(٢) .

والتَّوَّاصِي بِالْحَقِّ . . يصدر من صغير إلى كبير ومن كبير إلى صغير . . بل ومن عالم إلى عالم .

كتب إبراهيم بن أدهم إلى الثوري : من عرف ما يطلب هان ما يبذل ، ومن أطلق بصره طال أسفه ، ومن أطلق أمله ساء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه .

وقال الشافعي : أغز الأشياء ثلاثة : الجود من قلة ، والورع في خلوة ، وكلمة الحق عند من يُرْجى أو يخاف^(٣) .

حياة المؤمن كلها طاعة وأوقاته كلها عبادة . . قال حاتم الأصم : ما من صباح إلا والشيطان يقول لي : ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول : آكل الموت وألبس الكفن وأسكن القبر^(٤) .

وكان الربيع بن خيثم إذا أصبح قال : مرحبًا بملائكة الله . . اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

(١) تذكرة الحفاظ : (٣/٧٨٨) .

(٢) السير : (٦/٤٠٠) .

(٣) جامع العلوم والحكم : (١٩٥) .

(٤) صفة الصفوة : (٤/١٦٢) .

أخى الحبيب:

انظر القياس وزن الأمور.. قال عروة بن الزبير لبنه ناصحًا وموضحًا: إذا رأيت الرجل يعمل الحسنة، فاعلموا أن لها عنده أخوات، وإذا رأيت الرجل يعمل السيئة فاعلموا أن لها عنده أخوات، فإن الحسنة تدل على أختها، والسيئة تدل على أختها^(١).

وأيام الحياة تسير.. ودقائق الأوقات تنقضي.. ما هو الخير في تلك اللحظات الغالية النفيسة. إنه كما قال سعيد بن عبدالعزيز: لا خير في الحياة إلا لصموت واع وناطق عارف^(٢).

وتبقى لحظات في حياة المسلم يؤانس بها صحبه ويزيل الكلفة عن رفقته.. فالدعابة لها وقت وشروط والمزاح له حد معقول.. فلا يفرط فيها.. لأن الإسلام ليس في حاجة إلى الهازلين والمهرجين واللاعبين، بل الحاجة قائمة للرجال الجادين الذين شغلوا أوقاتهم بطلب العلم والدعوة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما من يُكثر من المزاح فقد أساء كل الإساءة لنفسه ولدينه، ومن حرص على سنته ﷺ، فإنه سيعطي المزاح قدرًا يسيرًا، والحق أنه من الغلط العظيم أن يتخذ المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه، ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ، وهو كمن يدور نهاره مع الزوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله ﷺ أذن لعائشة في النظر إلى لعب الزوج في يوم عيد^(٣).

عن الأحنف بن قيس قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: يا أحنف، من

(١) البداية والنهاية: (١١٥/٩).

(٢) تذكرة الحفاظ: (٢١٩/١).

(٣) تهذيب موعظة المؤمنين.

كثر ضحكك قلَّتْ هيئته، ومن مزح استخفَّ به، ومن أكثر من شيء عُرِف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه وقلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه^(١).

والوجه تخلقه المزاحه إنها
لفظ يضُرُّ ومنطق لا يرشد
فدع المزاحه للسفيه فربما

هاجرت عجاجُ عداوة لا تحمد^(٢)

إن الجادَّ في عمله الخائف من الأحوال التي أمامه.. في حال لا يتطرَّق إليها المزاح ولا الهزال إنَّه كما قال حماد بن إسماعيل: لو قلت لكم إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكاً قطُّ لصدقتكم، كان مشغولاً لنفسه، إمَّا أن يحدث وإمَّا أن يقرأ وإمَّا أن يُسَبِّح وإمَّا أن يُصَلِّي، كان قد قَسَمَ النَّهار على هذه الأعمال.

نعم كانوا يخشون ما أقبل من الأيام ويخافون موقفاً تقشعر من رؤيته الأبدان.. فقد كان عبدالله أبو يعلى يقول: أتضحك ولعلَّ أكفانك قد خرجت من عند القصَّار^(٣).

وحُكي عن بعض الصَّالحين: أنَّه رأى رجلاً وهو يضحك ضحكاً شديداً، فقال له: يا هذا هل ذقت الموت؟ قال: لا، قال: فهل رجح ميزانك؟ قال: لا، قال: فهل جزت الصراط؟ قال: لا، قال: فلأي شيء هذا الضحك والفرح؟!

(١) تاريخ عمر لابن الجوزي: (٢٠٠).

(٢) كتاب الصمت: (٢١٢).

(٣) الإحياء: (١٣٧/٣).

قال فبكى الرجل وقال : لله علي نذرٌ أن لا أضحك بعدها أبداً .
 لله درّه . . أفاق من غفلته وقام من كبوته . . ليته يسمع بعض ضحكات
 المجالس . . ومزاح الفارغين . . وتفاهة بعض المتحدثين .
 بل كيف لو رأى اللاهون العابثون يوماً من أيام وكيع بن الجراح . . فقد
 كان لا ينام حتى يقرأ ثلث القرآن ، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل ،
 ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر فيصلي ركعتين !!

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال الحارث الغنوي : آلى ربي بن حراش أن لا يضحك حتى يعلم في
 الجنة هو أو في النار .

قال الحارث الغنوي : فلقد أخبرني غاسله أنه لم يزل مبتسماً على
 سريره ونحن نغسله حتى فرغنا من غسله .
 رحم الله ضعفنا وتفريطنا وطول غفلتنا . .

قال عمر بن عبدالعزيز لإسماعيل بن عبدالله : يا إسماعيل : كم أنت
 عليك من سنة؟! قال : ستون سنة وشهور ، قال : يا إسماعيل إياك
 والمزاح .

أخي:

إذا ما أتتك الأربعون فعندها

فاخشى الإله وكن للموت حذراً^(١)

قال الفضيل بن عياض : بلغني عن طلحة بن مصرف أنه ضحك يوماً ،
 فوثب على نفسه فقال : فيم الضحك؟ إنما يضحك من قطع الأهوال

وجاز الصراط، ثمَّ قال: آليت أن لا أفتر ضاحكًا حتى أعلم بم تقع الواقعة، فما رأيي ضاحكًا حتى صار إلى الله - عزَّ وجلَّ - .

وعن سعيد بن سالم القداح قال: سمعت عبدالعزیز بن أبي رواد يقول لرجل: من لم يتعظ بثلاث لم يتعظ بشيء: الإسلام، والقرآن، والشَّيب.

صاح بي الشَّيبُ لا مقام
بين الرجعة السقام
صوتان قد أزعجا وحثا
عمري وراعني الحمقام
لا آمن الدهرَ والمنايَا
إذ كلُّ عُمرٍ له انعدام^(١)
ومن رأى قلب الأيام وسرعة انقضائها وفجأة الموت . . هل يتنعم
بلذة نعيم أو يهنأ باله بطرفة ودعابة؟! الأمر جدُّ . . والحساب شديد
الجزاء قادم . .

يا واقفًا يسألُ القبور أفق
فأهلها اليومَ عنك قد سُغِلُوا
قد هالهم منكراً وصاحبُهُ
وخوف ما قدموا وما عملوا
رهائن للثرى على مدر
يُسمع للشدود بينهم زجلُ

سرى البلى فى جسومهم فجرث
دمًا وقبحًا وسالت المقل^(١)

أخى المسلم:

عشت مثلى لحظات مشرقة من حياتهم.. سمعنا حديثهم ورأينا
جدهم.. والسؤال الآن.. هل نترك التبسم والدعابة والطرفة مع
الأحباب والأصحاب؟!

قال الذهبي: الضحك اليسير والتبسم أفضل، وعدم ذلك من مشايخ
العلم على قسمين:

أحدهما: يكون فاضلاً لمن تركه أدباً وخوفاً من الله، وحرناً على
نفسه المسكينة.

الثانى: مذموم لمن فعله حمقاً وكبراً وتصنعاً كما أن من أكثر الضحك
استخف به، ولا ريب أن الضحك فى الشباب أخف منه وأعذر منه فى
الشيخ.

وأما التبسم وطلاقة الوجه فأرفع من ذلك كله، قال النبى ﷺ: تبسمك
فى وجه أخيك صدقة^(٢).

وقال جرير^(٣): «ما رآنى رسول الله ﷺ إلا تبسم فى وجهي»^(٤).
فهذا هو خلق الإسلام، فأعلى المقامات من كان بكاءً بالليل، بساماً

(١) التبصرة: (٩١/١).

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابن حبان وصححه الألبانى.

(٣) هو جرير بن عبد الله البجلي صحابى توفى عام ٥١ هـ.

(٤) أخرجه البخارى ومسلم.

بالنَّهار، وقال - عليه السلام -: «لن تسعوا الناس بأموالكم، فليسمعهم منكم بسط الوجه»^(١).

ينبغي لمن كان ضحوكًا بسامًا أن يُقَصِّرَ من ذلك، ويلوم نفسه حتى لا تمجَّه الأنفس، وينبغي لمن كان عبوسًا منقبضًا أن يتبسَّم ويحسن خلقه، ويمقت نفسه على رداءة خُلُقِه، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم، ولا بدَّ للنفس من مجاهدة وتأديب^(٢).

أخي المسلم:

إن كانت الرفقة الصالحة والأخوة الصادقة تعين على الطاعة وتشد الأزر وتشحذ النفوس.. فإن المسلم يحتاج إلى وقفات محاسبة ولحظات مراجعة.

قال عمر بن الخطاب: خذوا بحظكم من العزلة^(٣).

ولسنا نريد - رحمك الله - بهذه العزلة التي نختارها مفارقة الناس في الجماعات والجمعات وترك حقوقهم في العبادات وإفشاء السلام ورد التحيات وما جرى مجراها من وظائف الحقوق الواجبة لهم ووضائع السنن والعادات المستحسنة فيما بينهم، فإنَّها مستثناة بشرائطها جارية على سبيلها ما لم يخلُ دونها حائل شغل ولا يمنع عنها مانع عذر^(٤). ولذلك قال إبراهيم النخعي لغيره: تفقَّه ثم اعتزل^(٥). وأما إذا كانت

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي وفي إسناده ضعف.

(٢) السير: (١٠/١٤٠).

(٣) العزلة: (١٨).

(٤) العزلة: (١٣).

(٥) العزلة: (٢٤).

العزلة فيها مجانبة لمجالس الشرِّ ومفارقة لرفقاء السوء فإنَّها كما قال عمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه -: في العزلة راحة من خليط السوء^(١).
وقال أبو ذر: الصاحب، مملي الخير خيرٌ من الساكت، والساكت خيرٌ من مملي الشرِّ^(٢).

والمرء كما قال عنه مسروق: حقيق أن تكون له مجالس يخلو فيها فيذكر ذنوبه ويستغفر منها^(٣).

دع الناس ما شاءوا يقولوا فإنني
لا أكثر مما يحكي عليَّ خُمُول
فما كل من أغضبه إذا معتب

ولا كل ما يروى عليَّ أقول
والعزلة - أخي الحبيب - فيها فوائد ظاهرة خاصة في مجتمعات تتفشَّى فيها الغيبة والنميمة . . كما قال إسماعيل بن محمد . . سمعت ابن إبراهيم يقول لو لم يكن في العزلة أكثر من أنَّك لا تجد أعواناً على الغيبة لكفى^(٤).
والكثير تنفر نفسه من العزلة ولا يصبر عن الناس والسبب في ذلك كما قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته وعدم الفضيلة من نفسه فتكثر حينئذ علاقات الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليتستعين بها على الفكرة ويتفرغ لاستخراج الحكمة.

(١) العزلة: (١٨).

(٢) العزلة: (٥٧).

(٣) العزلة: (٣٩).

(٤) العزلة: (٣١).

وخير جليس كتاب الله يؤانس به المسلم وحدته ويتدبر آياته . قال بعضهم : الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس^(١) .

والأ فكيف تتكدر نفسه ويضيق صدره وبين يديه كتاب الله - عز وجل - يقرأه ويتدبر معانيه .

قيل لابن المبارك : إذا أنت صليت لم لا تجلس معنا؟ قال : أجلس مع الصحابة والتابعين ، أنظر في كتبهم وآثارهم ، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس^(٢) .

وليست المؤانسة بكثرة الكلام والمداعبة والمزاح .. فمن تهدأ بحضوره نفسك ويرتاح لوجوده سمعك وعينك فإنه نعم الرفيق حتى وإن تباعدت أيامه وغابت طلعتة ..

قال شبيب بن شيبه : إنَّ من إخواني من لا يأتيني في السنة إلا اليوم الواحد .. هم الذين اتخذهم وأعدُّهم للمحيا والممات ، ومنهم من يأتيني كل يوم فيقبِّلني وأقبله ، ولو قدرت أن أجعل مكان قبلي عضة لعضضته^(٣) .

ويحтар الإنسان في النَّاس فكيف السَّلامة والمخرج؟! وأين الطَّريق والجدادة؟!

قال الشَّافعي - رحمه الله - ليونس بن عبد الأعلى : يا أبا موسى رضا النَّاس غاية لا تدرك ، ليس إلى السَّلامة من النَّاس سبيل ، فانظر ما فيه

(١) العزلة : (٢٢) .

(٢) السير : (٣٩٨ / ٨) .

(٣) العزلة : (٤٥) .

صلاح نفسك فالزمه، ودع الناس وما هم فيه^(١).

أخي الحبيب:

لا تنس قول سفيان الثوري: كثرة أصدقاء المرء من سخافة دينه. .
قال أبو سليمان يوضح ذلك. . يريد أنه ما لم يداهنهم ولم يُجلهم لم
يكثروا لأن الكثرة إنما هي في أهل الريبة، وإن كان الرجل صلب الدين لم
يصحب إلا الأبرار الأتقياء وهم فيهم قلة^(٢).

قال مالك - رحمه الله -: الناس أشكال كأجناس الطير، الحمام مع
الحمام، والغراب مع الغراب، والبط مع البط، والصَّعو^(٣) مع الصَّعو
وكل إنسان مع شكله^(٤).

وهذه بعض آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من
كلام بعض الحكماء:

إن أردت حسن العشرة فالحق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلّة
لهم ولا هيبة منهم، وتوقير من غير كبر، وتواضع في غير مذلة. وكن في
جميع أمورك في أوسطها فكلا طرفي قصد الأمور ذميم. ولا تنظر في
عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا
تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل
أسنانك وإدخال أصبعك في أنفك وكثرة بصاقلك وتنخمك وطرده الذباب
من وجهك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها،

(١) العزلة: (٧٩).

(٢) العزلة: (٤٤).

(٣) الصَّعو: عصفور صغير.

(٤) روضة العقلاء: (١٠٩).

وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً وأصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ولا تتبذل العبد وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحداً على الظلم ولا تعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عندهم وإن كان كثيراً لم تبلغ قط رضاهم، وخوفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الإشارة بيديك ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك ولا تجث على ركبتك، وإذا هدأ غيظك فتكلم وإن قرَّبك سلطان فكن منه على مثل السنان فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وارفق به رفقك بالصَّبي وكلمه بما يشتهي ما لم يكن معصية، ولا يحملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وخشمه وإن كنت كذلك مستحقاً عنده فإن سقطة الداخل بين الملك وبين أهله سقطة لا تنعش وزلة لا تقال، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، وإذا دخلت مجلساً فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع، وأن تحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس .

ولا تجلس على الطريق، فإن جلست فأدبه غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والارتياح لموضع

البصاق ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى .

ولا تجالس الملوك، فإن فعلت فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والإعراب في الخطاب، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم - وإن ظهرت لك المودة - وأن لا تتجشأ بحضرتهم ولا تتخلل بعد الأكل عنده، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفشاء السر والقدح في الملك والتعرض للحرم .

ولا تجالس العامة، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم . وإياك أن تمازح لبيباً أو غير لبيب فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يجتريء عليك لأن المزاح يخرق الهيبة ويسقط ماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الود ويشين فقه الفقيه ويجريء السفيه ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمقته المتقون، وهو يميم القلب ويباعد عن الرب - تعالى - ويكسب الغفلة ويورث الذلة وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب وقد قيل : لا يكون المزاح إلا من سخف أو بطر . . ومن بلي في مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه . . قال النبي ﷺ : «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك . إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»^(١) .

(١) رواه الترمذي، وأحمد وابن حبان وصححه الشيخ الألباني .

وقبل القتال:

نخرج على أعظم صحبة وأجلها فقد كان الصديق - رضي الله عنه - رفيق رسول الله ﷺ في دعوته وهجرته وجهاده . . . فقدّم روحه وماله فداء للرسول ﷺ ونفعاً للإسلام والمسلمين قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مالٌ قطُّ ما نفعني مال أبو بكر»، فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله [رواه أحمد].

وقال ﷺ: «إِنَّ أَمَنَ النَّاسَ عَلَيَّ فِي صَحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ» [رواه البخاري].

أخي المسلم:

جعلنا الله وإياكم من المتحابين فيه وجمعنا ووالدينا وأبنائنا وأزواجنا وأقاربنا في جنات عدن...

المصادر

- ١ - إحياء علوم الدين للغزالي، دار الكتب العلمية، ط ١/١٤٠٦هـ.
- ٢ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.
- ٣ - التبصرة لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ط ١/١٤٠٦هـ.
- ٤ - تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.
- ٥ - تاريخ عمر لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.
- ٧ - تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.
- ٨ - تفسير بن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ.
- ٩ - تهذيب موعظة المؤمنين، جمال القاسمي، دار ابن القيم ط ٢.
- ١٠ - التواضع والخمول لابن أبي الدنيا، تحقيق لطفي الصغير، دار الاعتصام.
- ١١ - جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط ٥/١٤٠٠هـ.
- ١٢ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
- ١٣ - دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ.
- ١٤ - روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية.
- ١٥ - الزهد للحسن البصري، تحقيق د/ محمد عبدالرحيم محمد، دار الحديث.
- ١٦ - كتاب الزهد الكبير للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي

- تحقيق د/ تقي الدين الندوي، دار القلم.
- ١٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن عماد الخنبلي، دار إحياء التراث العربي.
- ١٨ - صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمد فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.
- ١٩ - صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط ١٤٠٧/٢هـ.
- ٢٠ - طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية وأخرى دار المعرفة، بيروت.
- ٢١ - الفوائد لابن قيم الجوزية، دار النفائس.
- ٢٢ - كتاب الصمت وآداب اللسان للإمام الحافظ ابن أبي الدنيا، تصنيف أبي إسحاق الحويني، دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ.
- ٢٣ - كتاب العزلة لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي ط ١٣٥٦/١هـ نشره عزت العطار.
- ٢٤ - مختصر منهاج القاصدين للإمام المقدسي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط ١٤٠٦/٧هـ.
- ٢٥ - مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط ١٤٠٨/٢هـ.
- ٢٦ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، تصوير ط ١٣٩٨/١هـ دار العربية.
- ٢٧ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٣٦٧هـ.



ورثة الأنبياء

المقدمة

الحمد لله الذي جعل في كل فترة من الرسل بقايا من أهل العلم؛ يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله - تعالى - الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍّ تائه هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس! وما أقبح أثر النَّاس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين^(١)، والصَّلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلما هُجر العلم الشرعي علماً، وتعلماً، وضعفت همم الناس وقصرت دون السعي له. جمعت بعض أطراف من صبر وجهاد علمائنا في طلب العلم، والجديه والمداومة عليه؛ لنقتفي الأثر ونسير على الطريق. وهذا هو الجزء الخامس عشر من سلسلة «أين نحن من هؤلاء» تحت عنوان: «ورثة الأنبياء».

أدعو الله - عز وجل - أن يجعل لنا نصيباً من علمهم وصبرهم وحسن عملهم، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

(١) مقدمة الإمام أحمد في الرد على الزنادقة والجهمية.

مدخل

لقد أثنى الله - عز وجل - على العلم وأهله، ورتَّب لمن سار في طريقه الأجر والمثوبة ورفع الدرجات في الدنيا والآخرة. ومن إكرام الله - عز وجل - للعلماء استشهادهم بهم على أعظم مشهود به وأجله وهو توحيده، وقرَنَ شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة.

قال الله - عز وجل - : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا يَلْفُظُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - : في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء^(١).

ورفع الله - جل وعلا - درجة المؤمنين العالمين فوق درجة جهلة المؤمنين وفي كل خير فقال - تعالى - : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

قال الشوكاني : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ أي : ويرفع الذين أتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، ومعنى الآية : أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات^(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٤١/٤).

(٢) فتح القدير: (٢٣٢/٥).

ولا شك أن ذلك من فضل الله وإحسانه ومنه وعطائه ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

ولاختلاف تلك المنازل والدرجات فإن الله - عز وجل - نفى التسوية بين أهل العلم والعوام، فقال - عز من قائل - عليهما -: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

وعن المنزلة الرفيعة والمكانة العلية لأئمة الهدى ومصابيح الدجى قال ابن عباس - رضي الله عنه -: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام^(١).

وقدّم - جلّ وعلا - العلم قبل العمل؛ لأن العلم هو الدليل الذي يهدي إلى المراد، فقال - تبارك وتعالى -: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩].

وروي عن زيد بن أسلم - رضي الله عنه -: في تفسير قوله - تعالى -: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴾ [الأنعام: ٨٣]، قال: بالعلم؛ لأن الله لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم^(٢).

وفي ذلك قال الله - عز وجل - مخاطبًا نبينا محمدًا عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

وقال ﷺ مبيّنًا مكانة العلماء: «العلماء ورثة الأنبياء»^(٣) ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق الورثة لتلك الرتبة^(٤).

(١) الإحياء: (١٥/١).

(٢) فتح الباري: (١٤١/١).

(٣) من حديث رواه أحمد والترمذي.

(٤) الإحياء: (١٦/١١).

وبيّن ﷺ حالة طالب العلم وفضل طلب العلم على غيره من نوافل العبادات، فقال ﷺ مخاطبًا أبا ذر: «يا أبا ذر! لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابًا من العلم عمل أو لم يعمل به خير من أن تصلي ألف ركعة»^(١).

وقال ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رُضًا بما يطلب، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(٢).

قال ابن رجب: يعني أنهم ورثوا ما جاء به الأنبياء من العلم، فهم خلّفوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته، والنهي عن معاصي الله والذود عن دين الله.

ولعظم أمر العلم وأهميته الدنيوية والأخروية في حياة الفرد والمجتمع هذا رسول الله ﷺ يبين فضله وعظم منزلته بقوله: «إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلّم الناس الخير»^(٣).

وبيّن لنا الرسول ﷺ أن العالم الذي ينشر علمه ويُعلمه الناس، له مثل أجر مَنْ عمل بهذا العلم من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، وهذه منّة

(١) رواه ابن ماجه بإسناد حسن كما قال المنذري.

(٢) رواه أحمد وابن حبان.

(٣) رواه الترمذي.

عظيمة وفضل كبير؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»^(١).

وأي عطاء أعظم من هذا؟! به تفر الأعين، وتتحرك النفوس متطلعة إليه لما فيه من الأجر العظيم والثواب الجزيل.

قال سفيان بن عيينة: أتدرون ما مثل العلم؟ مثل دار الكفر ودار الإسلام؛ فإن ترك أهل الإسلام الجهاد وجاء أهل الكفر فأخذوا الإسلام، وإن ترك الناس العلم صار الناس جهالاً^(٢).

وتلك الخطوات التي يسير بها طالب العلم في طريق تحصيله له فيها أجر عظيم، فقد قال رسول الله ﷺ: «ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم، إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضاً بما يصنع حتى يرجع»^(٣).

قال الإمام الخطابي: ومعنى أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم أحد ثلاثة وجوه:

أولها: أنه بسط الأجنحة.

والثاني: أنه كناية عن تواضعها تعظيماً لطالب العلم.

والثالث: أن المراد ترك الطيران والتزول عند مجالس العلم لأجل استماع العلم^(٤).

وكل منزلة من هذه الوجوه فيها من الشرف والعز ما تطمح إليه النفوس

(١) رواه مسلم.

(٢) حلية الأولياء: (٧/٢٨١).

(٣) رواه أحمد وابن ماجه.

(٤) معالم السنن.

وتتشوق إليه . وكفى بالمرء حُبًّا للعلم وطلبه قول النبي ﷺ : «من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين»^(١) .

قال الإمام الآجري : فلما أراد الله - تعالى - بهم خيراً ففقههم في الدين ، وعلمهم الكتاب والحكمة ، وصاروا سراجاً للعباد ومناراً للعباد^(٢) .

وقال رسول الله ﷺ في تفضيل العالم على العابد : «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»^(٣) .

فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة ، وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم ، وإن كان العابد لا يخلو من علم بالعبادة التي يواظب عليها ، ولولاه لم تكن عبادة^(٤) .

والإسلام دين ينبذ الجهل ، ويحث على طلب العلم ، ويرتب الأجر والمثوبة على ذلك .

وفي الحديث عن أنس - رضي الله عنه - : «طلب العلم فريضة»^(٥) .

قال الإمام أحمد : يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه ، قيل له : مثل أي شيء ؟ قال : الذي لا يسعه جهله ، صلاته وصيامه ، ونحو ذلك .

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : اعلم أنَّ طلب العلم فريضة ، وأِنَّه شفاء للقلوب المريضة ، وأنَّ أهمَّ ما على العبد معرفة دينه ، الذي معرفته

(١) رواه البخاري .

(٢) أخلاق العلماء ص (٩٤) .

(٣) رواه الترمذي .

(٤) الإحياء : (١٧/١) .

(٥) رواه ابن ماجه .

والعمل به سبب لدخول الجنة ، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار ، أعاذنا الله منها^(١) .

ويكفي هذا الأمر داعياً إلى طلب العلم فإنه طريقٌ للجنة وموصل إلى أبوابها .

وقد دعا رسول الله ﷺ لمن يطلب العلم بالنصرة (وهي بهاء الوجه وجلاله) فعن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «نَصَّرَ الله امرءاً سمع مناً حديثاً فحفظه حتى يُبلغه غيره ، فَرُبَّ حَامِلٍ فقهٍ إلى مَنْ هو أَفقه منه ، وَرُبَّ حَامِلٍ فقهٍ ليس بفقيه»^(٢) .

وعلى هذا المنهج الربّاني سارت الأمة رجالاً ونساء في قافلة العلم والبحث عليه ومعرفة قدره . فهذا معاذ بن جبل - رضي الله عنه - يبحث على طلب العلم ويبين فضله وفضل أهله فيقول : تعلموا العلم ؛ فَإِنَّ تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة^(٣) .

أيها الحبيب:

اجتهد في طلب العلم ، واحرص على النهل من معينه والعمل به ، ثم عليك بتبليغه وإيصاله إلى الناس امتثالاً لقول الرسول ﷺ : «بلغوا عني ولو آية»^(٤) ؛ فإننا في زمن اندرست فيه معالم الهدى ، وظلّ أكثر الناس جهلاً ،

(١) حاشية ثلاثة الأصول للشيخ عبد الرحمن بن قاسم ص (١٠) .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) جامع بيان العلم وفضله : (١/ ٥٤) .

(٤) رواه البخاري .

ولم يبق إلا ندرة من العلماء الربانيون؛ أعلام الهدى ومصابيح الدجى .
والعلم الذي تُضرب له أكباد الإبل ، وتطوى له الأرض ، وتثنى لأجله
الرُّكْب : هو العلم الشرعي الصحيح المستند من الكتاب والسنة وبفهم
السلف الصالح ، وهو العلم الذي يوصل إلى تقوى الله ومراقبته وخشيته ،
ويدل على طاعة الله - عز وجل - ومعرفة حدوده وأحكامه ، ويوصل إلى
الجنة ويُبعد عن النار .

قال عبدالرحمن السعدي : أما العلم النافع فهو العلم المُزكي للقلوب
والأرواح ، المثمر لسعادة الدارين ، وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث
وتفسير وفقه ، وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت
والموضع الذي فيه الإنسان ، وتعيين ذلك يختلف باختلاف الأحوال^(١) .
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - : وأكمل أنواع طلب
العلم أن تكون همة الطالب مصروفة في تلقي العلم الموروث عن النبي
ﷺ وفهم مقاصد الرسول ﷺ في أمره ونهيه وسائر كلامه ، واتباع ذلك
وتقديمه على غيره ، وليعتصم في كل باب من أبواب العلم بحديث عن
الرسول ﷺ من الأحاديث الصحيحة الجوامع .
أيها المسلم :

ما العلم إلا كتاب الله والأثر
وما سوى ذاك لا عينٌ ولا أثر
إلا هوى وخصومات ملفقة
فلا يغرنك من أربابها هدر^(٢)

(١) بهجة قلوب الأبرار ص (٤٤) .

(٢) شذرات الذهب : (١٠٣/٧) .

أخي:

إِنَّ النِّيةَ الصَّالِحَةَ والهِمةَ العَالِيَةَ نفسُ تَضْيِءَ، وَهَمَةُ تَتَوَقَّدُ، وَاعْلَمْ أَنَّ
 مِنْ جَدِّ وَجَدَ، وَلَيْسَ مَنْ سَهَرَ كَمَنْ رَقَدَ، وَإِنْ سَلَعَ الْمَعَالِي غَالِيَةَ الثَّمَنِ .
 فَالْثُّفُوسُ الشَّرِيفَةُ لَا تَرْضَى مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا بِأَعْلَاهَا وَأَفْضَلِهَا وَأَحْمَدَهَا
 عَاقِبَةً . وَالثُّفُوسُ الدَّنِيئَةُ تَحُومُ حَوْلَ الدَّنَاءَاتِ، وَتَقَعُ عَلَيْهَا كَمَا يَقَعُ
 الدُّبَابُ عَلَى الْأَقْدَارِ؛ فَالْثُّفُوسُ الْعَلِيَّةُ لَا تَرْضَى بِالظُّلْمِ، وَلَا بِالْفَوَاحِشِ،
 وَلَا بِالسَّرَقَةِ، وَلَا بِالْخِيَانَةِ؛ لِأَنَّهَا أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَالثُّفُوسُ الْحَقِيرَةُ بِالضَّدِّ
 مِنْ ذَلِكَ^(١).

وَقَدْ أَنْزَلَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ الْعُلَمَاءَ مَنَازِلَهُمْ وَأَثَرَتِلِكَ الْعُلُومَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى
 طِبَائِعِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ، فَقَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ عَظُمَتْ
 قِيَمَتُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الْفِقْهَ نَبَّلَ مَقْدَارُهُ، وَمَنْ كَتَبَ الْحَدِيثَ قَوِيَتْ حُجَّتُهُ،
 وَمَنْ تَعَلَّمَ الْحِسَابَ جَزُلَ رَأْيُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصْنَعْ
 نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ .

وَأَوَّلُ تِلْكَ الْعُلُومِ وَأَسْمَاهَا مَنَزَلَةٌ وَأَشْرَفُهَا قَدْرًا وَأَنْبَلُهَا هَدَفًا كِتَابُ اللَّهِ
 - عَزَّ وَجَلَّ - الَّذِي فِيهِ الْآيَاتُ الْمَحْكُمَاتُ وَالسُّورُ الْمُنَزَّلَاتُ . فَهُوَ النُّورُ
 وَهُوَ الشِّفَاءُ وَهُوَ الْحِكْمَةُ .

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا أَرَدْتُمْ الْعِلْمَ فَانْثَرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ
 وَالْآخِرِينَ^(٢).

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ مُؤَكِّدًا عَلَى ذَلِكَ وَحَاثًا عَلَيْهِ: وَأَمَّا طَلَبُ

(١) الفوائد ص (٢٦٦).

(٢) الإحياء: (٣٢٣).

حفظ القرآن فهو مقدم على كثير ممّا تسمّيه النَّاسُ علمًا، وهو إمّا باطلٌ أو قليل النَّفع. وهو أيضًا مقدم في التَّعلُّم في حقٍّ من يريد أن يتعلَّم علم الدِّين من الأصول والفروع، فإنَّ المشروع في حقٍّ مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن، فإنَّه أصلُ علوم الدِّين، بخلاف ما يفعله كثير من أهل البدع من الأعاجم وغيرهم، حيث يشتغل أحدهم بشيء من فضول العلم، من الكلام أو الجدال، والخلاف أو الفروع النادرة والتَّقليد الذي لا يحتاج إليه، أو غرائب الحديث التي لا تثبت ولا ينتفع بها، وكثير من الرياضيات التي لا تقوم بها حجة، ويترك حفظ القرآن الذي هو أهمُّ من ذلك كلِّه^(١).

قال محمَّد بن الفضل: سمعت جدي يقول: استأذنتُ أبي في الخروج إلى قتيبة، فقال: اقرأ القرآن أولاً حتَّى أذن لك، فاستظهرتُ القرآن، فقال لي: امكث حتَّى تصلي الختمة، ففعلت، فلمَّا عيدنا أذن لي فخرجتُ إلى مرو^(٢).

وقال أبو عمر بن عبد البر: طلبُ العلم درجاتٌ ومناقلٌ ورُتبٌ لا ينبغي تعديها، ومن تعدّاها جملةً فقد تعدّى سبيل السَّلف - رحمه الله -، ومن تعدّى سبيلهم عامدًا ضلَّ، ومن تعدّاه مجتهدًا زلَّ.

فأولُّ العلم حفظُ كتاب الله - جلَّ وعزَّ - وتفهمه، وكلُّ ما يُعين على فهمه فواجبٌ طلبه معه، ولا أقول: إنَّ حفظه كلُّه فرضٌ، ولكن أقول: إنَّ ذلك واجبٌ لازمٌ على من أحبَّ أن يكون عالمًا ليس من باب الفرض^(٣).

(١) الفتاوى الكبرى: (٢/٢٣٥).

(٢) تذكرة الحقاظ: (٢/٧٢٢).

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص (٥٢٦).

وقال الخطيب البغدادي مؤكداً على ذلك: ينبغي للطالب أن يبدأ بحفظ كتاب الله - عزَّ وجلَّ -، إذا كان أجلَّ العلوم وأولاها بالسَّبق والتَّقديم^(١) *.

وقال الإمام النووي - رحمه الله -: وأوَّل ما يبتديء به حفظُ القرآن العزيز؛ فهو أهمُّ العلوم، وكان السَّلف لا يعلِّمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن، وإذا حفظ فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالاً يؤدي إلى نسيان شيء منه أو تعريضه للنسيان^(٢).

وينبغي أن يبدأ في دروسه وحفظه ومذاكرته بالأهم فالأهم، فأول ما يبتديء به القرآن العظيم، وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن^(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أمَّا العلم الذي يجب على الإنسان عيِّناً كعلم ما أمر الله به، وما نهى الله عنه، فهو مقدم على حفظ ما لا يجب من القرآن، فإن طلب العلم الأوَّل واجب وطلب الثَّاني مستحبٌّ، والواجب مقدم على المستحب^(٤).

والعلم باب من أعظم أنواع العبادة؛ به يندفع الجهل، وترتفع راية

(١) الجامع لأخلاق الراوي: (١٠٦/١).

* وقد ذكر والذي - حفظه الله وأجزل مثوبته - أنّه عندما أراد في أوَّل عمره مساعدة جدي - رحمه الله - في جمع وترتيب مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية اشترط عليه أن يُتم حفظ القرآن أولاً، قال والذي: فأتَّمت حفظ القرآن كاملاً في ستة أشهر وبدأت في مساعدته في إنجاز هذا المجموع العظيم.

(٢) مقدمة المجموع شرح المذهب: (٣٨/١).

(٣) المجموع: (٣٨/١).

(٤) مجموع الفتاوى: (٥٤/١٠).

العلم، ويُعبد الله بما شرع، ويُحكم بما قضى.
قال الإمام الزهري: ما عبد الله بشيء أفضل من العلم^(١).
وقال سفیان الثوري: ما أعلم شيئاً أفضل من طلب الحديث إذا أريد به وجه الله.

وقال أيضاً: لا أعلم بعد النبوة أفضل من العلم.
وأعظم بها من منزلة تداني رتبة النبوة وتسير على نهجها وتقتفي أثرها.

قال عبد الله بن وهب: كنت جالساً بين يدي الإمام مالك بن أنس أقرأ عليه وأكتب، فأذن المؤذن وأمامي كتب منشورة فبادرت لأجمعها فقال لي: علي رِسْلِكَ فليس ما تَقْدُمُ عليه (من التبكير للصلاة) بأفضل ممّا أنت فيه، إذا صحت فيه النيّة^(٢).

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّ طلب العلم خيرٌ من نوافل العبادة؛ فعن حذيفة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «فضل العلم أحب إليّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»^(٣).

وقد عدَّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - من نواقض الإسلام: الإعراض عن دين الله لا يتعلَّمه ولا يعمل به، والدليل قوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

وقال أبو سعيد: كان أصحاب النبي ﷺ إذا جلسوا مجلساً كان

(١) البداية والنهاية: (٣٥٩/٩).

(٢) ترتيب المدارك ص (٢).

(٣) رواه الطبراني.

حديثهم الفقه إلا أن يقرأ رجل سورة أو يأمرؤا رجلاً أن يقرأ سورة^(١).
وانظروا إلى الفقه في الدين وحاجة هذا الدين إلى العلم والعمل على
هدى وبصيرة فقد قال أبو الدرداء - رضى الله عنه : لأن أتعلّم مسألة أحبّ
إليّ من قيام ليلة^(٢).

وقال خطيب البغدادى : طلبُ الحديث في هذا الزمان أفضل من سائر
أنواع التطوّع لأجل دروس السنن وخمولها، وظهور البدع واستعلاء
أهلها^(٣).

هذا في زمانه، فكيف بزماننا الذي رفع الجهل فيه رايته؟! وأطلت
علينا البدع بأعناقها؟! وأصبح العلماء أندر من الكبريت الأحمر؟! فهذا
زمن التّشهير لطلب العلم ونشره بين الناس ونشره في الآفاق؛ لتحيا الأمة،
وتهب من غفلتها، وتستعيد مجدها ورفعتها.

قال البغوي : وفضل العلم على العبادة من حيث أن نفع العلم يتعدّى
إلى كافة الخلق، وفيه إحياء الدين، وهو تلوّ الثبوة^(٤).
ومن أجل ذلك فُضِّل العالم على العابد لنفعه المتعدي وخيره الفائض
للعمامة والأمة.

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل إذا فرغ من إصلاح سريرته أن يُنْثِي
بطلب العلم والمداومة عليه، إذ لا وصول للمرء إلى صفاء شيء من
أسباب الدُّنيا إلا بصفاء العلم فيه، وحكمُ العاقل أن لا يُقَصِّر في سلوك

(١) رواه البيهقي.

(٢) الإحياء: (٢٠/١).

(٣) شرف أصحاب الحديث ص (٨٦).

(٤) شرح السنة: (٢٧٨/١).

حالة توجب له بسط الملائكة أجنحتها رضا بصنيعه ذلك .
ولا يجب أن يكون متأملاً في سعيه الدنو من السلاطين ، أو نوال الدنيا
به ، فما أقبح بالعالم التذلل لأهل الدنيا^(١) .

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي ، فكان
كثير المذاكرة له ، فسمعت أبي يوماً يقول : ما صليت اليوم غير الفريضة ،
استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي^(٢) .

وقال ابن هانيء : قلت للإمام أحمد : أيهما أحب إليك : أجلس
بالدليل أنسخ أم أصلي تطوُّعاً ؟ . فقال لي : إن كنت تنسخ فأنت تتعلَّم به
أمر دينك ، لهو أحب إليَّ .

وقال الحسن البصري - رحمه الله - : باب من العلم يتعلَّمه الرَّجل خيرٌ
له من الدنيا وما فيها .

لأنَّ ذلك سبب نجاته وفلاحه كما قال ابن الجوزي : اعلم أنَّ الباب
الأعظم الذي يدخل منه إبليس على النَّاس هو الجهل ، فهو يدخل منه على
الجهَّال بأمان ، وأمَّا العالم فلا يدخل عليه إلا مسارقة ، وقد لبَّس إبليس
على كثير من المتعبِّدين بقلَّة علمهم ، لأنَّ جمهورهم يشتغل بالتَّعبُّد ولم
يحكم العلم^(٣) .

وأكد على طلب العلم وأثَّه من الجهاد أبو الدَّرداء - رضي الله عنه -
حيث قال : من رأى أنَّ الغدوَّ إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نُقصَ في
رأيه وعقله .

(١) روضة العقلاء ص (٣٣) .

(٢) السير : (٢٢٨/١١) .

(٣) تلبس إبليس ص (١٤٩) .

وقال حائفاً على السَّعي في منازل الخير: كن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، ولا تكن الرَّابِع فتهلك^(١).

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: تذاكُرُ العلم بعض ليلة أحبُّ إليَّ من إحيائها^(٢).

وقال مطرّف بن عبد الله السَّخَّير: فضل العلم خيرٌ من فضل العبادَةِ، وخيرٌ دينكم الورع^(٣).

وقال الزهري: ما عبَدَ الله بمثل الفقه.

وقال سفيان الثوري: لا أعلم شيئاً من الأعمال أفضل من العلم - أو الحديث - لمن حَسُنَتْ نيَّته^(٤).

وقال الشافعي: طلبُ العلم أفضلُ من صلاة النَّافِلَةِ^(٥).

وقال مهتاً: قلتُ لأحمد: حَدِّثْنَا ما أَفْضَلُ الأَعْمَالِ؟ قال: طلبُ العلم^(٦).

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن تكرار القرآن والفقه أيُّهما أفضل وأكثر أجراً؟.

فأجاب: الحمد لله، خير الكلام كلام الله، لا يقاس به كلام الخلق؛ فإنَّ فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه. وأمّا الأفضل في

(١) الإحياء: (٢٠/١).

(٢) رواه البيهقي.

(٣) الآداب الشرعية: (٤١/٢).

(٤) رواه البيهقي.

(٥) مناقب الشافعي ص (٩٧).

(٦) الآداب الشرعية: (٣٧/٢).

حقَّ الشَّخص، فهو بحسب حاجته ومنفعته، فإنَّ كان يحفظ القرآن وهو محتاج إلى تعلم غيره، فتعلمه ما يحتاج إليه أفضل من تكرار التلاوة التي لا يحتاج إلى تكرارها، وكذلك إذا كان حفظ من القرآن ما يكفيه وهو محتاج إلى علم آخر، وكذلك إن كان قد حفظ القرآن أو بعضه، وهو لا يفهم معانيه فتعلمه لما يفهمه من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه. وأما من تعبَّد بتلاوة الفقه فتعبَّده بتلاوة القرآن أفضل، وتدبُّره لمعاني القرآن أفضل من تدبُّره لكلام لا يحتاج إلى تدبُّره، والله أعلم^(١).

وهكذا اعتنى الإسلام بالعلم وأهله، بل جعل طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم ومسلمة، حتَّى قال النَّووي: والحاصل أن المسلمين اتفقوا على أن الاشتغال بالعلم لوجه الله - تعالى - أفضل من الاشتغال بنوافل الصَّوم والصَّلاة والتَّسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن^(٢).

ومن أعظم أسباب الحرمان والشقاء هو الإعراض عن طلب العلم ومجالسة العلماء والاستماع إليهم، فهذا ابن القيم يقول: أعظم الأسباب التي يُحرم بها العبد من خيرَي الدُّنيا والآخرة، ولذَّة التَّعيم في الدَّارين، ويدخل عليه عدَّوه منها، هما الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للعزيمة والإرادة، هذان هما أصل بلاء العبد وحرمانه، أمَّا الغفلة فمضادة للعلم، وقد ذمَّ الله - سبحانه - أهل الغفلة فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٣). [الأعراف: ٥٠٢].

وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨].

(١) مجموع الفتاوى: (٥٥/٢٣).

(٢) المجموع: (٢١/١).

فمن علت همته وخشعت نفسه اتّصف بكلّ جميل، ومن دنت همته
وطغت نفسه اتّصف بكلّ خلقٍ رذيل^(١).
وفي الجهل قبل الموت موت لأهله
وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسامهم
وليس لهم حتّى النشور نشور^(٢)

أخي المسلم:

لا شك أن الأصل في الإنسان الجهل وعدم المعرفة؛ قال الله
- تعالى -: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾
[النحل: ٧٨].

واكتساب العلم لا يمكن أن يحصل بين عشية وضحاها، ولا يمكن أن
يصبح الإنسان عالمًا بين ليلة وأخرى، بل لابد من السعي والصبر وتحمل
الأسفار، وثني الركب في حلق العلم، ومداومة الحفظ والتكرار، ولأن
في ذلك جهدًا ومجاهدة وصبرًا ومصابرة قلّ من يرد ماءه ويصبر على
طول أيامه. ولهذا قلّ العلماء وكثر الجهّال الذين هم موتى بجهلهم وعدم
علمهم.

أراد بشر بن الحارث الدّخول إلى المقبرة فقال: الموتى داخل السّور
أكثر منهم خارج السّور^(٣).

وهذه الكثرة من الأموات نتيجة للجهل وهجر العلم الشرعي، ولذا

(١) الفوائد ص (٢١١).

(٢) مفتاح دار السعادة: (٤٨/١).

(٣) صفة الصفوة: (٣٣٢/٢).

تسلط عليهم الشيطان بتليسه وتدليسه؛ فانتشرت البدع، وهجر العمل، وفتن الناس بعلماء السوء.

قال ابن الجوزي: إنَّ التَّزَوُّدَ من العلم النَّافع سبب رئيس في دفع مكائد الشَّيْطَانِ، وكلَّما ازداد العبد علمًا نافعًا - ممَّا يورث خشية الله وتقواه - كلَّما ازداد سلامة من نزغات الشَّيْطَانِ ومكائده، فأنت ترى مثلاً أنَّ أدنى عقبات الشَّيْطَانِ أن يُشْغَلَ العبد بالأعمال المرجوحة والمفضولة عن الأعمال الرَّاجحة والفاضلة. وعلاج ذلك بالفقه في الأعمال، والعلم بمراتب الطَّاعات عند الله - تعالى -، ومعرفة مقاديرها، والتَّمييز بين مفضولها وفاضلها، فإنَّ في الطَّاعات سيدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرؤوسًا^(١).

وقال أيضًا: ترك العلم غفلة، والإعراض عنه جهالة؛ فلا ينبغي للعاقل أن يغفل عن تلمُّح العواقب، فمن ذلك أنَّ التَّكاسل في طلب العلم وإيثار عاجل الرَّاحة يوجب حسرات دائمة لا تفي لذَّة البطالة بمعشار تلك الحسرة، ولقد كان يجلس إليَّ أخي وهو عامي فقير، فأقول في نفسي: قد تساوينا في هذه اللَّحظة، فأين تعبي في طلب العلم وأين لذَّة بطالته^(٢).

ولعلَّ شبابنا يستشعرون كلمات ابن الجوزي ويستفيدون من تجربته وتجربة أخيه فإن في ذلك عبرة.

قال عروة بن الرُّبَيْر - رحمه الله - لأولاده: يا بنيَّ تعلَّموا العلم

(١) مدارج السالكين: (١/٢٢٥).

(٢) الآداب الشرعية: (٢/٢٢٩).

وادرسوه، فإنكم إن تكونوا صغار قوم فعسى أن تكونوا كبراءهم،
واسوءتاه!! ماذا أقبح من شيخ جاهل؟^(١)

ولعلمهم أهمية العلم وفضل التعلّم كانوا يتعهدون أبناءهم وهم
صغار، ويدفعون بهم إلى العلماء للتلقّي منهم.

فهذا أبو سعد السّمعاني أحضره والده إلى مجلس العلم وهو ابن أربع
سنين، فسمع من مسند زمانه عبدالغفار الشّيروي، ثمّ رحل إلى بلاد
كثيرة فسمع من سبعة آلاف شيخ^(٢).

وقال صالح بن أحمد بن حنبل: رأى رجلٌ مع أبي مَخْبَرَةَ، فقال له: يا
أبا عبدالله، أنت قد بلغتَ هذا المبلغ، وأنت إمامُ المسلمين! - يعني:
ومَعك المَخْبَرَةُ تحملُها؟! - فقال: مع المَخْبَرَةِ، إلى المَقْبَرَةِ.

وقال عبد الله بن محمد البغوي: سمعتُ أبا عبدالله أحمد بن حنبل
يقول: أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر^(٣).

وقال محمد بن إسماعيل الصّائغ: كنتُ في إحدى سَفَراتي ببغداد،
فمرَّ بنا أحمد بن حنبل وهو يَعدُّو، ونَعْلَاهُ في يده، فأخذ أبي هكذا
بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله، ألا تستحيي؟ إلى متى تعدُّو مع هؤلاء
الصّبيان؟ قال: إلى الموت^(٤).

والكثير الآن تمرُّ عليه شهور بل وسنوات لم يتعلّم فيها حكمًا شرعيًا،
ولم يحفظ آية من كتاب الله، ولم يقرأ حديثًا من أحاديث الرّسول ﷺ،

(١) الأماشي للبغدادي.

(٢) السير: (٤٥٦/٢٠).

(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص (٣١).

(٤) مناقب الإمام أحمد ص (٣٢).

لكِنَّه ازداد معرفةً بأمور الدُّنيا فلا يفوته منها شيء، ولا يغيب عنه أمر .
فسبحان الله العظيم!! بعضهم مضى من عمره عشر سنوات وما حفظ
فيها آية من كتاب الله ولا حديثاً من أحاديث الرِّسول ﷺ! .

قال أحمد بن محمد بن ياسين: سمعتُ أحمد بن منيع (بن
عبد الرحمن البغوي) يقول: سمعتُ جدِّي يقول: مرَّ أحمد بن حنبل جائيًا
من الكوفة، وبيده خريطة فيها كُتِبَ، فأخذتُ بيده فقلتُ: مرَّةً إلى
الكوفة! ومرَّةً إلى البصرة! إذا كتب الرَّجل ثلاثين ألفَ حديثٍ لم يكْفِه؟
فسكَّت، ثمَّ قلتُ: ستِّين ألفًا؟ فسكَّت، فقلتُ: مائة ألفٍ؟ فقال: حينئذٍ
يعرفُ شيئًا. قال أحمد بن منيع: فنظرنا فإذا أحمدُ كتب ثلاثمائة ألف^(١).
رحم الله الإمام أحمد فقد أتعب من بعده . وبقياس إمام أهل السُّنة في
زماننا هذا لا نرى أحدًا يعرف شيئًا!!

لَمَّا كتب عبد الله العمري العابد إلى مالك يحضُّه على الانفراد
والعمل، كتب إليه الإمام مالك: إِنَّ الله قَسَمَ الأعمال كما قَسَمَ الأرزاق،
قَرَّبَ رجلٍ فُتِحَ له في الصَّلَاة ولم يفتح له في الصَّوم، وآخر فُتِحَ له في
الصَّدقة ولم يفتح له في الصَّوم، وآخر فُتِحَ له في الجهاد. فنشر العلم من
أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظنُّ ما أنا فيه بدون
ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر^(٢).

قال النووي: فهذه أحرف من أطراف ماجاء في ترجيح الاشتغال
بالعلم على العبادة، وجاء عن جماعات من السَّلف ممَّن لم أذكره نحو ما

(١) مناقب الإمام أحمد ص (٢٨).

(٢) السير: (١٤/٨).

ذكرته، والحاصل أنهم متفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله - سوى ما سبق -:

أن نفع العلم يعمُّ صاحبه والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصة به .
ولأن العلماء ورثة الأنبياء ولا يوصف المتعبدون بذلك .
ولأن العابد تابع للعالم، مقتد به، مقلد له في عبادته وغيرها، واجب عليه طاعته، ولا ينعكس .
ولأن العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه، والنوافل تنقطع بموت صاحبها

ولأن العلم صفة لله - تعالى - .
ولأن العلم فرض كفاية؛ أعني العلم الذي كلامنا فيه، فكان أفضل من النافلة .

وقد قال إمام الحرمين - رحمه الله في كتابه «الغياثي» :
فرض الكفاية أفضل من فرض العين من حيث إن فاعله يسدُّ مسدَّ الأمة ويسقط الحرج عن الأمة، وفرض العين قاصر عليه، وبالله التوفيق .
أخي الحبيب:

صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبدٌ عطاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجلَّ منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبدُ طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهمهم، ويصيرُ من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كلِّ صلاة، وصحة الفهم

نورٌ يقذفه الله في قلب العبد، يميزُ به بين الصَّحيح والفساد، والحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمدُّه حسنُ القصد، وتحريُّ الحقِّ، وتقوى الرَّبِّ في السرِّ والعلانية، ويقطعُ مادَّةَ اتباع الهوى، وإيثارُ الدُّنيا، وطلبُ محمَّدة الخلق، وتركُ التَّقوى^(١).

وبعدُ، هذه التَّوجيهات والتَّوصيات لطالب العلم، وأن يبدأ بالمهمِّ فالأهم، هناك من يضلُّ الطريق، وينحرف عن الجادَّة؛ فتراه يترك الأهمَّ ويبدأ بما دون ذلك.

قال أبو حيَّان الأندلسي: وأمَّا أنَّ صاحب تناتيف وينظر في علوم كثيرة؛ فهذا لا يمكن أن يبلغ الإمامة في شيء منها، وقد قال العقلاء: ازدحام العلوم مضلة للمفهوم، ولذلك تجد من بلغ الإمامة من المتقدمين في علم من العلوم لا يكاد يشتغل بغيره ولا ينسب إلى غيره^(٢). وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: عجبت لمن ترك الأصول وطلب الفصول.

وقال الحافظ النووي: وبعد حفظ القرآن يحفظ من كلِّ فنٍّ مختصراً، ويبدأ بالأهم، ومن أهمِّها الفقه والنحو، ثمَّ الحديث والأصول، ثمَّ الباقي على ما تيسَّر^(٣).

ويذكر أبو جعفر القطيعي طرفاً من ذلك فيقول:

سألت أبا عبد الله عن الوضوء بماء النورة؟ فقال: ما أحب ذلك.

قلت: أتوضأ بماء الباقلاء؟ قال: ما أحبُّ ذلك.

(١) أعلام الموقعين: (١/٨٧).

(٢) الآداب الشرعية: (٢/١٢٥).

(٣) الجامع لأخلاق الرواة رقم (١٦١٢).

قلت : أتوضأ بماء الورد؟ قال : ما أحب ذلك .

قال : فقم ، فتعلّق في ثوبي ثمّ قال : إيش تقول إذا دخلت المسجد؟ فسكّ، قال : وإيش تقول : إذا خرجت من المسجد؟ فسكّ، قال : اذهب فتعلّم هذا^(١) .

وقال المروزي : قال أبو عبد الله : سألتني رجلٌ مرّةً عن يأجوج ومأجوج ؛ أمسلمون هم ؟ فقلت له : أحكمت العلم حتّى تسأل عن ذا؟!^(٢)

وقال أحمد بن علي الأبار : رأيت بالأهواز رجلاً حفاً شاربه ، وأظنه قد اشترى كتباً وتعباً للفتيا ، فذكروا أصحاب الحديث فقال : ليسوا بشيء ، وليس يسوون شيئاً ، فقلت له : أنت لا تحسن تصلي . قال : أنا؟! قلت : نعم ، قلت : أيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا افتتحت الصلاة ورفعت يديك ؟ فسكت . فقلت : وأيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا سجدت ؟ فسكت ، فقلت : ما لك لا تكلم ؟ ألم أقل إنك لا تحسن تصلي ؟ أنت إنما قيل لك تصلي الغداة ركعتين ، والظّهر أربعاً . فالزم ذا خير لك من أن تذكر أصحاب الحديث ، فلست بشيء ولا تحسن شيئاً^(٣) .

وإن كانت هذه صوراً نادرة في زمانهم فإنّها تفشّت واستشرت في زماننا . واستمع إلى أسئلة العوام ممن يدعون طلب العلم وشرف الصبر عليه .

وأما الإمام ابن الجوزي صاحب التّوجيهات والنّصائح فإنّه يقول : أمّا العالم فلا أقول له : اشبع من العلم ، ولا اقتصر على بعضه ، بل أقول له :

(١) طبقات الحنابلة : (٤١/١) .

(٢) الآداب الشرعية : (٦٩/٢) .

(٣) الكفاية في علوم الرواية ص (٤) .

قدّم المهمّ، فإنّ العالم من قدّر عمره، وعمل بمقتضاه، وإن كان لا سبيل إلى العلم بمقدار العمر، غير أنّه يبنّي على الأغلب، فإن وصل فقد أعدّ لكل مرحلة زادًا، وإن مات قبل الوصول فنيته تسلك به .

فإذا علم العاقل أنّ العمر قصير، وإنّ العلم كثير، فقيبّح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أن يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه؛ ليحصل كلّ طريق وكل رواية وكل غريب! وهذا لا يفرغ من مقصوده منه في خمسين سنة، خصوصًا إن تشاغل بالنسخ، ثمّ لا يحفظ القرآن، أو يتشاغل بعلوم القرآن ولا يعرف الحديث، أو بالخلاف في الفقه، ولا يعرف النّقل الذي عليه مدار المسألة^(١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد كلام منشور كالدرر: لكن جماع الخير أن يستعين في تلقّي العلم الموروث عن النّبي ﷺ، فإنّه هو الذي يستحقّ أن يسمّى علمًا، وما سواه إمّا أن يكون علمًا فلا يكون نافعًا، وإمّا أن لا يكون علمًا وإن سُمّي به، وإن كان علمًا نافعًا فلا بدّ أن يكون في ميراث محمد ﷺ ما يُغني عنه ممّا هو مثله وخير منه، ولتكن همته فهم مقاصد الرّسول ﷺ في أمره ونهيه وسائر كلامه، فإذا اطمأنّ قلبه أنّ هذا هو مراد الرّسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله - تعالى - ولا مع النّاس إذا أمكنه . وليجتهد أن يعتصم في كلّ باب من أبواب العلم بأصل مآثور عن النّبي ﷺ^(٢) .

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

(١) صيد الخاطر ص (١٣٠) .

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/٦٦٤) .

هذه صورٌ مشرقة تتلألأ في جبين العلم وطلبتة من خيار الأمة وأعلامها.

قال سفيان بن عيينة: قرأت القرآن وأنا ابن أربع سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن سبع سنين.

وحفظ أحمد بن حنبل القرآن في صباه، وتعلّم القراءة والكتابة، ثمّ اتّجه إلى الديوان يمرّ على التّحرير ويقول في نفسه: كنت وأنا غُليم أختلف إلى الكتاب ثمّ أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة. وكانت نشأته فيها آثار الثُّبوغ والرُّشد حتّى قال بعض الأدباء: وأنا أنفق على ولدي، وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدّبوا، فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم، انظروا كيف؟ وجعل يعجب من أدبه وحسن طريقه.

قال الشافعي: كنت أقريء الناس وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، وحفظت الموطأ قبل أن أحتلم^(١).

ومع الأسف أنّ صغارنا في هذه السّنّ بعضهم لا يُحسن حتى الوضوء، ولا يعرف الصّلاة مع الجماعة، ولا يحفظ حديثاً من أحاديث الرّسول ﷺ، فالله المستعان. أخذتهم الملهيات، وتركهم الأهل في يد كلّ ناعقٍ وساقطٍ!! فتأمل شباب الأمة أين هم؟!

قال مجاشع بن يوسف: كنت بالمدينة عند مالك وهو يفتي الناس، فدخل عليه محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وهو حدّث، وذلك قبل أن يرحل إليه لسماع الموطأ منه.

قال محمد: ماتقول في جنبٍ لا يجد الماء إلا في المسجد؟ فقال

مالك : لا يدخل الجنب المسجد ، قال محمد : فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة وهو يرى الماء : قال ؟ فجعل مالك يكرّر : لا يدخل الجنب المسجد ، فلمّا أكثر عليه قال له مالك : فما تقول أنت في هذا ؟ قال : يتيمّم ويدخل فيأخذ الماء من المسجد ويخرج ويغتسل . قال : من أين أنت ؟ قال : من أهل هذه - وجعل يشير إلى الأرض - ثمّ نهض ، قالوا : هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، فقال مالك : محمد ابن الحسن كيف يكذب وقد ذكر أنّه من أهل المدينة ؟ قالوا : إنّما قال : من أهل هذه وأشار إلى الأرض ، قال : هذا أشدّ عليّ من ذاك .

ويتحدث ابن الجوزي عن نفسه فيقول : إنّ أكثر الإنعام عليّ لم يكن بكسبي ، وإنّما هو من تدبير اللطيف بي ، فإنّي أذكر نفسي ولي همّة عالية ، وأنا في المكتب ، ولي نحو من ستّ سنين ، وأنا قرين الصبيان الكبار ، قد رزقت عقلاً وافراً في الصّغر يزيد على عقل الشيوخ ، فما أذكر أنّي لعبت في طريق مع صبيّ قط ، ولا ضحكت ضحكاً جارحاً ، حتّى أنّي كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع ، ولا أتخير حلقة مشعبذ ، بل أطلب المحدث ، فيتحدث بالسند الطويل ، فأحفظ جميع ما أسمع ، وأرجع إلى البيت ، فأكتبه^(١) .

وكان الأوائل يحرصون أن يكون لأبنائهم مربون ومؤدبون ، ويوصونهم بالحرص والاهتمام بفلذات أكبادهم ، فقد أوصى عتبة بن أبي سفيان مؤدب ولده بقوله : علّمه كتاب الله ، ورّوه من الحديث أشرفه ومن الشّعر أعفه .

(١) لفظة الكبد في نصيحة الولد ص (٤٩) .

وهاك - أيها الحبيب - قصة الإمام أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ورحلته في طلب العلم على صغر سنّه وحاجته، ودور المُعلِّم في حثّ الطالب وتشجيعه على طلب العلم وإعانتته على تخطي العوائق والظُّروف. ولك أن تنظر كم من الأجر العظيم لهذا المُعلِّم - وهو أبو حنيفة - عندما أخرج عالمًا مثل أبي يوسف.

قال علي بن ديجور: أخبرني أبو يوسف قال: تُوفي أبي؛ إبراهيم بن حبيب وخلفني صغيرًا في حجر أمي، فأسلمتني إلى قصّار أخدمه، فكانت أدعُ القصّار وأمرُّ على حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصّار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهبُ إلى أبي حنيفة لأستمع درسه، فلمّا طال ذلك عليها قالت لأبي حنيفة: إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي فدعّه يكسب دانقًا كل يوم يعود به على نفسه، فقال لها أبو حنيفة: يا امرأة! إنني أرى في ابنك عقلًا فدعّيه يطلب العلم، وما يدريك أن يأتي عليه يوم يأكل الفالوذج بدهن الفستق - وهذه أكلة لا يأكلها إلا الخلفاء في ذلك الزّمان لندرتها وغلاء ثمنها -.

قال أبو يوسف: فجعلتُ أتعاهد مجلس أبي حنيفة، وفي أوّل يوم أتيتُه جلس معي حتّى انصرف النَّاس فدفع لي صرّةً فإذا فيها مائة درهم وقال لي: الزم الحلقة وإذا نفدت هذه فأعلمني، فلزمتُ مجلسه، فلمّا مضت مدّة يسيرة دفع إليّ مائة أخرى، ثمّ كان يتعاهدني فما ترك لي خلة، فنفعني الله بعلمه حتّى تقلدْتُ القضاء زمن الخليفة الأموي، ثم في زمن هارون صار لقبني قاضي القضاة؛ لأنني كنت أرسل القضاة إلى الأقليم، وكنتُ أجالس الرشيد، فبينما أنا ذات يوم عنده إذ أتني بطعام فقال لي: كل

من هذا يا أبا يوسف فإنه لا يصنع لنا في كل وقت . قلتُ : وما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال : هذا الفالودج بدهن الفستق...!! فتبسمتُ : فقال الرشيد : ما لك تبسم؟ فقلتُ : لا شيء ، أبقي الله أمير المؤمنين ، وألح عليّ وقال : لتخبرني . فقصصتُ عليه القصّة فقال : إنّ العلم ليرفعُ وينفع في الدنيا والآخرة ، ثمّ قال : رحم الله أبا حنيفة ؛ فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا ينظر بعين رأسه .

وهذا مثل آخر يبرز حرص الآباء على تعلّم أبنائهم ، رغم بعدهم عنهم وعلمهم بمشقة السّفر ومخاطر الطّريق وبعد المفازة ، ولكنّهم آثروا فقد أكبادهم في سبيل طلبهم للعلم ونفع أنفسهم ومن ثمّ الإسلام والمسلمين . قال علي بن عاصم الواسطي : دفع إليّ أبي مائة ألف درهم ، وقال لي : اذهب وسافر لطلب العلم ، ولا أرى وجهك إلا ومعدك مائة ألف حديث ، فسافر وارتحل وطلب العلم ، ثمّ رجع لنشره حتّى كان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثين ألفاً^(١) .

وقال المعتمر بن سليمان : كتب إليّ أبي . وأنا بالكوفة : اشتر الصّحف ، واكتب العلم ؛ فإنّ المال يفنى ، والعلم يبقى^(٢) .

هذه صور مشرقة من حرصهم على أبنائهم ومتابعتهم وحثّهم على طلب العلم ؛ فإنّه لا يُثنى عن طلب العلم ولا يحقره إلا جاهل لا يعلم خير دينه ودنياه . كما قال الإمام أحمد - رحمه الله - : لا يُبْط عن طلب العلم إلا جاهل .

(١) تذكرة الحفاظ : (٣١٧/١) .

(٢) روضة العقلاء ص (٣٩) .

وقال ابن الجوزي موصيًا ابنه وحاضًا له على الاشتغال بالعلم: واعلم أنَّ العلم يرفع الأرزال، فقد كان خلق كثير من العلماء لا نسب لهم يذكر ولا صورة تستحسن.

كان عطاء بن أبي رباح أسود اللون، مستوحش الخلقة، وجاء إليه سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ومعه ولداه؛ فجلسوا يسألونه عن المناسك، فحدثهم وهو معرض عنهم بوجهه، فقال الخليفة لولديه: قُومَا وَلَا تَنِيَا وَلَا تَكْسَلَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَمَا أَنْسَى ذُلَّنَا بَيْنَ يَدَيِ هَذَا الْعَبْدِ الْأَسْوَدِ. وكان الحسن مولى، وابن سيرين ومكحول وخلق كثير، وإنَّما شرفوا بالعلم والتَّقْوَى^(١).

وقال أحمد بن النَّصْرِ الهلالي: سمعت أبي يقول: كنت في مجلس سفيان بن عيينة فنظر إلى صبي دخل المسجد، فكان أهل المجلس تهاونوا به لصغر سنِّه، فقال سفيان: ﴿كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤] ثمَّ قال: يا نضر! لو رأيتني ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار، ووجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كأذان الفأر، اختلفت إلى علماء الأمصار مثل الزهري وعمر بن دينار، أجلس بينهم كالسمار، محبرتي كالجوزة، ومقلتي كالْمُوز، وقلمي كاللوز، فإذا دخلت المجلس قالوا: أوسعوا للشَّيْخِ الصَّغِيرِ. قال: ثمَّ تَبَسَّمَ ابن عيينة وضحك. قال أحمد فتَبَسَّمَ أبي وضحك^(٢).

(١) لفظة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي ص (٤٦).

(٢) الكفاية في علم الرواية ص (١١٢)، السير: (٤٠٤/٨).

ورغم هذا العلم الوافر إلا أن العلم بحر لا ساحل له ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] فكانوا يحتارون في المسائل . ويخشون الفتيا بدون علم ، ويتدافعون الأمر .

عن عبدالرحمن بن مهدي قال: كنّا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبدالله! جئتك من مسيرة ستّة أشهر، حمّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها قال: قل، فسأله الرّجل عن المسألة، فقال: لا أحسنها، قال: فبهت الرّجل كأنّه قد جاء إلى من يعلم كلّ شيء، فقال: أيّ شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم؟ قال: تقول لهم: قال مالك: لا أحسن^(١).

أخي الحبيب:

هذه وصيّة ابن الوردي لابنه في لاميته المشهورة، والتي هي وصيّة لكلّ ابن وطالب علم على مرّ الأيّام وتعاقب السنين .
 أي بُني! اسمع وصايا جُمعت
 حِكْمًا خُصَّصَتْ بِهَا خَيْرَ الْمَلَلِ
 اطلب العلمَ ولا تكسَلْ فما
 أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ
 احتفل للفقهِ في الدين ولا
 تَسْتَغْلِ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلِ
 واهجر النّومَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ
 يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَسَدَ

(١) جامع بيان العلم وفضله: (٥٣/٢).

لا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ

كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلَ

وقديماً قال الحكماء: من أسهر نفسه بالليل فقد فرّح قلبه بالنهار. وإنه لفرح لا يعدله فرح بنشر علمه والسّير على خطى الأنبياء والصّالحين في تبليغ الرّسالة وتأدية الأمانة إليهم - أي العلماء - يرجع الأمر، وتصدر الأمة عن رأيهم وقولهم. وما ذاك إلا لأنهم حفظوا ميراث النّبوة، وأعظم به من ميراث.

ومن الأمثلة الحيّة للتّبوغ المبكّر والاشتغال بالعلم منذ الصّغر: الصّحابي الجليل معاذ بن جبل - رضي الله عنه - الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل».

والذي قال عنه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: لو استخلفت معاذ بن جبل فسألني عنه ربي - عزّ وجلّ -: ما حملك على ذلك؟ لقلت: سمعت نبيك ﷺ يقول: «إنّ العلماء إذا حضروا ربّهم - عزّ وجلّ - كان بين أيديهم برتوة بحجر». والذي شبّهه عبد الله بن مسعود بإبراهيم الخليل - عليه السّلام - في تعليمه الخير للنّاس، وفي طاعته وإنابته لربّه، فقال ابن مسعود: إنّ معاذاً كان أمةً قانتاً لله حنيفاً.

ومات معاذ هذا، مات وعمره ثنتان وثلاثون سنة.

والإمام النووي صاحب التّصانيف العديدة والمؤلّفات المفيدة في الفقه والحديث والسّلوک واللّغة توفّي وعمره خمس وأربعون سنة.

ورغم أعمارهم القصيرة إلا أنّ الله نفع بعلمهم الأمّة، ولا يزال يطرق آذاننا كلّ يوم: قال ابن مسعود، وقال النووي - رحمهم الله جميعاً -

وحدّث الإمام الشّافعي عن نفسه فقال: كنت يتيماً في حجر أمّي،

فدفعني إلى الكتاب ولم يكن عندها ما تعطيه للمعلم، فكان المعلم يرضى مني أن أخلفه إذا قام، فلمّا ختمت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع المسألة أو الحديث فأحفظها، ولم يكن عند أمي مالٌ تعطينه لأشتري به ورقًا وقراطيس أكتب فيها، فكنت أتبع العظام والخزف وأكتاف الجمال وسعف النخل، فأكتب فيها الحديث، فإذا امتلأ طرحته في جرة كانت لنا في البيت، ثم إنَّ الجرار التي في البيت قد كثرت، فقالت لي أمي: إنَّ هذه الجرار قد ضيّقت علينا البيت، فأقبلت على هذه الجرار أحفظ ما فيها ثم ألقها، ثم بعد ذلك يسّر الله لي السفر إلى اليمن^(١).

وكان سبب تبكير سفيان لطلب العلم والاشتغال به تشجيع أمّه له، وحضها له عليه، وتوجيهها له أن يستفيد ممّا يعلم ومن مجالسة العلماء، وينبغي أن يؤثر العلم في سلوكه وأدبه ومعاملته للناس وإلا فما فائدة العلم؟

فقد قالت لسفيان وهي تدفع به إلى حلقات العلم ومجالسة المشايخ: يا بُني! خُذ، هذه عشرة دراهم، وتعلّم عشرة أحاديث، فإذا وجدتَها تغيّر في جلستك ومشيتك وكلامك مع النَّاس فأقبل عليه، وأنا أعينك بمغزلي هذا وإلا فاتركه، فإنّي أخشى أن يكون وبالاً عليك يوم القيامة^(٢).

وهذا الإمام البخاري صاحب الصحيح جمع الله له قلبًا واعيًا وذهنًا حافظًا، فاجتمع له أطراف العلم وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره،

(١) جامع بيان فضل العلم وأهله: (٩٨/١).

(٢) صفة الصفوة: (١٨٩/٣).

فقد حدث في بداية طلبه أنَّ العلامة الداخلي، الذي كان من كبار المحدثين في بخارى في ذلك العصر، وكانت له حلقة رائعة مشهورة، كان يُدرِّس ذات مرَّة حسب عادته، وكان البخاري يسمع، فقال الداخلي في إسناد حديث: «سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم».

فقال البخاري: إنَّ أبا الزُّبير لم يرو عن إبراهيم، وكان يريد أن ينبِّه على خطئه في هذا السُّند، ولكن الداخلي دهش لمَّا سمع هذا الصَّوت وانتهره، فاعتذر له البخاري وقال له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك.

فدخل الداخلي وراجع الأصل، فاعترف بصحة قول البخاري، وانتبه لخطئه إلا أنَّه أَجَّل تصحيح السند، وترك من باب الإنصاف أو بإرادة الاختبار تصحيحه إلى الإمام البخاري، فلمَّا خرج قال له: كيف هو يا غلام؟

فأجاب البخاري مرتجلاً: هو هكذا:

الزبير (وهو ابن عدي) عن إبراهيم.

فأخذ القلم وأصلح كتابه، وقال: صدقت.

قال: فقال له إنسان: ابن كم حين رددت عليه؟

فقال: ابن إحدى عشرة سنة^(١).

وقد حفظ - رحمه الله - القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ

وهو ابن عشر سنين^(٢).

ومما يقرح الكبد ويدمي العين أن نرى شباب الأمة في مثل هذه السن

(١) مقدمة الفتح ص (٤٧٨)، مقدمة القسطلاني: (٢٧/١).

(٢) صفة الصفوة: (٢/٢٥٠).

لا يطلبون علمًا ولا يحسنون أدبًا. نعم أحد عشر عامًا كان عمر الإمام البخاري حين صحح إسناده حديث الرسول ﷺ. فأين أبناء المسلمين؟!

روى الإمام النووي - رحمه الله - في مناقب الإمام الشافعي - رحمه الله - قوله: ومن ذلك أنه تصدّر في عصر الأئمة المبرزين للإفتاء والتدريس والتصنيف، وقد أمره بذلك شيخه أبو خالد مسلم بن خالد الزنجي، إمام أهل مكة ومفتيها - وقتذاك - وقال له: أفَتِ يا أبا عبد الله؛ فقد والله أن لك أن تفتي، وكان الشافعي إذ ذاك له خمس عشرة سنة^(١).

ولابد لطالب العلم أن لا يفرق بين شيخ مشهور وآخر خامل غير معروف، بل يأخذ من الجميع.

قال الغزالي: فالاستنكاف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين هو عين حماقة، فإن العلم سبب النجاة والسعادة، ومن يطلب مهربيًا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ومن الحكمة: أن لا يفوت طالب العلم الخير حيث وجد.

ومن أدبه مع أستاذه: الصمت الكثير، والاستماع الشديد، والتسليم، والصبر، وعدم تكرار شيء فهمه عنده، وعدم الإكثار من الأسئلة التي قد فهم جوابها، فقد قال الحسن بن علي - رضي الله عنهما - لابنه مؤدبًا إياه: يا بني! إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي: (٥٠/١).

تقول، وتعلّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، ولا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يُمسك^(١).

قال مالك: قلت لأمي: أذهب فأكتب العلم؟ فقالت: تعال فالبس ثياب العلم، فألبستني مسمرة، ووضعت الطويلة على رأسي، وعممتني فوقها، ثم قالت: اذهب فأكتب الآن. وكانت تقول: اذهب إلى ربيعة فتعلّم من أدبه قبل علمه.

الهمم العالية

يقول ابن الجوزي متحدثاً عن الأئمة أصحاب العزائم والهمم: كانت همم القدماء من العلماء علية، تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم. إلا أن أكثر تصانيفهم دثرت، لأن همم الطلاب ضعفت، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطولات. ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدثرت الكتب ولم تنسخ. فسييل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات، فليكثر من المطالعة؛ فإنه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره ويحرك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة. وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدي بها المبتديء، ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد^(١).

رحم الله ابن الجوزي وهو يعتب على أهل زمانه، فكيف به لو رأى أهل زماننا، وقد تيسرت لهم أبواب العلم ولكنهم عزفوا عنها؟! هي بين أيديهم وتحت متناولهم، ولكن أصحاب الهمم قلائل، وأهل العزائم نواذر. هاك - أيها الحبيب - نبذاً عن صبرهم، وكيف كانوا يطلبون العلم؟ وماذا يجدون من صعوبات في سبيل الحصول عليه؟ لترى الفرق والبون بين أهل ذاك الزمان وبين ما نحن فيه مع الأسف الشديد!!

أراد عبدالله بن القاسم العنكي المصري السفر من القاهرة إلى المدينة لطلب العلم عند الإمام مالك، وكانت زوجة عبد الله آنذاك حاملاً، فقال

(١) صيد الخاطر ص (٥٧١).

لها: إنِّي قد عزمت على الرّحلة في طلب العلم، وما أراني عائداً إلى مصر إلا بعد مدّة طويلة، فإن شئت أن أطلّقك طلقتك فتكحّين من شئت، وإن أردت أن أبقيك في عصمتي فعلت ولكن لا أدري متى سأرجع إليك، فاختارت البقاء زوجة له، ورحل ابن القاسم إلى مالك، وبقي عنده سبع عشرة سنة ملازماً لمالك لا يبيع ولا يشتري، بل همته مصروفة إلى طلب العلم، وفي هذه المدّة ولدت زوجته غلاماً وكبر، ولم يكن يعلم ابن القاسم بولادة ولده؛ لأنّ أخباره قد انقطعت عن زوجته منذ رحيله.

قال ابن القاسم: فبينما أنا ذات يوم عند مالك في مجلسه، إذ أقبل علينا حاج مصري شاب ملثم فسلم على مالك ثم قال: أفيكم ابن القاسم؟ فأشاروا إليّ، فأقبل عليّ يعتنقني ويقبل ما بين عينيّ، ووجدت منه رائحة الولد، فإذا هو ابني الذي تركت زوجتي حاملاً به وقد شبّ وكبر.

والجد والتعب ليس في تحصيل العلم وتقييده فحسب، بل إنّ من أنار الله له طريق العلم فعليه واجب نشره والجلوس لطلبة العلم والمتعلمين والعامّة.

إنّها زكاة العلم وواجب تعليمه، رحم الله وكيع بن الجراح فقد كان يومه كلّهُ في طاعة؛ كان يصوم الدّهر، وكان يبكر فيجلس لأصحاب الحديث إلى ارتفاع النهار ثمّ ينصرف فيقبل إلى وقت صلاة الظّهر، ثمّ يخرج فيصلّي الظّهر ويقصد طريق المشرعة التي كان يصعد منها أصحاب الرّوايا فيريحون نواضحهم، فيعلّمهم من القرآن ما يؤدّون به الفرض إلى حدود العصر، ثمّ يرجع إلى مسجده، فيصلّي العصر، ثمّ يجلس فيدرّس

القرآن ويذكر الله إلى آخر النهار، ثمَّ يدخل إلى منزله فيُقدِّم إليه إفطاره^(١). وكان الإمام الطُّبري لا يعدمُ في الصَّيف الحينس^(٢)، والرَّيحان واللينوفر^(٣)، فإذا أكل نام في الحينس^(٤) في قميصٍ قصير الأكمام مصبوغ بالصَّندل وماءٍ الورد.

ثمَّ يقوم فيصلي الطُّهر في بيته، ويكتبُ في تصنيفه إلى العصر، ثمَّ يخرج فيصلي العصر، ويجلسُ للنَّاس يُقرأ عليه إلى المغرب، ثمَّ يجلسُ للفقهِ والدَّرس بين يديه إلى العشاء الآخرة، ثمَّ يدخلُ منزله. وقد قَسَمَ ليله ونهاره في مصلحةٍ نفسه، ودينه، والخلق، كما وفقه الله - عزَّ وجلَّ - . لقد أمسكوا الصَّبر بزمامه، والعزم بخطامه، يحدوهم أمل عظيم ورجاء واسع وفضل من الله كبير.

سمع الخطيب البغدادي على إسماعيل بن أحمد الحيري بمكة صحيح البخاري في ثلاثة مجالس: اثنان منها في ليلتين؛ كان يبتديء بالقراءة وقت المغرب ويختم عند صلاة الفجر، والثالث من ضحوة النَّهار إلى طلوع الفجر. قال الذهبي: وهذا شيء لا أعلم أحدًا في زماننا يستطيعه. ولعلَّ من أسباب تيسير ذلك بركة الزَّمان في ذلك الوقت^(٥).

ولا ريب أنَّ ذلك من توفيق الله لهم وإعانته مع صبرهم وجلدهم، فقد

(١) تاريخ بغداد: (٥٠١/١٣).

(٢) الحينس: هو التمر يُخلط بالسمن والأفط ويُعجنُ شديدًا، وربما جُعل فيه السَّويق.

(٣) اللينوفر: ضربٌ من الرياحين ينبتُ في المياه الراكدة.

(٤) الحينس: ثيابٌ في نسجها رقة، وخيوطها غلاظ، تُتخذُ من مُشاقة الكتَّان، تُلبس في الحر عند النوم.

(٥) قواعد التحديث للقاسمي ص (٢٦٢).

كانوا أصحاب همم وعزائم، يقول ابن الجوزي: كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العدو لثلاث أسبق^(١).

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُكَ فَاغْتَنِمَهَا

فَإِنْ لَكَ عَاصِفَةٌ سَكُونًا

أما ثني الركب عند العلماء والصبر على طلب العلم الذي نسمع به ولا نراه فلعلنا نعرض لبعض من حياة علماء الأمة وصبرهم على طلب العلم والحرص عليه.

قال جرير بن حازم: جلست إلى الحسن سبع سنين لم أُخرم منها يوماً واحداً^(٢).

نعم سبع سنين متواصلة لم يخرم منها يوماً واحداً. إنها حياة، ومراجعة وحفظ ومذاكرة، يُرَيَّنُّها الوقار، ويجمُلها الصبر على شظف العيش وعلى التكرار والمراجعة والبحث والتتقيب بين الشطور وفي بطون الكتب.

ومن أمثلة قراءة الاستعراض ما حدث للإمام الشافعي - رحمه الله - لما سُئِلَ عن دليل مسألة الإجماع؛ فاستعرض القرآن ثلاث مرّات في كل ليلة حتّى اهتدى إلى الموضوع.

وهو قول الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَٰهُ مَا تَوَلَّٰهُ وَتُصَلِّهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥).

(١) لفظة الكبد في نصيحة الولد ص (٣).

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/١٩٩).

وقال الزهريُّ وكأَنَّهُ يتحدَّث عن حالهم ويرى صنيعهم: منهومان لا يشبعان: طالبُ علم، وطالبُ الدُّنيا.

فطالبُ الدُّنيا ثار غباره وعلمنا خبره عيانًا.

أمَّا طالبُ العلم فهو في بطون الكتب سيرة وذكرى، ولعلَّ الله يحفظ البقيَّة الباقية من علمائنا وطلبة العلم في زماننا.

قرأ ابن حجر - رحمه الله - الشُّنن لابن ماجة في أربعة مجالس، وقرأ صحيح مسلم في أربعة مجالس سوى مجلس الختم، وذلك في نحو يومين وشيء؛ فإنَّه كان الجلوس من بكرة النَّهار إلى الظُّهر، وقرأ كتاب النَّسائي الكبير في عشرة مجالس، كل مجلس منها أربع ساعات، وأسرع شيء وقع له أنَّه قرأ معجم الطُّبراني الصَّغير في مجلس واحد بين صلاتي الظُّهر والعصر؛ وهذا الكتاب في مجلد يشتمل على نحو من ألف وخمسمائة حديث، وحدَّث بالبخاري في عشرة مجالس، كلُّ مجلس منها أربع ساعات^(١).

يا طالب العلم:

إنَّ للقلوب شهوةً وإدبارًا؛ فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها^(٢).

ولأصحاب الهمم العالية والعزائم الصَّادقة وقفات جادَّة في طلب العلم والسَّعي له.

قال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: لو أعييتني آية من كتاب الله فلم أجد

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ص (١٠٤).

(٢) الفوائد ص (١٩٣).

أحدًا يفتحها عليَّ إلا رجلاً برك الغماد^(١) لرحلت إليه^(٢).

وجاء في ترجمة الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ أنّه كان يقول: أنا برجال الحديث أعرف مني برجال الدرعية^(٣).

أما جهودهم ومصنفاتهم فهي ما يعجز عنه المقصرون ويتأخر عنه المتأخرون. فما أبرك ساعات الطلب عندهم وما أوسعها عند زكاتها! إنَّها أوقات عمروها طلباً ثمَّ تبليغاً له.

أين نحن من هؤلاء؟!

حَسِبْتُ تلامذة أبي جعفر محمد بن جرير منذ احتلم إلى أن مات فقسموا على المدة مصنفاته فصار لكلَّ يوم أربع عشرة ورقة^(٤).

وما تعلّموا من عمل إلا سعوا إلى تطبيقه والعمل به، فقد كان الشيخ أبو عمر المقدسي لا يكاد يسمع دعاء إلا حفظه ودعا به، ولا يسمع ذكر صلاة إلا صلاها، ولا يسمع حديثاً إلا عمل به، ومات وهو عاقد على أصابعه ليسبِّح^(٥).

وهذا ابن جرير ينشط لكتابة التاريخ ويقول لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم؟ قالوا: كم يجيء؟ فذكر نحواً من ثلاثين ألف ورقة، فقالوا: هذا ممّا يفني الأعمار قبل تمامه. قال: إنَّا لله، ماتت الهمم^(٦).

(١) برك الغماد: اسم لمكان بينه وبين مكة مسيرة خمس ليالٍ.

(٢) السير: (٣٤٢/٢).

(٣) الدرر السنة: (٤٨/١٢).

(٤) تذكرة الحفاظ: (٧١١/٢).

(٥) شذرات الذهب: (٢٨/٥).

(٦) تذكرة الحفاظ: (٧١٢/٢).

وقال ابن الجوزي محدثاً عن نفسه : كتبت بأصبعي ألفي مجلد، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألفاً^(١).

يا طالب العلم:

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ مُرَّ التَّعْلَمِ سَاعَةً
تَجْرَعْ ذِلَّ الْجَهْلِ طُولَ حَيَاتِهِ
وَمَنْ فَاتَهُ التَّعْلِيمُ وَقْتَ شَبَابِهِ
فَكَبُرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا لَوْفَاتِهِ
وَأَلْقَ سَمْعَكَ إِلَى مَقَالَةٍ تَحْكِي وَاقِعَنَا، وَقَدْ قَلَّ الْعُلَمَاءُ وَنَدَّرَ طَلِبَةُ
الْعِلْمِ، وَاتَّجَهَتْ الْأُمَّةُ إِلَى الْعُلُومِ الْعَصْرِيَّةِ، وَتَرَكُوا التَّفَقُّهَ فِي الدِّينِ وَمَا
يَجِبُ مَعْرِفَتُهُ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ.

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ممّا سمّاه الله - سبحانه - في كتابه : فقهاً وحكمةً وعلمًا وضياءً ونورًا. وهدايةً ورشدًا، فقد أصبح من بين الخلق مطويًا وصار نسيًا منسياً^(٢).

قال ابن تيمية - قدس الله روحه - : ومن العلوم علوم لو علمها كثير من الناس لضرّهم ذلك، ونعوذ بالله من علم لا ينفع، وليس إطلاع كثير من الناس بل أكثرهم على حكمة الله في كلّ شيء نافعا لهم، بل قد يكون ضاراً قال - تعالى - : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ ﴾ [المائدة: ١٠١].

أيها الحبيب:

أليس هذا هو واقعنا وما نراه ونشاهده؟ حتّى أنّك ترى جهلاً بأمور

(١) تذكرة الحفاظ : (١٣٤٤/٤).

(٢) صيد الخاطر ص (٢٣٠) وما بعدها باختصار.

العقيدة، وخللاً في صلاة كثير من المصلّين، وجهلاً بأصول الدّين دون فروعه التي لا يعرفها إلا قلة على عدد الأصابع في كل مدينة. فالله المستعان.

التخطيط لتحصيل العلوم النافعة

قال ابن الجوزي :

رأيت الشرَّه في تحصيل الأشياء يفوت الشرُّه عليه مقصوده .
وقد رأينا من كان شرهًا في جمع المال فحصل له الكثير منه ، وهو مع ذلك حريص على الزدياد .

ولو فهم ، علم أنَّ المراد من المال إنفاقه في العمر ، فإذا أنفق العمر في تحصيله فات المقصودان جميعًا .

وكم رأينا مَنْ جمع المال ولم يتمتَّع به فأبقاه لغيره وأفنى نفسه .
قدَّم المهم ؛ فإنَّ العاقل من قدر عمره وعمل بمقتضاه ، وإن كان لا سبيل إلى العلم بمقدار العمر ، غير أنَّه يبني على الأغلب .
فإن وصل فقد أعد لكلِّ مرحلة زادًا ، وإن مات قبل الوصول فنيتَه تسلك به .

فإذا علم العاقل أنَّ العمر قصير ، وإنَّ العلم كثير ، فقيبَّح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أنَّ يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه ليحصل كلَّ طريق ، وكل رواية ، وكلَّ غريب .

ومن أريد وفق . وإنَّ الله - عزَّ وجلَّ - أقوامًا يتولَّى تربيتهم ويبعث إليهم في زمن الطفولية مؤدبًا ، ويسمَّى العقل . ومقومًا ، ويقال له : الفهم ، ويتولَّى تأديبهم وتثقيفهم ، ويهيئ لهم أسباب القرب منه .

فإن لاح قاطع قطعهم عنه حماهم منه ، وإن تعرضت بهم فتنة دفعها عنهم .

فنسأل الله - عزَّ وجلَّ - أن يجعلنا منهم ، ونعوذ به من خذلان لا ينفع

معه اجتهاد .

الرحلة في طلب العلم

العلم مواطن يُرتحل إليها ويُبذل للوصول إليها الغالي والنفيس؛ فكم من المشاق واجهت طلبية العلم، وكم من الصعوبات اعترضت طريقهم. هذا الإمام الحاكم يصف الرّحّالين لطلب العلم فيقول: آثروا قطع المفاز والقفار على التّنعيم في الدمن والأوطان، وتنعموا بالبؤس في الأسفار مع مساكنة أهل العلم والأخبار، جعلوا المساجد بيوتهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة، وسمرهم المعارضة، واسترواحهم المذاكرة، وخلوقهم المداد، ونومهم السهاد، وتوسدهم الحصى. فالشّدائد مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء، ووجود الرّخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤس! فعقولهم بلذاذة السّنة غامرة، وقلوبهم بالرضا في الأحوال عامرة، تعلّم السنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم^(١).

وقد بين ﷺ فضل الخروج في طلب العلم فقال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتّى يرجع»^(٢).

ولهذا كانت رحلتهم في طلب العلم عبادة يحتسبون فيها الأجر والمثوبة.

عن كثير بن قيس قال: كنت جالساً عند أبي الدّرءاء في مسجد دمشق. فأتاه رجل، فقال: يا أبا الدّرءاء! أتيتك من مدينة رسول الله ﷺ لحديث

(١) معرفة علوم الحديث ص (٢).

(٢) رواه الترمذي، وقال: الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٢٠٣٧) ضعيف الإسناد.

بلغني أنك تحدّث به، عن النبي ﷺ، قال: فما جاء بك تجارة؟ قال: لا، ولا جاء بك غيره؟ قال: لا، قال: فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة»^(١).

ورحل عقبة بن الحارث من مكة إلى المدينة ليسأل الرسول ﷺ عن مسألة واحدة.

فعن أبي مليكة عن عقبة بن الحارث أنّه تزوّج ابنة لأبي إهاب بن عزيز، فأتته امرأة فقالت: إنّي قد أرضعت عُقبة والتي تزوّج، فقال لها عقبة: ما أعلمُ أنك أرضعتني ولا أخبرتني، فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، فسأله، فقال رسول الله ﷺ: «كيف وقد قيل؟» ففارقها عقبة ونكحت زوجًا غيره^(٢).

وسأل رجل من أهل خراسان الإمام عامر الشَّعبي عمّن يعتق أمته ثمّ يتزوَّجها، فروى الحديث الذي رواه أبو بردة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدّى حقَّ الله وحقَّ مواليه، ورجل كانت عنده أمة، فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعلمّها فأحسن تعليمها، ثمّ أعتقها فتزوَّجها؛ فله أجران»^(٣).

ثم قال للسائل: أعطيتها بغير شيء، قد كان يركب فيما دونها إلى المدينة.

وعن بسر بن عبيد الله قال: إن كنت لأركب إلى مصر من الأمصار في الحديث الواحد.

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد وهو صحيح انظر صحيح الأدب للألباني بالرقم (١٥٠).

وعن أبي العالية قال: كُنَّا نسمع الحديث عن الصَّحابة، فلا نرضى
 حتَّى نركب إليهم فنسمعه منهم^(١).
يا طالب العلم:

تغرب عن الأوطان تكتسب العلا
 وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
 تفرج هم واکتساب معيشة

وعلم، وآداب، وصحبة ماجد
 وها هو أحد العلماء (منصور بن عمار) يصف حال الرحلة في طلب
 العلم وأهلها فيقول عنهم: هم يرحلون من بلد إلى بلد، خائضين في
 العلم كل وادٍ، فلو رأيتهم في ليلهم وقد انتصبوا النسخ ما سمعوا،
 وتصحيح ما جمعوا، هاجرين الفرش الوطيء والمضجع الشهي، غشيه
 الثعاس فأنامهم، وتساقطت من أكفهم أقلامهم، فانتبهوا مذعورين،
 ودلكوا بأيديهم عيونهم، ثمَّ عادوا إلى الكتابة حرصًا عليها، لعلمت أنهم
 حراس الإسلام وخزان الملك العلام، فإذا قضوا من بعض ما راموا
 أوطارهم انصرفوا قاصدين ديارهم، فلزموا المساجد وعمرؤا المشاهد.

وقد قيل للإمام أحمد: أيرحل الرَّجل في طلب العلم؟ فقال: بلى والله
 شديدًا، لقد كان علقمة بن قيس التَّخعي والأسود بن يزيد التَّخعي وهما
 من أهل الكوفة، كانا إذا بلغهما الحديث عن عمر - رضي الله عنه - لم
 يقنعا حتَّى يرحلا إلى المدينة فيسمعا الحديث منه.

ورحلاتهم ليست يومًا أو يومين فحسب، بل سنوات طويلة وأشهر

(١) فتح الباري: (١/١٩٢).

متابعة، مع ما فيها من مشقة وجهد، وجوع وعطش، وخطر الطريق وآفات المسير.

فقد رحل الإمام أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن مندة لطلب العلم وعمره عشرون سنة، ورجع إلى بلده وعمره خمسة وستون عامًا، وكانت مدة رحلته خمسة وأربعين عامًا، وسمع فيها العلم وتلقاه عن ألف وسبعمائة شيخ، فلمّا رجع إلى بلده تزوّج وهو ابن خمسة وستين عامًا، ورزق الأولاد، وحَدَّث النَّاسَ وَعَلَّمَهُمْ^(١).

وقال ابن المقرئ يحدث عن نفسه: طفت المشرق والمغرب أربع مرّات.

وقال مشيت بسبب نسخة «المفضّل بن فضالة» سبعين مرحلة، ولو عُرِضَتْ على خباز برغيف لم يقبلها^(٢).

وقال عبد الله بن بريدة: إنّ رجلاً من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ رحل إلى فضالة بن عبيد وهو بمصر، فقدم عليه وهو يمدُّ لناقته له، فقال: مرحبًا، قال: أما إنّي لم آتِكَ زائرًا، ولكن سمعت أنا وأنت حديثًا من رسول الله رجوت أن يكون عندك منه علم. قال: ما هو؟ قال كذا وكذا^(٣).

وجابر بن عبدالله الصحابي الجليل يروي قصة رحلته، فيقول: بلغني حديث رسول الله ﷺ لم أسمعهُ، فابتعت بعيرًا فشددت عليه رحلي، وسرت شهرًا، حتّى قدمت الشّام، فأتييت عبدالله بن أنيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فأتاه، فقال له: جابر بن عبد الله؟

(١) تذكرة الحفاظ: (١٠٣٢/٣).

(٢) تذكرة الحفاظ: (٩٧٤/٣).

(٣) سنن الدارمي: (١٤٢/١).

فأتاني فقال لي، فقلت: نعم. فرجع فأخبره، فقام يطأطأ ثوبه حتى لقيني فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص لم أسمع، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمع، فقال: سمعت رسول الله يقول... فذكر الحديث^(١).

أخي لن تنال العلم إلا بستة
سأنبئك عن تفصيلها بيان
ذكاء وحرص، واجتهاد وبلغه
وصحبة أستاذ، وطول زمان^(٢)

والإمام البخاري رحل إلى محدثي الأمصار، وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق كلها والحجاز والشام ومصر، وورد بغداد دفعات^(٣). وقال - رحمه الله - محدثاً عن نفسه: كتبت عن ألف شيخ من العلماء وزيادة، وليس عندي حديث إلا أذكر إسناده^(٤).

وهذا أبو حاتم الرازي كان يرحل في طلب أحاديث رسول الله ﷺ ماشياً على أقدامه، وقال - هو يتحدث عن نفسه -: مشيت على قدمي ألف فرسخ^(٥)، ثم تركت العدد^(٦).

نعم يا أهل الهمم، مشى على قدمه أكثر من خمسة آلاف كيلو متر.

(١) تدريب الراوي: (١٤٢/٢).

(٢) ديوان الشافعي ص (٨١).

(٣) تاريخ بغداد: (٤/٢).

(٤) تاريخ بغداد: (١٠/٢).

(٥) الفرسخ: نحو خمسة كيلو مترات.

(٦) تذكرة الحفاظ: (٥٦٧/٢) بتصرف.

وقد سافر من البحرين إلى مصر، ومن مصر إلى الرملة، ومن الرملة إلى طرسوس على أقدامه، وضافت عليه النفقات مرّة في البصرة فباع ثيابه حتّى نفدت، وجاع يومين، فأعلم رفيقه، فساعدته وخدمه^(١).

والمكتبات اليوم عامرة بالكتب وعلى بعد خطوات، ولكن أين المُجدون وأين المُشْمرون؟!

دَبِيتُ لِلْمَجْدِ وَالسَّاعُونَ قَدْ بَلَغُوا
جَهَنَّمَ النَّفُوسِ وَأَلْقُوا دُونَهُ الْأُزْرَا
وكابدوا المجد حتى ملّ أكثرهم
وعانق من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمرّاً أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا^(٢)
قال أبو العلاء الهمداني: رحلت إلى بغداد لطلب العلم، فكنت أبيت الليل في المساجد وأكل خبز الذرة.

وكان يمشي في اليوم الواحد ثلاثين فرسخاً^(٣) وهو حامل كتبه على ظهره لأجل طلب العلم.

ورحل عمر بن عبد الكريم الرّواصي في طلب العلم، وسمع العلم من ثلاثة آلاف وستمائة شيخ، وفي إحدى رحلاته سقطت بعض أصابعه من شدة البرد والثلج، ولم يكن معه آنذاك ما يتدفأ به^(٤).

(١) تذكرة الحفاظ: (٥٦٨/٢) بتصرف.

(٢) الأماشي لأبي علي القالي: (١١٣/١).

(٣) ثلاثون فرسخاً: تقارب ١٥٠ كم.

(٤) تذكرة الحفاظ: (١٢٣٨/٤) بتصرف.

وقال أبو العالية: كنّا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ﷺ فما نرضى حتّى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم^(١).
وتأمل ما يجدون من التعب والتّعب ومجاهدة الأخطار وصعوبة الأسفار.

قال عبدالرحمن بن خراش المروزي: شربت بولي في السّفر لطلب علم الحديث خمس مرات^(٢).

ومقصوده - رحمه الله - أنه كان يسافر الأسفار البعيدة ويقطع المسافات الطويلة لطلب العلم، فربما في بعض رحلاته نفد عليه الماء فشرب بعض بوله ليدفع عن نفسه الموت.

وقال محمد بن أبي حاتم أيضاً: خرجت إلى آدم بن أبي إياس، فتخلفت عني نفقتي حتّى جعلت أتناول الحشيش ولا أخبر بذلك أحداً، فلمّا كان اليوم الثالث أتاني آتٍ لم أعرفه فناولني صرةً دنانير، وقال: أنفق على نفسك^(٣).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

رحل الإمام الحافظ محمد بن طاهر المقدسي في طلب العلم، وكان مما قال واصفاً حاله أثناء رحلته: بليتُ الدّم في طلبي للحديث مرّتين: مرّةً ببغداد ومرّةً بمكة؛ وذلك أنّي كنت أمشي حافيّاً في سفري لطلب العلم في شدة الحرّ وعلى الرّمضاء المحرقة، فأثّر ذلك في جسدي فبليت دماً، وما ركبت دابةً قطّ في طلب الحديث إلا مرّةً واحدة، وكنت دائماً

(١) سنن الدارمي: (١/١٤٠).

(٢) ميزان الاعتدال للذهبي ج ٢.

(٣) الطبقات الكبرى للسبكي: (٢/٢٢٧).

أحمل كتيبي على ظهري في أثناء سفري، حتّى استوطنت البلاد وما سألت في حال طلبي للعلم أحداً من الناس مالا، وكنت أعيش على ما يأتيني الله به من رزق من غير سؤال^(١).

ورحل مسروق بن الأجدع من أجل حرف واحد، ورحل أبو سعيد في حرف واحد^(٢).

وقال سعيد بن المسيب - رحمه الله -: كنت أرحل الأيام والليالي في طلب حديث واحد^(٣).

وسافر عامر بن شراحيل من الكوفة إلى مكة، لأجل ثلاثة أحاديث ذُكرت له فقال: أسافر إلى مكة لعلّي ألقى رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فأسمعها منه.

وكان إسحاق بن منصور المروزي من تلاميذ الإمام أحمد، وقد كتب عن الإمام أحمد مجموعة من المسائل الفقهية ثمّ رجع إلى بلده نيسابور، ثمّ إنّه بلغه أنّ الإمام أحمد قد رجع عن تلك المسائل وصار يفتي بغيرها، فوضع إسحاق ضحفةً وكتبه التي فيها تلك المسائل في جراب، وحملها على ظهره، وخرج راحلاً على قدميه من نيسابور^(٤) إلى بغداد، حتّى لقي الإمام أحمد وسأله عن تلك المسائل فأقرّ له أحمد بما أفتاه به أولاً، وأعجب الإمام أحمد به^(٥).

(١) تذكرة الحفاظ: (١٢٤٣/٤).

(٢) البداية والنهاية: (١١/٩).

(٣) البداية والنهاية: (١١١/٩)، تذكرة الحفاظ: (٥٦/١).

(٤) نيسابور: مدينة تقع في مقاطعة خراسان شمال شرق إيران حالياً.

(٥) تذكرة الحفاظ: (٥٢٤/٢) بتصرف.

ولمَّا خرج أحمد إلى عبدالرزاق انقطعت به النفقة، فأكرى نفسه من بعض الجمالين إلى أن وافى صنعاء، وقد كان أصحابه عَرْضُوا عليه المواساة فلم يقبل من أحد شيئاً^(١).

وقال أحمد بن سنان الواسطي: بلغني أَنَّ أحمد بن حنبل رَهَن نَعْلَهُ عند خَبَّاز على طعام أخذه منه، عند خروجه من اليمن.

وسُرِقَتْ ثِيَابُهُ وهو باليمن، فجلس في بيته وردَّ عليه الباب وفقدَهُ أصحابه، فجاءوا إليه فسألوه فأخبرهم، فعرضوا عليه ذهبًا فلم يقبله، ولم يأخذ منهم إلا دينارًا واحدًا، ليكتب لهم به - أي أخذ الدينار على أن يكون أجره لما يَسْحُخُهُ لهم من الكتب - فكتبَ لهم بالأجر، رحمه الله تعالى^(٢).

نعم هذه حال إمام أهل السُنَّة، قدس الله روحه وأمطر عليه شأبيب رحمته.

وأما ما أصابه أيام المحنة مع صبره وثباته فهو عجيب يطيب سماعه.

لله يعلم ما قلبت سيرتهم

يوماً فأخطأ دمع العين مجراه

أما بقي بن مخلد فقد قام برحلتين إلى الشام والحجاز؛ الأولى استغرقت أربعة عشر عاماً والثانية استمرَّت عشرين عاماً، وكلها كانت على الأقدام ماشياً كما صرَّح هو بذلك حيث قال: كلُّ من رحلتُ إليه ماشياً على قدمي^(٣).

(١) مناقب الإمام أحمد ص (٢٢٦).

(٢) البداية والنهاية: (٣٢٩/١٠).

(٣) تذكرة الحفاظ: (٦٣١/٢).

وقال عبدان الجواليقي: رحلتُ إلى البصرة ثماني عشرة مرةً من أجل حديث أيوب السخيتاني، كلما ذُكر لي حديث من أحاديثه يوجد فيها رحلت إليها لأسمعه.

وهذه الرّحلة وهذا الصّبر في طلب العلم لا يتمُّ إلا كما أجاب الشّعبيُّ عندما سُئل: من أين لك هذا العلمُ كُلُّه؟ قال: بنفي الاغتنام، والسّير في البلاد، وصبر كصبر الحمام، ويُكور كبكور الغراب^(١).

وصدق والله. إنّما يقطع السّفر بلزوم الجادة وسير اللّيل، فإذا حاد المسافر عن الطّريق، ونام اللّيل كله، فمتى يصل إلى مقصده؟!^(٢).

الجد بالجد والحرمان في الكسل

فانصب نُصبٌ عن قريب غاية الأمل

إليك صبر وهمة أحدهم، ولعلّ قلبك يتحرّك وأنت تتخيّل المخاطر والأهوال التي يلاقيها والمصاعب التي يواجهها؛ فقد سافر الخطيب التّبريزي من تبريز إلى معرّة النعمان، وأخذ معه كتاب تهذيب اللغة للأزهري ليقرأه على عالم مشهور في معرة النعمان، ووضع الكتاب في جراب له وحمله على ظهره، وكان - رحمه الله - فقيرًا لا مال له، فلم يقدر على استئجار دابّة ليركبها، فقطع المسافة ماشيًا على رجله في شدّة الحرّ والقيظ والرّمضاء، حتّى أنّه من كثرة العرق تصبب منه في شدّة الحرّ في هذه الرّحلة تسرب البلل من ظهره إلى ثيابه ومن ثيابه إلى الجراب الذي فيه الكتاب، ووصل البلل إلى الكتاب فأثر في الحبر وأفسد بعض

(١) السّير: (٣٠٠/٤).

(٢) الفوائد ص ١٣١.

الكلمات حتّى أنّ من رأى الكتاب يظنّه قد غُمس في ماء، وما هو إلا عرق الخطيب التبريزي^(١).

والسؤال نحو القاريء الحبيب: كم قطرة عرق نزلت من على جبينك طوال سنوات تحصيلك العلمي؟! بل وكم سنة تغربت في طلب حديث أو تفسير آية؟!!

هذا إمام أهل السنّة الإمام أحمد قد طَلَبَ الحديث وهو ابن ست عشرة سنة، وخرج إلى الكوفة سنة ثلاث وثمانين ومائة، وهو أوّل سفر له، وخرج إلى البصرة سنة ست وثمانين، وخرج إلى سفیان بن عُيينة إلى قلّة سنة سبع وثمانين، وهي أوّل سنة حجّ فيها الإمام أحمد، وخرج إلى عبد الرزاق بصنعاء اليمن سنة سبع وتسعين، ورافق يحيى ابن معين في رحلته إليه.

ورحل هشام بن عمّار إلى الإمام مالك بن أنس، وهو بالمدينة، لسمع عنه العلم، قال: فدخلت على مالك وأخبرته خبري، وقلت له: حدثني بحديث رسول الله ﷺ فقال: لا بل اقرأ أنت عليّ، فقلت: لا، بل حدثني، فقال: اقرأ، فلمّا راجعته ورادته في الكلام قال لبعض خدمه: يا غلام! اذهب بهذا واضربه خمسة عشر سوطاً، قال هشام: فذهب بي وضربني ثم ردني إلى مالك، فقلت لمالك: لقد ظلمتني؛ ضربتني بغير ذنب اقترفته، ولا أجعلك في حلّ، فقال مالك: فما كفارة هذا الظلم؟ فقلت: كفارته أن تحدثني بخمسة عشر حديثاً، قال هشام: فحدثني بخمسة عشر حديثاً، فلمّا فرغ قلت له: زد من الضرب وزد في الحديث،

فضحك مالك وقال لي: انصرف^(١).

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ^(٢)، لم أزل أحصي حتى لما زاد على الألف فرسخ تركته، ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرّات كثيرة، وخرجت من البحرين من قرب مدينة صلا إلى مصر ماشياً، ومن مصر إلى الرملة ماشياً، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية، ومن أنطاكية إلى طرسوس، ثم رجع من طرسوس إلى حمص، وكان بقي عليّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعت، ثم خرجت من حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى الثّيل، ومن الثّيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشياً، كل هذا في سفري الأول، وأنا ابن عشرين سنة أجول سبع سنين، خرجت من الري سنة ثلاث عشرة ومائتين، قدمنا الكوفة في شهر رمضان سنة ثلاث عشرة والمقرىء حيّ بمكة وجاءنا نعيه ونحن بالكوفة، ورجعت سنة إحدى وعشرين ومائتين.

وخرجت المرّة الثّانية سنة اثنتين وأربعين ورجعت سنة خمس وأربعين، أقمت ثلاث سنين، وقدمت طرسوس سنة سبع عشرة أو ثمانى عشرة^(٣).

(١) معرفة القراء الكبار للذهبي.

(٢) ألف فرسخ: أكثر من ٥٠٠٠ كيلو متر.

(٣) الجرح والتعديل: (١/٣٥٩).

ومع ما في رحلتهم من حفظ للعلم ونشره فإن إبراهيم بن أدهم يذكرنا بأمر مهم يجلب الخير ويدفع البلاء وهو عبادة الله - عزَّ وجلَّ -، والتقرب إليه بالأعمال الصالحة؛ ومن أهمها حفظ هذا الدين بالعلم الشرعي: إن الله يدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أهل الحديث^(١).

وقال ابن الجوزي: لقد طاف الإمام أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع كتابه المسند^(٢).

وانظر إلى علو الهمة وطول الصبر فقد قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله -: حججتُ خمس حجج، منها ثلاث حجج راجلاً (من بغداد) أنفقت في إحدى هذه الحجج ثلاثين درهماً^(٣).

وقال محمد بن إسحاق الأرقماني: ما أعلم منبراً من منابر الإسلام بقي عليّ لم أدخله لسماع الحديث.

وأما محمود بن عمر الزمخشري فقد سافر لطلب العلم، فلمّا كان ببعض أسفاره في بلاد خوارزم، أصابه برد شديد وثلج كثير في الطريق، فسقطت إحدى رجله من شدة البرد، وكان الزمخشري بعد ذلك معه محضر فيه شهادة خلق كثير، أن رجله سقطت من البرد، لئلا يظن أحد أنها قُطعت في حد من الحدود الشرعية^(٤).

وقال يحيى بن معين: خرجت إلى صنعاء أنا وأحمد بن حنبل، لنسمع الحديث عن إمام أهل اليمن عبدالرزاق بن همام الصنعاني، وفي طريقنا

(١) شرف أصحاب الحديث.

(٢) صيد الخاطر ص ٢٤٦.

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر: (٧٣/١).

(٤) وفيات الأعيان: (١٦٩/٥).

من بغداد إلى اليمن مررنا بمكة فحججنا مع الناس، فبينما أنا في الطواف إذ لقيت عبد الرزاق بن همام وهو يطوف بالبيت، وكان قد حج في ذلك العام، فسلمت عليه وأخبرته أن معي في سفري أحمد بن حنبل، فدعا لأحمد وأثنى عليه خيرًا.

قال ابن معين: فرجعت إلى أحمد وقلت له: قد قرب الله خطانا، ووفر علينا النفقة، وأراحنا من السير مسيرة شهر، وهذا عبد الرزاق هاهنا فلنسمع الحديث منه هنا بمكة، فقال أحمد: إنِّي نويت وأنا ببغداد أن أسمع من عبد الرزاق بصنعاء، ولا والله لا أغير نيتي أبدًا، فلما قضينا حجتنا ارتحلنا إلى صنعاء، ثم نفذت نفقة أحمد ونحن بصنعاء، فعرض عليه عبد الرزاق مالاً فرفضه، ولم يقبل مساعدة أحد، وكان يعمل التكك ويقتات من ثمنها^(١).

عن أبان بن أبي عياش قال: قال لي أبو معشر الكوفي: خرجت من الكوفة إليك - إلى البصرة - في حديث بلغني عنك، قال: فحدثته به^(٢).
(والمسافة بين الكوفة والبصرة أكثر من ٣٥٠ كيلو مترًا).

ورحل بقي بن مخلد من الأندلس إلى بغداد، على قدميه ماشيًا، وقطع القفار والحبار والجبال وكان عمره آنذاك عشرين سنة، وكان مقصوده لقاء الإمام أحمد بن حنبل وسماع الحديث منه، ولمَّا اقترب من بغداد جاءه خبر محنة الإمام أحمد في فتنة القول بخلق القرآن، وبلغه أن الإمام أحمد قد مُنِعَ من التدريس وإقامة الحلقات، وأَنَّهُ مقيم في بيته رهن

(١) المنهج الأحمد في ترجمة الإمام أحمد: (٣٩٣/٩).

(٢) الرحلة في طلب الحديث ص ١٤٨.

الإقامة الجبرية، قال بقي: فاغتممت لذلك أشد الهم والاعتمام، ولكنّه أصر على مواصلة رحلته، فلمّا وصل بغداد وضع متاعه ثم ذهب إلى الجامع الكبير بها، ثم خرج باحثًا عن منزل أحمد، فدلّ عليه، فطرق الباب ففتح له أحمد، فقال له بقي: أنا رجل غريب الدار وطالب حديث، وما كانت رحلتي إلا إليك، فقال: وأين بلدك؟ قلت: المغرب الأقصى، أجوز من بلدي إلى إفريقية (أي من الأندلس) فقال: إن موضعك لبعيد، ووددت مساعدتك ولكني في حيني هذا ممتحن ومحبوس في داري، فقال بقي: يا أبا عبدالله! أنا رجل غريب لا يعرفني أحد من أهل بغداد، فإن أذنت لي أن آتيك كل يوم في زي السؤال، فأطرق الباب وأسأل الصدقة، فتخرج إليّ فتحدثني ولو بحديث واحد كل يوم، فقال أحمد: نعم بشرط ألا تظهر في الحلق وعند أصحاب الحديث، قال بقي: فكنت آخذ عودًا بيدي وألفُ رأسي بخرقه، وأجعل ورقي ومحررتي في كمي، ثم آتي باب الدار فأصيح: الأجر رحمكم الله، فيخرج إليّ أحمد، ويغلق باب الدار، ويحدثني بالحديثين والثلاثة حتى اجتمع لي نحو ثلاثمائة حديث، ثم إن الله رفع المحنة عن الإمام أحمد وسُمح له بعقد الدروس والحلقات، فكنت إذا جئته وهو في حلقة أفسح لي المكان وأجلسني بجواره، وقال لتلاميذه: هذا يصدق عليه اسم طالب العلم، ثم يقص عليهم قصتي معه، ثم مرة مرضت فأتاني أحمد يعودني ومعه أصحابه ومعهم أقلامهم يكتبون كلام شيخهم^(١).

وقال الإمام أحمد: بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي

(١) السير: (٢٩٢/١٣).

طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً^(١).
وقال أبو حامد الإسفراييني: لو رحل رجل إلى الصين حتى يحصل له
كتاب «التفسير» لمحمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً^(٢).

وتفسير ابن كثير الآن بين أيدينا فكم من المسلمين من يقرأه!
طواه النسيان، واعتلاه عند أصحاب المكتبات الغبار. أمّا أولئك
فإنهم أصحاب جهاد وصبر.

قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].
قال الفضيل: والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل
به^(٣).

وتأمل سيرة الأئمة الأعلام كيف يسر الله لهم هذا الطريق وفتح لهم
مغاليق الأبواب.

عن عكرمة قال: قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لما قبض رسول
الله ﷺ وأنا شاب، قلت لشاب من الأنصار: هلمّ فلنسأل أصحاب رسول
الله ﷺ ولنتعلم منهم فإنهم اليوم كثير، فقال لي: يا عجباً لك يا ابن
عباس، أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله
ﷺ من فيهم؟

قال ابن عباس: فتركت ذلك الرجل وأقبلت أنا على المسألة، وجعلت
أتبع الصحابة وأسألهم، فإن كنت لآتي الرجل في طلب حديث واحد
يلغني أنه سمعه من رسول الله ﷺ، فأجده قائلاً فأتوسد ردائي على بابه،

(١) فتح الباري: (٤٣٨/٨).

(٢) طبقات الفقهاء لابن الصلاح: (١٠٩/١).

(٣) تفسير النسفي: (١٣٠٧/٢).

تسفي الريح على وجهي التراب (أي تنثره) حتى يخرج، فإذا خرج قال: ابن عم رسول الله ﷺ!؟ ما جاء بك؟ هلا أرسلت إليّ فأتيك، فأقول: لا، أنا أحق أن أتيك، بلغني حديث عنك أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ فأحببت أن أسمعه منك.

قال ابن عباس: فكان ذاك الفتى الأنصاري يراني بعد ذلك وقد اجتمع الناس حولي يسألونني فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني^(١).

وهذا يعقوب بن سفيان يتحدث عن طلبه للعلم وصبره على ذلك ومجاهدته النفس حتى رزقه الله العلم والفقه فيقول: أقمت في الرحل ثلاثين عامًا، ففي إحدى رحلاتي قلت نفقتي، فكنت أعمل بنسخ الكتب ليلاً، وأطلب العلم بالنهار، وفي ذات ليلة بينا أنا جالس أكتب وأنسخ على ضوء السراج، وكان الوقت شتاءً، إذ نزل الماء في عيني، وما عدت أبصر شيئاً فبكيت أسفاً على ذهاب بصري لما سيفوتني من قراءة العلم وكتابته، فغلبتني عيناى فنمت وأنا على تلك الحال، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام، فناداني وقال: لم بكيت؟ فقلت: ذهب بصري فتحسرت على ما فاتني من العلم، فقال لي: ادنُ مني، فدنوتُ منه، فأمرَ يده على عيني كأنه يقرأ عليها ثم استيقظت فأبصرت، فأخذت نسختي وواصلت الكتابة^(٢).

وذكر القاضي عياض أنَّ أبا الوليد الباجي كان أصله من «بطلوس» ثم انتقل إلى «باجة الأندلس» فقيراً حتى احتاج أثناء سفره إلى أن يؤجر نفسه

(١) البداية والنهاية: (٢٩٨/٨)، وابن عبد البر في بيان العلم وفضله: (١/١٠٦).

(٢) تهذيب التهذيب: (٣٨٧/١١) بتصرف.

لحراسة درب من الدروب، فكان يستعين بأجرة الحراسة على النفقة لطلب العلم، وبضوء مصابيح الدرب على القراءة والمطالعة، ثم إنّه تولى ضرب صفائح الذهب وطرقها ودقها لتكون خيوطاً توضع في النسيج والقماش، فكان يخرج إلى بعض تلاميذه القلائل وفي يديه أثر المطرقة وصدأ العمل، ثمّ بعد ذلك فشا علمه واشتهر صيته وذاعت شهرته فأغناه الله من فضله^(١).

أخو العلم حي خالد بعد موته
وأوصاله تحت التراب رميمٌ
وذو الجهل ميت وهو ماشٍ على الثرى

يُظَنُّ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَهُوَ عَدِيمٌ
أما عبدالله بن حمود الزبيدي فقد طلب العلم على يد أبي علي الفارسي، ففي ذات مرة نام في بيت الدواب الذي كان خارج دار أبي علي الفارسي، وكانت فيه دابة أبي علي، وإنما فعل الزبيدي ذلك لأجل أن يسبق الطلبة إلى أبي علي الفارسي قبل أن يزدحموا عليه ففي ذات مرة خرج أبو علي من بيته لصلاة الفجر مبكراً قبل طلوع الفجر، فشعر به الزبيدي فتبعه في الظلام، فخاف أبو علي وظنه لصاً وقال: ويحك من تكون؟ قال: أنا تلميذك عبدالله الزبيدي، فصاح فيه: إلى متى تتبعني؟ والله ما على الأرض أحد أعلم بالنحو منك.

وحكى أبو الحسن يوسف بن أبي ذر البخاري أن محمد بن إسماعيل البخاري مرض، فعرضوا ماءه على الأطباء، فقالوا: إن هذا الماء يشبه

(١) ترتيب المدارك: (٤/٨٠٤).

ماء بعض أساقفة النصارى فإنهم لا يأتدمون، فصدقهم محمد بن إسماعيل وقال: لم آتدم منذ أربعين سنة، فسألوا عن علاجه؟ فقالوا علاجه الإدام، فامتنع حتى ألح عليه المشايخ وأهل العلم فأجابهم إلى أن يأكل مع الخبز سكرة^(١).

بقدر الكد تكتسب المعالي
ومن طلب العلا سهر الليالي
تروم العز ثم تنام ليلاً
يغوص البحر من طلب اللآلي

أخي القاري:-

لعلك تسير بين السطور لترى رحلة أولئك بين هجير الشمس وزمهرير الشتاء وضيق العيش وكرب السفر.

رحل عبدالله بن فروخ القيرواني إلى أبي حنيفة ليطلب عنده العلم، فبينما عبدالله جالس ذات يوم في منزل أبي حنيفة إذ سقطت آجرة على رأس عبدالله بن فروخ فشجت رأسه وسال دمه، فقال له أبو حنيفة: اختر إما الدية أو ثلاثمائة حديث، فقال عبد الله: بل أختار ثلاثمائة حديث، قال: فحدثني بها^(٢).

وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: كنت ربما أردت البكور في طلب الحديث، فتأخذ أُمِّي بشيبي وتقول: حتّى يؤذن الناس أو حتّى يُصبحوا^(٣).

(١) مقدمة الفتح ص (٤٨١).

(٢) ترتيب المدارك ص ٣.

(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٣١.

وحينما سُئل أبو القاسم الطبراني عن سبب كثرة حفظه وكتابته للأحاديث فقال: كنت أنام على البواري (أي الحُصْر التي في المساجد) ثلاثين سنة^(١).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال أبو الفضل بن بنيمان: رأيت أبا العلاء الهمداني في مسجدٍ من مساجد بغداد يكتب وهو قائم لأن السراج كان عاليًا^(٢).

وقال عمر بن حفص: فقدنا البخاري أَيْامًا من كتابة الحديث بالبصرة، فطلبناه فوجدناه في بيته وهو عريان، وقد نفذ ما عنده من مال ولم يبق معه شيء، فجمعنا له دراهم واشترينا له ثوبًا، فكسونه إِيَّاهُ^(٣).

نعم هذه حال جامع صحيح البخاري! رحمه الله وأجزل مثوبته، وجزاه عن الإسلام خير الجزاء.

وتأمل أخي القارئ في طول الصبر والمصابرة والجهد والمجاهدة.

قال مالك: كان الرَّجُلُ يختلف إلى الرَّجُلِ ثلاثين سنة يتعلَّم منه.

العلم يُحيي أناسًا في قبورهم

والجهل يُلحق أحياءً بأَمْواتٍ

قال مصعب الزبيري: أوصى يحيى بن زكريا إليَّ بكتب سليمان بن بلال التي كان عنده، فأخذت كتب سليمان وخبأتها عندي، فجاء الفأر فبال عليها، فكنت أقرأ ما استبان لي من الكلمات وأدع ما طمسه بول الفأر.

(١) تذكرة الحفاظ: (٣/٩١٥).

(٢) تذكرة الحفاظ: (٤/١٣٢٥).

(٣) تاريخ بغداد: (٢/١٣).

وقال الإمام أحمد: رحلتُ في طلب العلم والسَّنة إلى الثغور، والشَّامات، والسَّواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقيين جميعًا، وفارس، وخراسان، والجال، والأطراف، ثم عُدْتُ إلى بغداد.

وخرجتُ إلى الكوفة، فكنْتُ في بيتٍ تحتَ رأسي لبنَةً! فحُمِمتُ! فرجعتُ إلى أُمي رحمها الله ولم أكن أستاذتُها، ولو كان عندي تسعون درهمًا كنْتُ رحلتُ إلى جرير بن عبد الحميد إلى الرِّيِّ^(١)، وخرج بعضُ أصحابنا ولم يمكني الخروج، لأنَّه لم يكن عندي شيء!^(٢).

وقال الوراق عن الإمام البخاري: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ، فكنْتُ أراه يقوم في الليلة الواحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري نارًا بيده ويسرج ويخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه، فقلت له: إنَّك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظني، قال: أنت شاب فلا أحبُّ أن أفسد عليك نومك^(٣).

رحمهم الله وأجزل مثوبتهم، ورزقنا من صبرهم وأفاض علينا من علمهم، وجمعنا وإياهم ووالدينا في جنَّات عدن تجري من تحتها الأنهار.

(١) الرِّي: من مدن إيران: حاليًا.

(٢) مناقب الإمام أحمد ص (٢٥)، البداية والنهاية: (٣٣٦/١٠).

(٣) تاريخ بغداد: (١٣/٢).

حفظ الوقت

رأس مال الإنسان هو وقته، وحال العلماء ومحافظةهم على أوقاتهم يجب الوقوف عندها والتأمل فيها؛ فإن في مراجعتها إحياء للهمم، وتقوية للعزائم، وطرذاً للكسل، وإبعاداً للخمول.

ها هو الصحابي الجليل معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عندما حضرته الوفاة قال لجاريته: ويحك! هل أصبحنا؟ قالت: لا، ثم تركها ساعة، ثم قال: انظري، فقالت: نعم، فقال: أعوذ بالله من صباح إلى النار، ثم قال: مرحباً بالموت، مرحباً بزائر جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالركب في خلق الذكر^(١).

وهذا الإمام البخاري - رحمه الله - يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه، فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمرّ بخاطره، ثم يطفىء سراجَه، ثم يقوم مرة أخرى وأخرى، حتى كان يتعدد ذلك منه في الليلة الواحدة قريباً من عشرين مرة^(٢).

وذكر في ترجمة سليمان بن إبراهيم العلوي أنه أتى على البخاري نحواً من مائتين وثمانين مرة قراءة وسماعاً وإقراءً.

وقال أحمد بن حنبل: قال أبو أسامة - رحمه الله - كتبت بيدي هذه مائة ألف حديث.

(١) جامع العلوم وفصله: (٥٧/١).

(٢) البداية والنهاية: (٢٨/١١).

وقال يحيى بن معين - رحمه الله -: كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث^(١).

ما تطعمتُ لذة العيش حتى
صرتُ للبيت والكتاب جليساً
ليس شيء أعز عندي من العلم
فلم أبتغ سواه أنيساً
إنما النذل في مخالطة الناس
فدعهم وعش عزيزاً رئيساً^(٢)

وذكر عن عباس بن الوليد الفاسي أنَّ بعض إخوانه وجدوا مكتوباً في آخر بعض كتبه: درست هذا الكتاب ألف مرة.

وذكر في ترجمة ابن التبان أنَّه أخذ العلم عن ابن اللباد وغيره، ودرس كتاب «المدونة» نحو ألف مرة.

وقال محمد بن عبدالله الأبهري: قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة، وكتاب الأسدية خمساً وسبعين مرة، والموطأ خمساً وأربعين مرة، ومختصر البرقي سبعين مرة، والمبسوط ثلاثين مرة.

قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿وَلَئِكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٣) [العنكبوت: ٤٣].

(١) تقييد العلم للخطيب.

(٢) شذرات الذهبك (٥٧/٩).

(٣) تفسير ابن كثير.

وقال سعيد بن فيروز: لأن أكون في قوم أتعلّم منهم، أحب إليّ من أن أكون في قوم أنا أعلمهم^(١).
وعندما سُئل ابن المبارك: إلى كم تكتبُ الحديث؟ قال: لعلّ الكلمة التي أنتفع بها لم أسمعها بعد.

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: مرَّ بنا أحمد بن حنبل ونعلاه في يديه وهو يركض في دروب بغداد ينتقل من حلقة لأخرى، فقام أبي وأخذ بمجامع ثوبه وقال له: يا أبا عبدالله! إلى متى تطلب العلم؟ قال: إلى الموت^(٢).

يا طالب العلم:

من علِم أنَّ الدُّنيا دار سباق وتحصيل للفضائل، وأنَّه كلّما علَتْ مرتبته في علم وعمل زادت المرتبة في دار الجزاء، انتهب الزَّمان ولم يضيّع لحظةً، ولم يترك فضيلةً يمكنه إلا حصلها^(٣).

قال عبدالله بن محمد البغوي: سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل يقول: أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر^(٤).

أما أبو سعد السَّمْعَانِي فقد رحل إلى بغداد وعمره ستة عشر عامًا، ليدرك أبا نصر الزَّيْنِي، ليسمع منه حديث علي بن الجعد عن شعبة، فلمَّا وصل بغداد تلقَّاه نبأ وفاة أبي نصر الزَّيْنِي، فبكى أبو سعد وجعل يقول: من أين لي علي بن الجعد عن شعبة؟

(١) مفتاح دار السعادة ج ١.

(٢) شرف أصحاب الحديث ص ٦٨.

(٣) الآداب الشرعية: (١/٢٤١).

(٤) مناقب الإمام أحمد ص ٣١.

وكتب أبو علي الفارسي مجموعة من كتب العلم بيده، ثم إنه جاء حريق فالتهم تلك الكتب، فبقي أبو علي شهرين كاملين، لا يكلم أحدًا، من شدة الهم والحزن على هذه المصيبة، وبقي مدة ذاهلاً متحيراً من هذه الصدمة، ثم صبره الله وعاد إلى رشده.

وفقد الكتاب كفاءة الصواب

فيا هول من قد أضاع الكتب

وقديمًا قالوا: كتابك الذي تكتبه بيدك هو ولدك المُخلد بعد موتك. وأما هموم الناس اليوم فهي هموم الدنيا وجمع حطامها؛ يُصبح الكثير من الناس ويُمسي وهو مهموم مغموم من دينار فاته أو درهم خسره. ونتحدث عن الحماسة لطلب العلم الشرعي، لأننا في زمان ماتت فيه الهمم، وضعفت فيه العزائم، وقلت فيه رغبة الناس في تحصيل العلم الشرعي.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: ربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال، فأضعها في موضعها من الكتاب، فأبيت ساهرًا الليل كله فرحًا مني بتلك الفائدة.

وبات محمد بن أحمد النسفي ليلة قلقًا حزينًا لما أصابه من الفقر وركبه من الدين، وكانت قد أشكلت عليه مسألة فقهية لم يعرف جوابها، ففكر فيها في ظلام الليل وهو مهموم حزين ففتحها الله عليه وعرف جوابها، فقام يدور في غرفته ويتمايل طربًا، ويقول: أين الملوك وأهل الدنيا؟ فتعجبت امرأته من حاله، وظنت أنه قد وجد سبيلًا للحصول على مال يسد به فقره، فسألته: مالك؟ فأخبرها الخبر؛ فتعجبت وحزنت. وعندما سُئل الإمام الشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ فقال: أسمع

بالحرف من العلم لم أسمعها من قبل، فتود أعضائي أن لها آذانًا تتنعم بها بهذه الكلمة كما تنعمت بها أذناي، فقيل له: كيف حرصك على تحصيل العلم؟ فقال: حرص الجموع المتنوع في بلوغ لذته للمال. فقيل له: فكيف طلبك للعلم؟ فقال: كطلب المرأة التي أضاعت ولدها وليس لها ولد سواه.

وقالوا لبعض السلف: من يؤنسك؟ قال: فضرب يديه على كتبه وقال: هذه، فقالوا: من الناس؟ قال: الناس الذين فيها.
إني رأيت وفي الأيام تجربة

للصبر عاقبة محمودة الأثر

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيةً قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

قال الخطيب البغدادي: جمع رسول الله ﷺ في هذا الحديث مراتب الفقهاء والمتفقهين من غير أن يشدَّ منها شيء؛ فالأرض الطيبة: هي مثل الفقيه الضابط لما روى، الفاهم للمعاني، المحسن لردِّ ما اختلف فيه إلى الكتاب والسنة، والأجادب الممسكة للماء التي يستقي منها الناس هي

(١) رواه البخاري ومسلم.

مثل الطائفة التي حفظت غير مغيرٍ، دون أن يكون لها فقه تتصرف فيه ولا فهم بالرد المذكور وكيفيته، لكن نفع الله بها في التبليغ، فبلغت إلى من لعله أوعى منها كما قال رسول الله ﷺ: «رَبِّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، وَرَبِّ حَامِلٍ فَقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهِ».

ومن لم يحفظ ما سمع ولا ضبط فليس مثل الأرض الطيبة ولا مثل الأجادب، بل هو محروم، ومثله مثل القيعان التي لا تنبت كلاً ولا تمسك ماءً.

ومع تيسر السبل وسهولة طلب العلم كم فينا من المحرومين منه والغافلين عنه؟!

رحل أسد بن الفرات - رحمه الله - إلى محمد بن الحسن الشيباني، ولما حضر عنده، قال له: إني رجل غريب قليل النفقة والسَّماع منك قليل، والطلبة عندك كثير، فقال له محمد بن الحسن: اسمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل وحدك فتيتته عندي وأحدثك بالعلم، قال أسد: فكنت أبيت الليل في منزل محمد بن الحسن، فينزل إليّ ومعه قَدَح من الماء، ثم يأخذ ويبدأ في القراءة من كتب العلم، وأنا أستمع إليه، فإن طال الليل ونعست ملأ بالماء ونضح به وجهي فأنتبه، وهكذا عدة مرات في الليل، حتى أنهيت ما أريد سماعه منه، وكان محمد بن الحسن يتعهد أسد بن الفرات بالنفقة حين علم أن نفقته قد انتهت.

رحمهم الله. لقد صدق عليهم حديث الرسول ﷺ حيث رفعوا للأمة رأساً وللعلم مناراً.

يا طالب العلم باشر الورعاً
وبايئس النوم، واهجر الشُّبْعَا

مَا ضَرَّ عَبْدًا صَحَّتْ إِرَادَتُهُ
أَجَاعَ يَوْمًا فِي اللَّهِ أَوْ شَبَعًا^(١)

قال الحميدي: خرجت مع الشافعي إلى مصر، فكان هو ساكنًا في العلو، ونحن في الأوساط، فربما خرجت في بعض الليل فأرى المصباح فأصيحُ بالغلام فسمع صوتي فيقول: بحقي عليك إِرَق، فأرقى فإذا قرطاس وحبر، فأقول: مَهْ يَا أبا عبد الله، فيقول: تفكرت في معنى حديث أو في مسألة فخفت أن يذهب عليّ فأمرت بالمصباح وكتبته^(٢).

قال أبو زكريا يحيى بن محمد: دخلتُ على أبي محمد بن يحيى الذهلي في الصيف الصائف وقت القائلة، وهو في بيت كُتُبِه، وبين يديه السراج، فقلتُ: يا أبة!، هذا وقتُ الصيف، ودخانُ هذا السراج بالنهار يضرُّك! فلو نفَّست عن نفسك؟ فقال لي: يا بُني! تقولُ لي هذا وأنا مع رسول الله ﷺ ومع أصحابه والتابعين؟!^(٣).

أخي الحبيب:

هذه هي مجالسهم وأولئك جلساؤهم.

مجالسهم مثل الرياض أنيقة

لقد طاب منها الريح واللون والطعم

قال أبو بكر النيسابوري مخبرًا عن نفسه: لقد أقمت أربعين سنة لا أنام الليل إلا جاثيًا، وصليتُ الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، وهذا كله قبل

(١) روضة العقلاء ص ٣٥.

(٢) مناقب الشافعي ص ٤٣.

(٣) تاريخ بغداد: (٤١٩/٣).

أن أعرف أم عبدالرحمن، إيش أقول لمن زوّجني، ثم قال: ما أراد إلا الخير^(١).

وكان هذا السهر والنصب ألد عند السلف من سائر ملذات الدنيا، ولذا قال قائلهم:

سَهْرِي لَتَنْقِيحِ الْعُلُومِ أَلْدُ لِي
مَنْ وَصَلَ غَانِيَةً وَطِيبَ عِنَاقٍ
وَتَمَایِلِي طَرَبًا لِحُلِّ عَوِیْصَةٍ
أَشْهَى مِنْ النِّعَمَاتِ لِلْعِشَاقِ
وَأَلْدُ مَنْ نَقَرَ الْفَتَاةَ لِدَفْهَا
نَقْرِي لِأَلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي
أَبِيتَ سَهْرَانَ الدَّجَى وَتَبِيتَهُ
نَوْمًا وَتَبَغَيْ بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِي؟

سأل طلبة العلم ابن برهان أحمد بن علي البغدادي أن يخصص لهم وقتًا ليدرّسهم فيه أحد الكتب فقال لهم: لا أجد لكم وقتًا، فكانوا كلما حدّدوا له وقتًا قال لهم: أنا في هذا الوقت مشغول بمذاكرة الدرس الفلاني. فانتهى بهم البحث إلى أن حدّدوا لهم درسًا معه في نصف الليل^(٢). قال إبراهيم النخعي: إنّه ليطول عليّ الليل حتى ألقى أصحابي فأذاكرهم^(٣).

وكان وكيع بن الجراح إذا صلى العشاء ينصرف معه أحمد بن حنبل،

(١) تذكرة الحفاظ: (٣/٨٢٠).

(٢) طبقات الشافعية للسبكي: (٦/٣٠) بتصرف.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي ص ٢.

فيقف على الباب فيتذاكران الحديث، فما يزالان يتذاكران حتى تأتي الجارية وتقول: قد طلع الكوكب^(١).

وعن ابن أبي حاتم قال: حضر قتيبة بن سعيد بغداد، وقد جاءه أحمد بن حنبل، فسأله عن أحاديث فما زالا حتى الصباح.

وقال علي بن الحسن بن شقيق: قمت مع ابن المبارك ليلة باردة ليخرج من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث وذاكرته، فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذن فأذن الفجر^(٢).

لقد كان هذا سهرهم وتلك رغبتهم.

قال يحيى بن أبي كثير في كلمات صادقة وحكمة مجربة: لا يُستطاع هذا العلم براحة الجسد.

لا تحسب المجدَ تمرًا أنت آكله

لن تبلغ المجدَ حتى تلعق الصبرا

قال أبو داود السجستاني: التقى وكيع وعبد الرحمن ابن مهدي في الحرم بعد العشاء فتواقفا، حتى سمعا أذان الصبح^(٣).

وذكر أبو بكر محمد بن اللبَّاد أن محمد بن عبدوس صلى الصبح بوضوء العتمة ثلاثين سنة، خمس عشرة سنة من دراسة، وخمس عشرة سنة من عبادة^(٤).

أين ليل الساهين اليوم؟ ثلاثون سنة ما بين دراسة وعبادة!!

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي.

(٢) تذكرة الحفاظ: (٢٧٧/١).

(٣) السير: (١٩٥/٩).

(٤) ترتيب المدارك: (١٢٢/٣).

عن فضيل بن غزوان قال: كنت أجلس أنا ومغيرة بن مقسم الضبي وناس آخرون نتذاكر الفقه بعد العشاء، فربما لم نقم حتى نسمع النداء لصلاة الفجر فنذهب للوضوء.

وعلق على سهر الليل ومكابدة النوم الخطيب البغدادي فقال: وأفضل المذاكرة مذاكرة الليل، وكان جماعة من السلف يفعلون ذلك، وكان جماعة منهم يبدؤون من العشاء فربما لم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبح^(١).

قال الشاعر العالم مبيّنًا حبه وحرصه على الكتب والقراءة:

لمحبـرة تجـالـسني نهـاري
أحبُّ إليَّ من أنس الصديق
ورزـمة كاغـدٍ في البيت عندي
أعزُّ إليَّ من عدل الرفيق
ولطمـة عالم في الخـد مني
ألدُّ عليَّ من شرب الرحيق
قال النصر بن شميل: لا يجد الرَّجل لذة العلم حتّى يجوع وينسى جوعه^(٢).

وقال أبو شهاب الحنّاط: بعثت أخت سفيان الثوري معي بجراب فيه طعام إلى سفيان، وكان سفيان آنذاك بمكة، فلمّا قدمت، مكّة سألت عن مكانه فدلوني عليه فأتيته وكان لي صديقًا، فسلمت عليه فرد عليّ السلام

(١) المجموع: (٣٨/١).

(٢) تذكرة الحفاظ: (٣١٤/١).

ولم يهشَّ في وجهي كالمعتاد، فقلت له: إن أختك قد بعثت إليك جراب من الطعام، فاستوى سفيان جالسًا وقال: عَجِّلْ به، فلمَّا أكل قلت له: يا أبا عبدالله، أتيتك فسلمت عليك فلم تهشَّ في وجهي وأنا صديقك، ولمَّا أخبرتك أن أختك قد بعثت إليك جراب طعام استويت وكلمتني وأقبلت عليَّ، فقال سفيان: لا تلمني يا أبا شهاب، فإن لي ثلاثة أيام لم أذق فيها طعامًا، قال أبو شهاب: فعذرته^(١).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال ابن أبي حاتم الرازي: كنَّا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقعة، نهارنا ندور على الشيوخ، وبالليل ننسخ، فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا فقالوا: هو عليل، فرأيت سمكة أعجبتنا فاشتريناها، فلمَّا صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ فمضينا، فلم يزل السمك ثلاثة أيام وكاد ينفني، فأكلنا نيا لم نتفرغ نشويه^(٢).

وقال ابن الجوزي في كتاب «صيد الخاطر» مخبرًا عن حاله في أيام طلبه للعلم: ولقد كنت في حلاوة طلبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو أحلى عندي من العسل لأجل ما أطلب وأرجو.

ومن تكن العلياء همّة نفسه

فكل الذي يلقاه فيها محبب

كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى ببغداد فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء

(١) الطبقات الكبرى: (٦/٣٧٢).

(٢) تذكرة الحفاظ: (٣/٨٣٠).

(لقسوتها وصلابتها) فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العدو لثلا أسبق، وكنت أصبح وليس لي مأكّل وأمسي وليس لي مأكّل، ما أذلني الله لمخلوق قط، ولو شرحت أحوالي لطال الشرح.

ويذكر أبو حاتم - يرحمه الله - تجربة أخرى له فيقول: بقيت بالبصرة ثمانية أشهر لطلب العلم فانتهدت نفقتي، فجعلت أبيع ثياب بدني شيئاً فشيئاً حتى بقيت بلا نفقة، فجعلت أطوف مع صديق لي على المشايخ، نسمع منهم الحديث، فإذا جاء المساء رجعت إلى منزلي الخالي فأشرب الماء من شدة الجوع، فإذا أصبح الصباح غدا عليّ رفيقي وانطلقنا ندور على المشايخ وبي من الجوع ما الله به عليم، وفي ذات مرة غدا عليّ لننطلق فقلت له: أنا ضعيف القوى لا يمكنني ذلك، فقال: ما لك؟ قلت: قد مضى عليّ يومان ما ذقتُ فيهما طعاماً، فأعطاني نصف دينار لأتقوى به^(١).

وكان أحمد بن حنبل يصلي بعبد الرزاق يوماً في صلاته فسأله عبد الرزاق عن سبب سهوه، فقال أحمد: ما ذقتُ طعاماً منذ ثلاثة أيّام، وكانت هذه القصّة في أثناء رحلة الإمام أحمد إلى اليمن لطلب العلم^(٢). قال حجاج بن الشاعر: جمعت لي أمي مائة رغيف فجعلتها في جراب، وانحدرت إلى شبابة بالمدائن، فأقمت ببابه مائة يوم، أغمس

(١) الرحلة لطلب الحديث للخطيب البغدادي، الجرح والتعديل ص ٣٦٣.

(٢) طبقات الحنابلة: (١/٩٧).

الرجيف في دجلة وآكله، فلمّا نفذت خرجت^(١).
 وكان لمحمد بن سحنون جارية يقال لها أم مدام، فكان عندها يومًا
 وقد شغل بتأليف كتاب إلى الليل، فلمّا جاء الليل استمر في الانكباب
 على التأليف، فلمّا مضى جزء من الليل جاءت له بالطعام ووضعت عنده،
 فقال لها: أنا مشغول الساعة عن الطعام، واستمر في تأليفه، فلما طالت
 عليها المدة جعلت تلقمه الطعام بيدها، وهو منكب على كتبه يؤلف
 ويكتب، واستمر في الكتابة حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر، فانتبه وقال
 لها: شغلنا عنك الليلة يا أم مدام، هاتِ طعامك، فقالت: قد ألقمته كله
 لك يا سيدي، فقال لها: والله ما شعرتُ بذلك^(٢).

في زماننا هذا أين نحن من هؤلاء؟!

قال أبو المعالي الجويني مخبرًا عن حاله وقت طلبه للعلم: أنا لا أنام
 ولا أحدد أوقاتًا خاصة للأكل، وإتّما أنام إذا غلبتني عياني على النوم ليلاً
 كان أو نهارًا، وآكل الطعام إذا اشتهيت الطعام في أيّ وقت كان.
 وقال بقي بن مخلد القرطبي مخبرًا عن نفسه: إني لأعرف رجلاً كانت
 تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعلم ليس له طعام إلا ورق الكرنب
 الذي يُرمى^(٣).

وقال إبراهيم بن عمر الجعيري: كنت في أول طلبي للعلم أشتري
 جزراً بفلس فكان يكفيني ثلاثة أيام.
 وحدث الإمام أبو علي البلخي عن رحلته في طلب العلم فقال: لقد

(١) السير: (٣٠٢/١٢)، وطبقات الحنابلة ص (١٤٨).

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض: (١١٤/٣).

(٣) السير: (٢٩٢/١٣).

كنت بعسقلان أطلب العلم، فقلّت نفقتي وبقيت أيامًا بلا أكل، فذهبت لأكتب، فعجزت عن الكتابة لما بي من الجوع، فكنت أذهب إلى دكان خباز وأقعد بقربه وأشم رائحة الخبز وأتقوى بها، ثم يسر الله لي مالاً^(١). وقال أبو العباس الجرجاني: كان أبو إسحاق الشيرازي لا يملك شيئاً من الدنيا، فبلغ به الفقر مبلغه، حتى كان لا يجد قوتاً ولا ملبساً! ولقد كنّا نأتيه وهو ساكنٌ في القطيعة - حيٍّ من أحياء بغداد - فيقوم لنا نصف قومة، ليس يعتدل قائماً من العري! كي لا يظهر منه شيء.

وهذا عيسى بن موسى بن محمد المتوكل يقول: مكثت ثلاثين عاماً، أشتهي أن أشارك العامة في أكل هريسة السوق فلا أقدر ذلك، لأجل البكور في طلب الحديث.

وقال أبو العباس البكري: جمعت الرحلة في طلب العلم بين محمد بن جرير الطبري ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني، فنفدت نفقتهم وافترقوا واشتد عليهم الجوع، فاتفقوا على أن يقدموا واحداً منهم ليدعو الله أن يفرج عنهم، ويسر لهم طعاماً، والبقية يؤمنون، فكل واحد منهم اعتذر وقال: لست لذلك بأهل، احتقاراً منهم لأنفسهم، فاقترعوا فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة، فقال لهم: أمهلوني حتى أصلي ركعتين وبعدها أدعو لكم، فتوضأ وشرع في الصلاة، فبينما هو في صلاته لم يفرغ منها إذ طرّق الباب، ففتح أحدهم فإذا عبد مملوك لوالي مصر يقول: أيكم محمد بن نصر المروزي؟ قالوا: هذا، وأشاروا إليه، فأخرج صرة

(١) تذكرة الحفاظ: (٤/١١٧٣).

فيها خمسون ديناراً، وفعل نفس الشيء مع محمد بن جرير ومحمد بن هارون ومحمد بن خزيمة ثم قال: إن الأمير كان قائلاً بالأمس فرأى في المنام رسول الله ﷺ وهو يقول له: أدرك المحمدين الأربعة؛ فإنهم جياع في مكان كذا وكذا، ثم قال هذا المملوك: وإن الأمير يُقسم عليكم إذا نفذ هذا المال أن تبعثوا إليه ليرسل لكم بمال آخر^(١).

وعن عليٍّ - رضي الله عنه - قال: العلم خير من المال، المال تحرسه والعلم يحرسك، والمال تفنيه التَّفَقُّة والعلم يزكو مع الإنفاق، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، مات خُزَّانُ المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة^(٢).

يا طالب العلم:

مَنْ لم يباشر حر الهجير في طلاب المجد لم يقل في ظلال الشرف^(٣).

وانظر ماذا فعل إسماعيل بن عياش عندما طلب العلم والمجد والسؤدد حيث قال: ورثت من أبي أربعة آلاف دينار أنفقتها في طلب العلم^(٤).

ومثل المُحِبِّ للعلم مثل العاشق، فإن العاشق يهتم بمحبوبه ويهيم به، وكذلك المحب للعلم فكما أن العاشق يبيع أملاكه وينفقها على

(١) تذكرة الحفاظ: (٧٥٣/٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله: (٥٧/١).

(٣) الفوائد ص (٥٦).

(٤) تذكرة الحفاظ: (٢٥٤/١).

معشوقه فيفتقر، كذلك محب العلم، فإنه يستغرق في طلبه العمر، فيذهب ماله ولا يتفرغ للكسب^(١).

وسئل عبد الله بن المبارك - رحمه الله - : مَنِ النَّاسُ؟ قال : العلماء، قيل : فمن الملوكة؟ قال : الزهاد، قيل : فمن السفلة؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين^(٢).

أما محبتهم للكتب فهي أكبر من محبة الدينار والدرهم لأهل الدنيا، ومن وجد منهم كتاباً فكأنما وجد كنزاً.

قال طلحة بن مظفر: بيعت كتب ابن الجواليقي في بغداد، فحضرها أبو العلاء الهمداني، وكان عاشقاً محباً للكتب، فعرضوا مجموعة من الكتب بستين ديناراً فاشتراها الهمداني، ولم يكن لديه آنذاك مال في جيبه، فانطلق إلى مدينته همدان، فلما وصلها عرض داراً له للبيع فبلغت ستين ديناراً فقال: بيعوا، فقبل له: لو انتظرت يوماً أو يومين ستبلغ قيمة الدار آلافاً، والدار تساوي أكثر من ستين ديناراً، فرفض وقال: بيعوها، فباعوها بستين ديناراً وهي تساوي آلافاً، ثم رجع إلى بغداد فدفعت ثمن الكتب وأخذها إلى بيته وما علم بحاله أحد.

أخي القارئ:

لقد قدموا غذاء الفكر على غذاء البطن، ولكن إذا لم يجدوا للبطن شيئاً ماذا يفعلون؟! وكيف نحن اليوم في ظل رغد العيش وبحبوحه الرزق؟!

(١) الآداب الشرعية: (٢٣٨/١).

(٢) الإحياء: (١٨/١).

قال محمد بن طاهر: لما رحلت لطلب العلم أقمتُ بتنيس مدة، ونفذت نفقتي هناك، ولم يبقَ معي إلا درهم واحد، وكنت محتاجًا إلى خبز لأسدَّ به جوعي، وإلى ورق لأكتب عليه الحديث، فإن صرفته للخبز فاتني ورق الكتابة، وإن صرفته للكتابة فاتني الخبز، فبقيت ثلاثة أيام بلياليهن مترددًا لم أذق فيها طعامًا، فلمَّا كان بكرة اليوم الرابع، قلت لنفسي: لو كان معي ورق ما استطعتُ أن أكتب فيه، لما بي من الجوع والتعب، فعزمت على أن أشتري به خبزًا، فذهبت إلى السوق وجعلت الدرهم في فمي، فبينما أنا أسير إلى السوق إذ بلغت الدرهم بدون شعور مني، فلمَّا شعرت بذلك جعلت أضحك كثيرًا، فلقيني أحد أصدقائي فسألني: ما يضحكك؟ فأبيت أن أخبره، فألح عليَّ فأخبرته الخبر، فأخذني إلى منزله وأطعمني؛ ثم دبر له مالاً من بيت المال أغناه الله به^(١).

قلت للفقر أين أنت مقيم

قال لي في محابر العلماء

إن بيني وبينهم الإخاء

وعزيز علي قطع الإخاء^(٢)

وتأمل في مطلب ومقصد أصحاب الهمم الحية والقلوب الصادقة فقد قال الحسن البصري: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة، وقال: مَنْ نافسك في دينك فنافسه، ومَنْ نافسك في دنياك فألقها في نحره.

(١) تذكرة الحفاظ ص ٤.

(٢) شذرات الذهب: (٨/١٧٠).

وقال وهيب بن الورد: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل^(١).
إنَّهم أُمَّة جعلوا دنياهم سبيلاً ومعبراً لآخرتهم، فشمَّروا عن ساعد
العلم والعمل، يتعلَّمون ويعلمون، يعبدون الله على بصيرة، ويدعون إليه
على هدى ونور.

قال خلف بن هشام الأزدي: أشكل عليَّ بابٌ من النحو فلم أفهمه،
فأنفقت ثلاثين ألف درهم حتى فهمته وأنقته.

وقال أبو عبد الله بن الضريس: آخر مرة قدمت فيها إلى البصرة،
أعطيت الوراقين (وهم الذين ينسخون له الكتب) عشرة آلاف درهم.
وأنفق الإمام هشام بن عبد الله الرازي في طلبه للعلم سبعمئة ألف
درهم، وسمع عن ألف وسبعمئة شيخ.

أما محمد بن سلام البيكندي فقد قال: أنفقت في طلب العلم أربعين
ألفاً، وأنفقت في نشره أربعين ألفاً.

وقد رحل ابن جرير الطبري لطلب العلم وهو ابن ثنتي عشرة سنة،
وكان والده يتعاهده بالنفقة بين حين وآخر، قال ابن جرير: فمرة أبطأت
عني نفقة والدي وتأخرت، ففتقت كُمي قميصي وبعتها واستعنت بثمانهما
على طلب العلم^(٢).

وقال الإمام ابن الجوزي في كتابه «الفتة الكبد في نصيحة الولد»،
متحدثاً لولده عن نشأته ومبتدأ حاله:

واعلم يا بُني، أن أبي كان مُوسراً وخلفَ ألوفاً من المال، فلمَّا بلغتُ

(١) لطائف المعارف.

(٢) تذكرة الحفاظ: (٧١٣/٢).

دفعوا لي عشرين دينارًا ودارين، وقالوا لي: هذه التركة كلها، فأخذت الدنانير واشترت بها كتبًا من كتب العلم، وبعثت الدارين وأنفقت ثمنها في طلب العلم، لم يبق لي شيء من المال. وما ذلَّ أبوك في طلب العلم قط، ولا خرج يطوف في البلدان من الوُعَّاظ، ولا بعث رُقعةً إلى أحدٍ يطلبُ منه شيئًا قط، وأموره تجري على السَّداد: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

أين شباب الأمة اليوم وأين طلب العلم في حياتهم؟!
إذا رأيت شباب الحي قد نشأوا
لا ينقلون قلال الجبر والورقا
ولا تراهم لدى الأشياخ في حلقٍ
يُعُون من صالح الأخبار ما اتسقا
فذرهم عنك واعلم أنهم همجٌ
قد بدَّلوا بعلو الهمة الحُمَقا
أين أصحاب الهمم العالية والوجوه المتطلعة؟! أكثر الشباب همًّا
طالما ماتت، وقلوبًا طالما نامت. تأمل في من يطلب العلم مع قرب
العلماء والمراجع والكتب وسهولة الوصول إليها والحصول عليها تجد
عجبًا!!

قال عبد الله بن القاسم انتهى وأفضى طلب العلم بالإمام مالك إلى أن
نقض سقف بيته وباع خشبه ثم مالت عليه الدنيا بعد ذلك^(١).

(١) ترتيب المدارك: (١/١٣٠).

قال الإمام مالك: لا ينال هذا لأمر حتى يذاق فيه طعم الفقر^(١).

وكان صالح بن أحمد يملئ على الناس الحديث بهمدان، وكانت له أرض فباعها بسبعمائة دينار، فلمَّا استلم الدنانير فرقها ونثرها على محابر تلاميذه من أصحاب الحديث.

قال شعبة بن الحجاج: لقد بعثُ طست أُمي بسبعة دنانير^(٢).

وقال الإمام أحمد: أقام شعبة عند الحكم بن عتبة ثمانية عشر شهرًا حتى باع جذوع بيته^(٣).

الأموال الطائلة أين تصرف؟! والذهب والفضة أين يضيع؟! سؤال اليوم واضح الجواب، ولكن كيف حال سلفنا وماذا فعلوا بما تحتهم من الأموال؟!!

ورث يحيى بن معين ألفَ ألف درهم وخمسين ألف درهم، فأنفقه كلَّه على الحديث، حتى لم يبق له نَعْلٌ يلبسه!^(٤)

زاده الله شرفًا، ورحم أقدامًا طالما تغبَّرت في سبيل الله.

وذكر ابن عساكر في كتابه: «تبين كذب المفتري» في ترجمة محمد بن الحسين النيسابوري: أنَّه كن يُعلّق دروسه ويطلع كتبه ويقرأها في ضوء القمر، لأنه كان فقيرًا لا مال لديه ليشتري به دهنًا ليوقد به السراج، ومع ذلك كان لا يأخذ من مال الشبهة شيئًا.

(١) ترتيب المدارك: (٦٨/٢).

(٢) تذكرة الحفاظ: (١٩٥/١).

(٣) العلل ومعرفة الرجال.

(٤) المنهج الأحمد: (٩٥/١٠).

قال الإمام الشافعي - رحمه الله: - فقر العلماء فقر اختيار، وفقر الجهال فقر اضطرار.

وإليك قصة أحد العلماء:

قال أبو عبيدة: ضاقت المعيشة على النضر بن شميل البصري بالبصرة، فخرج يُريد خراسان، فشيَّعه من أهل البصرة نحو من ثلاثة آلاف رجل، ما فيهم إلا مُحدِّثٌ أو نحوِّيٌّ أو لغويٌّ أو عروضيٌّ أو أخباري، فلما صار بالمربد - مربد البصرة - جلس وقال: يا أهل البصرة، يعزُّ عليَّ فراقكم، والله لو وجدتُ كل يوم كيلجة باقلي ما فارقتكم، وسار حتى وصل إلى خراسان.

قال النضر: كنتُ أدخلُ على المأمون في سمره، فدخلتُ ذات ليلة وعليَّ ثوبٌ مرقوع، فقال: يا نضر، ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقان؟ قلتُ: يا أمير المؤمنين، أنا شيخٌ ضعيف، وحرٌّ مروٍ شديدٌ، فأتبرَّد بهذه الخلقان، قال: لا، ولكنك رجلٌ متقشفٌ، ثم أجرينا الحديث، فأجرتني هو ذكر النساء، فقال: حدَّثنا هشيم، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها؛ كان فيه سداد من عَوْرٍ»، فأورده بفتح السين (سَدَادٌ من عَوْرٍ)، فقلتُ صدق هشيم، حدَّثنا عوف بن أبي جميلة، عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها؛ كان فيها سَدَادٌ من عَوْرٍ»^(١).

(١) ضعيف انظر السلسلة الضعيفة برقم (٢٤٠١).

قال: وكان المأمون مُتَكَنًّا، فاستوى جالسًا، وقال: يا نصر، كيف قلت: سَدَادٌ؟ قلتُ: لأن السَّدَادَ هاهنا لَحْنٌ، قال: أو تُلَحِّنُنِي؟ قلتُ: إنما لَحَنَ هَشِيمٌ، وكان لَحَانَهُ، فتبع أمير المؤمنين لفظه، قال: فما الفرقُ بينهما؟ قلتُ: السَّدَادُ بالفتح: القصد في الدين والسبيل، والسَّدَادُ بالكسر: البُلْغَةُ، وكل ما سددت به شيئًا فهو سداد، قال: أو تعرف العرب ذلك؟ قلتُ: نعم، هذا العرجي يقول:

أَضَاعُونِي وَأَيُّ فَتَى أَضَاعُوا

ليوم كـريهةٍ وسِدادٍ تُغَرِّ
فقال المأمون: قَبِّحَ اللهُ مَنْ لَا أَدَبَ لَهُ! وأطرق مليًا، ثم قال: ما لك يا نصر؟ قلتُ: أُرِيضُهُ بِمَرَوْ أَتَصَابُهَا وَأَتَمَرِّزُهَا، قال: أفلا نفيدك مالا معها؟ قلتُ: إني إلى ذلك لمحتاجٌ، فأخذ القرطاس، وأنا لا أدري ما يكتب، ثم قال لخادمه: تبلغ معه إلى الفضل بن سهل، فلما قرأ الفضل القرطاس؛ قال: يا نصر، إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب فيه؟ فأخبرته، ولم أكذبه، فأمر لي بثلاثين ألف درهم، فأخذتُ ثمانين ألف درهم بحرف استفيد مني^(١).
ورحم الله من قال:

نَعَمَ الْمَحْدُوثُ وَالزَّرْفِيُّ كِتَابُ

تَلْهُو بِهِ إِنْ خَانَكَ الْأَصْحَابُ
لَا مَفْشِيًّا لِلسَّرِّ إِنْ أَوْدَعْتَهُ
وَيُنَالُ مِنْهُ حَكْمَةٌ وَصَوَابُ

(١) وفيات الأعيان: (١٦١/٢).

استغل وقتك في الأنفس من العلوم

ينبغي لطالب العلم أن يكون جل همته مصروفًا إلى الحفظ والإعادة .
فلو صح صرف الزمان إلى ذلك كان الأولى ، غير أن البدن مطية ، وإجهاد
السير مظنة الانقطاع .

ولمّا كانت القوى تكلّف فتحتاج إلى تجديد ، وكان النسخ والمطالعة
والتصنيف لابد منه ، مع أن المهم الحفظ ، وجب تقسيم الزمان على
الأمرين ، فيكون الحفظ في طرفي النهار وطرفي الليل ، ويوزع الباقي بين
عمل بالنسخ والمطالعة ، وبين راحة للبدن وأخذ لحظّه .

ولا ينبغي أن يقع الغبن بين الشركاء ، فإنه متى أخذ أحدهم فوق حقّه
أثر الغبن وبان أثره ، وإن النفس لتهرب إلى النسخ والمطالعة والتصنيف
عن الإعادة والتكرار ؛ لأن ذلك أشهى وأخف عليها .
فليحذر الراكب من إهمال الناقة ، ولا يجوز له أن يحمل عليها ما لا
تطيق .

ومع العدل والإنصاف يتأتّى كل مراد .

ومن انحرف عن الجادة طالت طريقه .

ومن طوى منازل في منزل أوشك أن يفوته ما جدّ لأجله ، على أن
الإنسان إلى التحريض أحوج ؛ لأن الفتور ألصق به من الجدد .

وبعد ، فاللازم في العلم طلب المهم ، فرب صاحب حديث حفظ مثلاً
لحديث : من أتى الجمعة فليغتسل : عشرين طريقاً ، والحديث قد ثبت
من طريق واحد ، فشغله ذلك عن معرفة آداب الغسل .

والعمر أقصر وأنفس من أن يفرط منه في نفس .
وكفى بالعقل مرشدًا إلى الصواب ، وبالله التوفيق ^(١) .

أخي المسلم:

هذا أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن القصري كان يقول : لي أربع وسبعون سنة ما جفَّ لي قلم . وكان ربما باع بعض ثياب فاشترى بثمانها كتابًا . وعندما وصل أبو جعفر القصري إلى مدينة سوسة لزيارة صديق له ، فوجد صديقه هذا قد أَلَفَ كتابًا ، ولم يكن مع أبي جعفر مال يشتري به ورقًا لينقل فيه هذا الكتاب ، فباع أبو بكر قميصه الذي كان عليه واشترى بثمانه ورقًا كتب فيه الكتاب ورجع به معه إلى القيروان .

ورحل عبدالله بن القاسم إلى مالك بن أنس - رحمه الله - بالمدينة ، ليطلب العلم على يديه ، قال ابن القاسم : فكنت آتي مالكا غلّسا (آخر الليل) فأسأله مسألة أو ثلاثا أو أربعًا ، وكنت أجده منه في ذلك الوقت انشراح صدر ، فكنت آتيه في كل سحر ، فتوسّدت مرة عتبة بابيه أنتظر خروجه لصلاة الفجر لأسأله عن مسائل ، فغلّبتني عيناى فنمت ، وخرج الإمام مالك إلى المسجد ولم أشعر به ، فجاءت جارية مالك السوداء ، فركضتني برجلها وقالت : إن مولاك أيها العبد قد خرج للمسجد ، ليس يغفل كما أنت تغفل ، له اليوم تسع وأربعون سنة ما صلى الفجر إلا بوضوء العشاء ^(٢) .

قال ابن الجوزي : تأملت عجبًا ، وهو أن كل شيء نفيس خطير ، يطول

(١) صيد الخاطر ص (٢٧٩) .

(٢) ترتيب المدارك : (٢٥٠/٣) .

طريقه ويكثر التعب في تحصيله، فإن العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة، حتى قال بعض الفقهاء: بقيت سنين أشتهي أكل الهريسة ولا أقدر؛ لأن وقت بيعها هو وقت سماع الدرس.

وقد أحسن من قال:

لسولا المشقة ساد الناس كلهم

الجبودُ يُفْقِرُ والإقدام قتالُ

وقال أبو محمد الثقفي: سمعت جدي يقول: جالست أبا عبد الله المروزي أربع سنين؛ فلم أسمع طوله تلك المدة يتكلم في غير العلم^(١). قال أبو أحمد نصر بن أحمد السمرقندي: لا ينال هذا العلم إلا من عطل دكانه، وخرّب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته^(٢).

قال ابن جماعة معلقاً على هذا الكلام: وهذا كله، وإن كانت فيه مبالغة، فالمقصود به أنه لا بدّ لطلب العلم من جمع القلب واجتماع الفكر^(٣).

قال الزبير بن بكار: قالت ابنة أختي لأهلنا: خالي خير رجل لأهله، لا يتخذ ضرة ولا يشتري جارية. فقالت المرأة: لهذه الكتب أشدُّ عليّ من ثلاث ضرائر وأصعب^(٤)!

(١) معرفة علوم الحديث ص (٨٢).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي: (١٧٤/٢).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم ص ٧١.

(٤) تاريخ بغداد: (٤٧١/٨).

وقال جعفر بن درستويه: كنّا نأخذ المجلس في مجلس علي بن
المديني، وقت العصر اليوم لمجلس غدٍ، فنقعد في أماكننا طوال الليل،
مخافة ألا نلحق من الغد موضعاً نسمع فيه الحديث، فرأيت شيخاً في
المجلس يبول في طيلسانه، ويُدرج الطيلسان، وذلك مخافة أن يؤخذ
مكانه إن قام ليبول^(١).

وقد أقام أبو طاهر في الإسكندرية من عام ٥١١هـ إلى عام ٥٧٦هـ
لطلب العلم، وكان يقول عن نفسه: لي ستون سنة ما رأيت منارة
الإسكندرية (وكانت من عجائب الدنيا) إلا من الطّاقة.

وجاء شعبة بن الحجاج إلى خالد الحذاء، فقال شعبة لخالد: حديث
بلغني عنك فحدثني، وكان خالدًا آنذاك مريضاً، فقال لشعبة: أنا الآن
مريض ولا أستطيع أن أحدثك به، فقال شعبة: إنّما هو حديث واحد
فحدثني به، فحدثه به خالد الحذاء. فلمّا فرغ من الحديث قال له شعبة:
مت الآن إن شئت.

وحالهم لفقد بعض العلم أو العلماء حال من فقد حبيباً وعزيراً.
فهذا شعبة بن الحجاج يقول: إني لأذكر الحديث يفوتني لم أسمع
فأمرض.

وقد ذكر لشعبة حديث لم يسمعه فجعل يقول: واحزنه واحزنه.
ورحل عبدالرحمن بن أحمد البغياني مع أبيه المحدث المشهور ابن
خلف الشيرازي بشيراز، فلمّا دخلها أحمد ذهب يعدو إلى بيت ابن خلف
ليسمع منه الحديث، فلقيه أحد أصدقائه فقال له: تعال أولاً لتتغدى

(١) الجامع لأخلاق الرواي.

عندي، فلمَّا فرغَا من الطعام قال له صديقه: لقد مات ابن خلف قبل فترة وأنا الذي دفنته. قال عبدالرحمن: فلمَّا سمعت بموته كادت مرارتي أن تنشق.

لقد كان العلم همهم الأول وشغلهم الشاغل، قدموه على أمور الدنيا ومحبوباتها، يجالدون لذلك الأيام، ويصبرون على حرها وقرها.

قال عُبَيْد بن يَعِيش: أقيمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي في الليل؛ لأنني كنت مشغولاً بكتابة الحديث، فكانت أختي تلقمني الطَّعام بيدها^(١).

وقال يحيى بن البناء: كان الحُمَيْدي، من اجتهاده في العلم، ينسخ ويكتب العلم بالليل في شدة الحر، فكان يجلس في طست فيه ماء فيتبرد به ثم يشرع في الكتابة والنسخ^(٢).

إذا كنت تؤذي بحر المصيف

وييس الخريف وبرد الشتاء

ويلهيك حسن زمان الربيع

فأخذك للعلم قل لي متى^(٣)

عن أحمد بن سلمة قال: عُقِدَ للإمام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح مجلسٌ لمذاكرة الحديث، فذُكِرَ له حديث لم يعرفه، فانصرف إلى منزله ودخل غرفته وأوقد السراج وقال لأهله: لا يدخلن أحد منكم عليَّ في هذه الغرفة، فقالوا له: قد أهديت لنا سلة بها تمر، فقال: قدّموها إليَّ، فقبوها إليه وانصرفوا، فجعل يبحث عن ذاك الحديث،

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١٢١٩/٤٠ بتصرف.

(٣) السير: (١٠٦/١٧).

ويأخذ ثمرة تمر يعضغها، فأصبح وقد فني التمر، ووجد الحديث، فكان مرضه من تلك الأكلة ثم مات بسببها^(١).

وقد ذكر الإمام الزرقاني أن يحيى بن يحيى الليثي كان تلميذاً عند إمام دار الهجرة مالك بن أنس في مسجد رسول الله ﷺ، فجاء فيل عظيم بجانب المسجد، فخرج الطلاب لرؤيته ولم يبق إلا يحيى بن يحيى الليثي، فقال له الإمام مالك: لِمَ لم تخرج لترى الفيل وهو لا يكون ببلادك؟ فقال يحيى: جئت من الأندلس لأراك لا لأرى الفيل، إنما رحلت لأتعلم من علمك وهديك، فأعجب به الإمام مالك وقال له: أنت عاقل الأندلس.

وأكثر أهل الدنيا اليوم يشدون الرحال ويفارقون الأوطان لرؤية الفيل والنعام!!

وهذا ابن المكوي القرطبي أحمد بن عبد الملك، وكان قد حُبب إليه الدرس مدة عمره، لا يفتر عنه ليلة ونهاره، وجعلت فيه لذته، حتى أنه في أحد الأعياد جاءه صديق له ليهنئه، فوجد بابه مفتوحاً فدخل الدار وأرسل إليه خادمه ليخرج إليه، فأبطأ عليه ابن المكوي ولم يخرج إليه، فأرسل إليه خادمه مرة أخرى، وبعد قليل خرج إليه ابن المكوي ومعه كتاب يقرأ فيه، ولم يشعر بصديقه الذي ينتظره حتى اصطدم به، لاشتغاله بالقراءة في الكتاب، فانتبه ابن المكوي حينئذ وسلم على صديقه، واعتذر إليه عما حصل بأنه كان مشغولاً ببحث مسألة مهمة، فلم يتركها حتى فتحها الله عليه، فقال له صديقه: أتقرأ في يوم عيد ويوم راحة؟

فقال : والله ما لي راحة ولا لذة إلا في طلب العلم والنظر في الكتب .
 وكان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته ، فقيل له : ألا تستوحش ؟
 فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه ^(١) .

قال شقيق البلخي : قيل لابن المبارك : إذا أنت صليت لم لا تجلس
 معنا؟ قال : أجلس مع الصحابة والتابعين ، أنظر في كتبهم وآثارهم ، فما
 أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس ^(٢) .

وهذا طالب العلم يتحدث عن نفسه ويدفع التهمة بعيداً عن أرضه :
 يقولون لي فيك انقباض وإنما
 رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
 أرى الناس من دناهم هان عندهم
 ومن أكرمه عزة النفس أكرما
 ولم أقضِ حق العلم إن كنت كلما
 بسدا مطمع صيرته لي سلماً
 وأكرم نفسي أن أضاحك عابساً
 وأن أتلقي بالمديح مُذمماً
 ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
 لأخدم من لاقيت لكن لأخدم
 أشقى به غرساً وأجنيه ذلّةً
 إذا فاتباع الجهل كان أحزماً

(١) السير : (٣٨٢/٨) .

(٢) السير : (٣٩٨/٨) .

فإن قلت زندق العلم كاب فإنما
كبا حين لم نحرس حماه وأظلمنا
قال مكحول: ما عبد الله بشيء أفضل من الفقه.

قال الحسن البصري: يوزن مداد العلماء بدم الشهداء، فيرجح مداد
العلماء على دماء الشهداء^(١).

وعن مسعر بن كدام قال: أتيت أبا حنيفة في مسجده فرأيتَه يصليّ
الغداة، ثمّ يجلس يعلم الناس العلم إلى الظهر، ثمّ يصليّ ويجلس للناس
طول نهاره إلى العشاء، فقلت في نفسي: متى يتفرّغ هذا للعبادة،
لأتعاهدّه الليلة، فتعاهدته، فلمّا كان الليل انتصب في المسجد قائمًا إلى
الصّباح فصلّى الفجر ثمّ جلس للناس إلى العشاء الآخرة، ثمّ فعل في
الليلة الآتية كفعله في الماضية، ثمّ تعاهدته ففعل ذلك أيّامًا كثيرة،
فقلت: لألزمته حتّى أموت. فيقال: إنّ مسعرًا مات في مسجد أبي حنيفة
وهو ساجد^(٢).

ولأن طلب العلم عبادة وتعليمه قُربة إلى الله - عزّ وجلّ - فلا بد له من
آداب وأخلاق.

ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية^(٣).
وتأمل ذلك في علماء بعض الأمصار تجد أن لديهم علمًا شرعيًا وافرًا
ولكن لا ترى أثر ذلك عليهم في مظهرهم ومخبرهم. فذاك مسبل ثيابه،

(١) الإحياء: (١٨/١).

(٢) تاريخ بغداد: (٣٥٦/١٣).

(٣) الفوائد ص (١٩٣).

وآخر يجاهر بشرب الدخان، وثالث خالف أمر الرسول ﷺ وحلق لحيته!!
قال ابن المبارك: طلبنا العلم للدُّنيا فدلنا على ترك الدنيا^(١).
وقال الحسن مبيِّنًا أثر العلم على من حمّله: قد كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه، وفي لسانه وبصره وبره^(٢).
عن أبي عصمة بن عصام البيهقي قال: بت ليلة عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء فوضعه، فلمّا أصبح نظر في الماء فإذا هو كما كان فقال: سبحان الله، رجل يطلب العلم لا يكون له ورد بالليل^(٣).
وقال عبدالرحمن بن مهدي: سمعت سفيان يقول: ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قط إلا عملت به ولو مرة^(٤).
لما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه، لما رأى من وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إنّي أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية^(٥).
وقال الإمام أحمد: ما كتبتُ حديثًا إلا وقد عملت به، حتى مرّ بي أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت^(٦).

(١) صفة الصفوة: (١٤٥/٤).

(٢) الزهد لأحمد ص (٢٢٨).

(٣) صفة الصفوة: (٣٣٩/٢).

(٤) السير: (٢٤٢/٧).

(٥) الجواب الكافي ص (٩٨).

(٦) السير: (٢١٣/١١).

عن أبي سلمة الخزازي قال: كان مالك إذا أراد أن يخرج يحدث توضأ وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ومشط لحيته، فقل له في ذلك، فقال: أوقر حديث رسول الله ﷺ^(١).

وعن معن بن عيسى قال: كان مالك إذا أراد أن يجلس للحديث اغتسل، وتبخر، وتطيب، فإن رفع أحد صوته في مجلسه قال: قال - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] فمن رفع صوته عند حديث النبي ﷺ فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ^(٢).

ويجب على طالب العلم الحذر من المعاصي والابتعاد عن المحرمات؛ فإن هذا العلم نور لا يجتمع مع المعصية، بل إنها تنازعه البقاء في القلب.

قال الإمام مالك: إنما يصلح لهذا الحفظ ترك المعاصي.
وقال الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال: أعلم بأن العلم فضل
وفضل الله لا يوتاه عاصي^(٣)
قال وكيع: كنّا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به^(٤).

(١) تهذيب الأسماء واللغات: (٧٦/٢).

(٢) المرجع السابق.

(٣) الجواب الكافي ص ٩٨.

(٤) الباعث الحثيث ص ١٥٨.

قال سعيد بن جبير: ربما أتيت ابن عباس، فكتبتُ في صحيفتي حتى أملاًها، وكتبتُ في نعلي حتى أملاًها، وكتبتُ في كفي، وربما أتيتَه فلم أكتب حديثاً حتى أرجع، لا يسأله أحدٌ عن شيء^(١).

وقال سفيان بن عيينة: من عمل بما يعلم كفي ما لم يعلم^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله، وإنَّما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعصه^(٣).

كتب رجل إلى ابن عمر أن اكتب إليَّ بالعلم كله: فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استعطت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كافَّ اللسان عن أعراضهم، لازماً لأمر جماعتهم، فافعل^(٤).

وكان طلب العلم عندهم طريقاً إلى الآخرة وسلباً إلى الدرجات العلاء. ولذا هجروا ما يبعد عن الله - عزَّ وجلَّ - والدار الآخرة.

قال عيسى يونس: لم يكن في أسناني أبصر بالنجوم مني، فدخلني منه نخوة فتركته^(٥).

ولهذا روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال لميمون بن مهران: إياك والنظر في النجوم؛ فإنها تدعو إلى الكهانة، وإياك والقدر،

(١) السير: (٣٣٥/٤).

(٢) السير: (٤٦٧/٨).

(٣) الإيمان ص ١٩.

(٤) السير: (٢٢٢/٣).

(٥) تذكرة الحفاظ: (٢٨٠/١).

فإنه يدعو إلى الزندقة، وإياك وشتم أحد من أصحاب محمد ﷺ؛ فيكبك الله في النار على وجهك^(١).

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يعلمه للخطيئة يعملها.

وقال وكيع: استعينوا على الحفظ بترك المعصية^(٢).

قال وهيب بن الورد: عجباً للعالم كيف تجيبه دواعي قلبه إلى ارتياح الضحك، وقد علم أن له في القيامة روعات ووقفات وفزعات^(٣).

وقال الإمام الشافعي: من أحب أن يفتح الله له قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه، وترك الذنوب واجتناب المعاصي، ويكون له فيما بينه وبين الله خيبة من عمل، فإنه إذا فعل ذلك فتح الله عليه من العلم ما يشغله عن غيره، وإن في الموت لأكثر الشغل^(٤).

قال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس^(٥).

وقال الإمام مالك للشافعي أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية^(٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: والله - سبحانه - جعل ممّا يعاقب به

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٢) روضة العقلاء ص ٢٩.

(٣) حلية الأولياء: (١٤١/٨).

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي: (١٧١/٢).

(٥) التذكرة ص (١٤٩).

(٦) إعلام الموقعين: (٢٥١/٤).

النَّاسِ عَلَى الذُّنُوبِ سَلْبَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨].

وقال: ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٩) وَنُقِلَبَ أَفْئِدَتُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠].

وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] (١).

عن يزيد بن أبي حبيب - رضي الله عنه - قال: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، وإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة وزيادة في العلم، والمستمع شريك المتكلم في الكلام، إلا من عصم الله، ترمق وتزيد وزيادة ونقصان (٢).

عن أيوب العطار أنه سمع بشراً (ابن الحارث) يقول: حدثنا حماد ابن زيد ثم قال: أستغفر الله، إن لذكر الإسناد في القلب خيلاء (٣).

وقال الإمام سحنون: سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال (٤).

وذكر ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «مدارج السالكين» في منزلة الخشوع: ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه -

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٥٥/١٤).

(٢) الصمت ص ٨٩.

(٣) السير: (٤٧٠/١٠).

(٤) السير: (٦٩/١٢).

من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً: مالي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي

وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أُنِّي عليه في وجهه يقول: والله إنني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

قدس الله روحه. فهو يرسم صوراً عملية من التواضع، وإلا فهو من أئمة السلف ومن عائلة علم ودين نفع الله بها الإسلام والمسلمين، ولا تزال مؤلفات عائلة ابن تيمية في الأمة، تُصدر عنها وترجع إليها؛ فما فيها من علم والتزام بمنهج السلف الصالح القائم على الكتاب والسنة.

روي عن بشر بن الحارث أنه قيل له: ألا تُحدث؟ قال: أنا أشتهي أن أحدث، وإذا أشتهيت شيئاً تركته^(١).

وعن أبي داود السجستاني قال: لم يكن أحمد بن حنبل يخوض في شيء يخوض فيه الناس من أمور الدنيا، فإذا ذكر العلم تكلم.

ولمّا عزم الإمام مالك على تصنيف «الموطأ» قيل له: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد عمل العلماء الموطآت؟! فقال: ما كان الله بقي.

أيها الحبيب:

من علامات السعادة والفلاح: أنَّ العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد

(١) السير: (١٠/٤٧٠).

في عمره نقص من حرصه، وكلّما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله، وكلّما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من النَّاس وقضاء حوائجهم والتّواضع لهم.

وعلامات الشَّقَاوَة: أنّه كلّما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه، وكلّما زيد في علمه زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلّما زيد في عمره زيد في حرصه، وكلّما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه، وكلّما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره وتيهه. وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام^(١).

قال ابن الجوزي مفصلاً الأمر: ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزّاً ولا شرفاً ولا راحة ولا سلامة أفضل من العزلة؛ فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله - عزّ وجلّ - وعند الخلق؛ لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم، ولا يعظم عندهم قدر المخالطة لهم، ولهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجابهم.

وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخصاً في أمر مباح هان عندهم. فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم.

فقد قال بعض السلف: كنّا نمزح ونضحك، فإذا صرنا يُقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك.

وقال سفيان الثوري: تعلّموا هذا العلم واكظموا عليه، ولا تخلطوه يهزل فتتمجّج القلوب.

فمراعاة الناس لا ينبغي أن تنكر.

وقد قال ﷺ لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لهدمت الكعبة، وجعلت لها بابين»^(١).

وقال أحمد بن حنبل في الركعتين قبل المغرب: رأيت الناس يكرهونهما فتركتهما.

ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء، إنما هذه صيانة للعلم. وبيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو في يده كسرة يأكلها قلّ عندهم وإن كان مباحًا، فيصير بمثابة تخليط الطيب الأمر بالحمية.

فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوام حفظًا لهم، ومتى أراد مباحًا فليستتر به عنهم.

وهذا القدر الذي لاحظته أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد قدّم الشّام راكبًا على حمار ورجلاه من جانب، فقال: يا أمير المؤمنين! يتلقاك عظماء النّاس. فما أحسن ما لاحظ!

إلا أن عمر - رضي الله عنه - أراد تأديب أبي عبيدة بحفظ الأصل فقال: إن الله أعزكم بالإسلام، فمهما طلبتم العز في غيره أذلّكم.

والمعنى: ينبغي أن يكون طلبكم العز بالدين لا بصور الأفعال، وإن كانت الصور تلاحظ؛ فإن الإنسان يخلو في بيته عريان، فإذا خرج إلى الناس لبس ثوبين وعمامة ورداء، ومثل هذا لا يكون تصنُّعًا ولا ينسب إلى كبر.

وقد كان مالك بن أنس يغتسل ويتطيب ويقعد للحديث. ولا تلتفت يا هذا إلى ما ترى من بذل العلماء على أبواب السلاطين،

(١) رواه الترمذي، وقال الإمام الألباني عنه صحيح.

فإن العزلة أصون للعالم والعلم، وما يخسره العلماء في ذلك أضعاف ما يربحونه .

وقد كان سيد الفقهاء سعيد بن المسيب لا يغشى الولاية وعن قول هذا سكتوا عنه، وهذا فعل الحازم .

فإن أردت اللذة والراحة فعليك أيها العالم بقعر بيتك، وكن متعزلاً عن أهلِكَ يطب لك عيشك، واجعل للقاء الأهل وقتاً، فإذا عرفوه تصنعوا للقاءك، فكانت المعاشرة بذلك أجود .

وليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلبات فكرك . واحترس من لقاء الخلق وخصوصاً العوام .

واجتهد في كسبِ يعقُك عن الطمع، فهذه نهاية لذة العالم في الدنيا .
وقد قيل لابن المبارك: ما لك لا تُجالسنا؟ فقال: أنا أذهب فأجالس الصَّحابة والتَّابعين، وأشار بذلك إلى أنَّه ينظر في كتبه .

ومتى رزق العالم الغنى عن الناس والخلوة، فإن كان له فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذته، وإن رزق فهمًا يرتقي إلى معاملة الحق ومناجاته فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات .

نسأل الله - عزَّ وجلَّ - همّة عالية تسمو إلى الكمال، وتوفيقاً لصالح الأعمال، فالسَّالكون طريق الحقِّ أفراد^(١) .

قال ابن مسعود: لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم

(١) صيد الخاطر ص ٣١٢ .

وفعلكم ما عند الله ؛ فإنه يبقى ويدوب ما سواه^(١) .
أيها المسلم:

لقد كان همُّهم من هذا العلم إيصال الحق ونشره ، فلا حظوظ للنفس ،
 ولا مباهاة بالعلم ، ولا جدالاً ومراء ، ولا استعلاءً وزهواً .
 قال الشافعي : ما نظرت أحداً فأحببت أن يخطيء^(٢) .

كان مالك يقول : المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم من قلب
 الرجل^(٣) .

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : المراء في الدين يُقْسِي القلب ،
 ويُورث الضغائن .

وقال الشافعي : وددت أن الناس تعلموا هذا العلم - يعني كتبه - على
 أن لا ينسب إليّ منه شيء^(٤) .

وهذه الصفات الحميدة والأخلاق السامية تزينها وتجملها صفات
 عملية في مجالسهم ، فهي وإن كانت طاعة لله - عز وجل - أولاً فإنها تربية
 عملية لتلاميذهم وطلابهم .

قال مسلم بن جنادة : جالست وكيعاً (ابن الجراح) سبع سنين فما رأيته
 بزق ولا مس حصاة ، ولا جلس مجلسه فتحرك ، ولا رأيته إلا مستقبلاً
 القبلة ، وما رأيته يحلف بالله^(٥) .

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٨ .

(٢) صفة الصفوة : (٢٥١/٢) .

(٣) جامع العلوم والحكم ص ١١٣ .

(٤) السير : (٢٩/١٠) .

(٥) تذكرة الحفاظ : (٣٠٧/١) .

وقال الحسن : اطلبوا العلم ، وزينوه بالوقار والحلم^(١) .
وقد روي عن أبي حنيفة أنه قال : ضحكت مرة وأنا من التّادمين على ذلك ، وذلك أنّي ناظرت عمرو بن عبيد القدري ، فلما أحسست بالظفر ضحكت ، فقال لي : تتكلم في العلم وتضحك ، فلا أكلمك أبداً . وأنا من التّادمين على ذلك ، إذ لو لم يكن ضحكي لرددته إلى قلبي ، فكان في ذلك صلاح العلم^(٢) .

وإذا كان الله - عزّ وجلّ - بمنه وتوفيقه قد جمع للعالم علماً وخُلُقاً ، فهل يليق به أن يتنكر لذلك ويترك الناس على جهلهم وقلة علمهم ، أم أنّه من ورثة الأنبياء الذين يبلغون الرسالة ويؤدون الأمانة؟! قال ربيع بن أبي عبد الرحمن : لا ينبغي لأحدٍ عنده شيءٌ من العلم أن يُضَيِّع نفسه^(٣) .

أخي الحبيب:

كم لدينا ممن معهم من العلم ما يكفي لإلقاء الدروس والمواعظ؟ بل كم لدينا ممن يحسنون قراءة الفاتحة وقصار السور ونرى حولهم من كبار السن من يجهلون أم الكتاب؟! ولكن أين هم؟! وهل يُعذرون أمام الله - عزّ وجلّ -؟! -

قال أبو بكر بن عياش : الدخول في العلم سهل ، ولكن الخروج منه إلى الله شديد^(٤) .

(١) الإحياء : (١٨٩/٣) .

(٢) تنبيه الغافلين : (١٥/١) .

(٣) رواه البخاري في ترجمة باب : (١٦٢/١) .

(٤) السير : (٣٠٥/٨) .

وعندما سُئل يحيى بن معين: أيفتي الرَّجُل إذا كان حافظًا لمائة ألف حديث؟ قال: لا.

قلت: ومن مائتي ألف حديث؟ قال: لا.

قلت: ثلاثمائة ألف؟ قال: لا.

قلت: خمسمائة ألف حديث؟ قال: أرجو.

أي إذا كان خمسمائة ألف حديث يفقهها ويعرف أحكامها فهذا هو العالم حقًا الذي ينبغي أن يُعتدَّ بقوله ويعمل بفتواه.

وروى ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد عن عبدالرحمن البغوي قال: مرَّ عليَّ أحمد بن حنبل جائيًا من الكوفة ومعه كيس فيه كتب فقلت له: إلى متى وأنت تطلب العلم؟ إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث ألا يكفيه ذلك؟ فسكت عني، فقلت: ستين ألف؟ فسكت عني، فقلت: مائة ألف حديث؟ فقال أحمد: إذا كتب مائة ألف حديث فحينئذ يكون قد عرف شيئًا من العلم.

هذه هي بعض صفات العلماء فقل لي بربك: كم شخصًا في هذا الزمان يستحق أن يلقب بالعالم؟ وإذا أردت أن تعرف من هم العلماء؟ فاستمع إلى الشعبي - رحمه الله - وهو يقول: ما كتبتُ سوداء في بيضاء قط إلا حفظته، وما سمعتُ من رجل حديثًا فأردت أن يعيده عليّ، وإني الآن لكأنني أنظر إلى أكثر من سبعين ألف حديث في كتابي^(١).

هؤلاء حقًا هم العلماء وهم الحفاظ! ثم تأمل قلة عدد العلماء من بين

سائر أفراد الأمة ثم هؤلاء العلماء، ما أقل العاملين فيهم بعلمهم الذين يُرى عليهم!

استمع إلى مكانة أهل العلم في قلوب الناس يحدثك عنها الإمام أبو هلال العسكري فيقول: إذا كنت أخي ترغب في سمو القدر ونباهة الذكر، وارتفاع المنزلة بين الخلق، وتلتمس عزًا لا تثلمه الأيام والليالي، وإذا كنت تلتمس هيبةً من غير سلطان، وغنى من غير مال، ومنعة بغير سلاح، وعلاءً من غير عشيرة، وأعوانًا بغير أجر، وجندًا بلا ديوان وفرض «أي راتب» فعليك بالعلم، فاطلبه في مظانّه تأتيك المنافع عفواً، وتلقَ ما يعتمد منها صفواً، واجتهد في تحصيله ليالي قلائل، ثم تذوق حلاوة الكرامة مدة عمرك.

واستمع إلى هذه القصّة العجيبة التي تروى عن الوزير نظام الملك، فقد كان يملّي الحديث على النَّاس في الرَّيِّ مع كونه وزيراً، فلَمَّا فرغ قال: إنِّي أعلم أنَّي لست أهلاً لما أقوم به من إملاء حديث رسول الله ﷺ، لكنِّي أريد أن أربط نفسي على قِطْعة نقل حديث رسول الله ﷺ.

ولقد بلغ من إجلال النَّاس لأهل العلم، أن أولاد الخليفة كانوا يقدمون للعالم حذاءه إذا أراد الانصراف؛ فقد كان الفراء يُعَلَّم ويؤدَّب ولدي الخليفة المأمون، فلَمَّا كان ذات يوم قام الفراء لينصرف، فاستبق ولدا الخليفة إلى نعليه، كل منهما يريد أن يقدِّمها له، فتنازعا أيهما يقدمها له، ثمَّ اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهم فردة، فقدماهما. ووصل الخبر إلى الخليفة المأمون، فاستعدى الفراء، فلَمَّا دخل عليه قال له المأمون: من أعز النَّاس؟ فقال: ما أعرف أحداً أعزَّ من أمير المؤمنين، فقال المأمون: بلى، من إذا نهض تقاتل وليا عهد المسلمين على تقديم

نعليه إليه، حتّى رضي كل منهما أن يقدم فردة، فقال الفرّاء: لقد أردت منعهما من ذلك، فقال المأمون: لو منعتهما لغضبتُ عليك، ولقد زاد ما فعلاه من شرفهما عندي^(١).

وهذا أسد بن الفرات - رحمه الله - أحد القادة الفاتحين رحل وهو في الثامنة عشرة من عمره إلى المدينة، وسمع كتاب الموطأ على الإمام مالك، ثمّ رحل إلى العراق ودرس عند محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، ثمّ رحل إلى مصر، ثمّ رجع إلى بلدة القيروان وتولّى منصب القضاء، وفي عام ٢١٢هـ ولاه الأمير قيادة الجيش الإسلامي المتوجه لغزو صقلية، فلمّا خرج الجيش خرج النَّاس يودعونه في موكب عظيم، فلمّا رأى أسد بن الفرات النَّاس أمامه وخلفه يودعونه خطبهم فحمد الله ثمّ قال: يا معشر النَّاس! لا إله إلا الله وحده لا شريك له والله ما ولي لي أبٌ ولا جد ولاية قطُّ، ولا أحد من سلفي رأى هذا قط (يعني الاحترام والتكريم) وما رأيت ما ترون إلا بالأفلام، فأجهّدوا أنفسكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، واصبروا على شدته؛ فإنكم تنالون به خير الدنيا والآخرة.

واستمع إلى الإمام ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «مفتاح دار السعادة» وهو يحدثك عن سلطان العلم وهيبته وعزته في النفوس والقلوب فيقول: سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد النَّاس للحجّة ما لا ينقادون لليد، فإنَّ الحجّة تنقاد لها القلوب، وأمّا اليد فإنّما ينقاد لها البدن، فالحجّة تأسر القلب وتقوده، بل سلطان الجاه إذا لم يكن

(١) تاريخ بغداد: (١٤/١٥).

معه علم يُسّاس به فهو بمنزلة سلطان السّباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة .
وسلطان العلم نراه واقعاً ملموساً في حياتنا لا يحتاج إلى بسط وإيضاح، فمن يذهب للعلماء للسلام عليهم أكثر بكثير ممّن يذهب إلى الوزراء والحكّام وغيرهم من أهل الدّنيا!!

قال سالم بن أبي الجسد: اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني فقلت: بأي شيء أحترف؟ فاحترفت العلم، فماتمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً فلم آذن له^(١).

وقال حمّاد بن سليمان: دخلتُ على حمّاد بن سلمة، فإذا ليس في البيت إلا حصير، وهو جالس وفي يده مصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه، ومطهرة يتوضأ منها، فبينما أنا جالس إذ دق الباب، فقال حماد: يا حبيبة! اخرجي فانظري من هذا؟ فقالت: رسول محمد بن سليمان إلى حمّاد بن سلمة، فأذن له فدخل، فقال بعد أن سلّم: أما بعد، فصبّحك الله بما صبّح به أوليائه وأهل طاعته، وقعت مسألة، فائتتنا نسألك عنها والسلام.

فقال: يا حبيبة! هلمّ الدواة، ثمّ قال لي: اقلب كتابه واكتب: أما بعد، فأنت صبّحك الله بما صبّح به أوليائه وأهل طاعته، إنّنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً، فإن وقعت لك مسألة فائتتنا وسلّ ما بدا لك، فإن أتيتني فلا تأتني بخيلك ورجالك، فلا أنصح لك ولا أنصح إلا نفسي، والسلام.

فبينما أنا جالس إذ دق الباب، فقال: يا حبيبة! اخرجي فانظري من هذا؟ قالت: محمد بن سليمان. قال: قللي له يدخل وحده، فدخل وجلس بين يديه ثم ابتدأ فقال: ما لي إذا نظرت إليك امتلأت منك رعباً؟.

فقال: ما تقول - رحمك الله - في رجل له ابنان وهو عن أحدهما أرضى، فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله؟

فقال حماد: لا يفعل - رحمك الله -، فإنني سمعت أنسًا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله أن يعذب عبداً من عباده في حياته وفقه إلى وصية جائرة» فعرض عليه مالا فلم يقبل وخرج.

وقال ابن جريج: كان المسجد فراش عطاء بن أبي رباح عشرين سنة!

وقال إسماعيل بن أمية: كان عطاء يطيل الصمت، فإذا تكلم خيل إلينا أنه مؤيد. وكان أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمى! ففي جسمه ستة عيوب، ولكنه كان ركنًا من أركان العلم والدين والصلاح والقدوة، وكان ثقة فقيهاً، حجج نيقاً على سبعين حجة^(١).

قال الزبير بن أبي بكر: كتب إليّ أبي وهو بالعراق يقول لي: عليك بالعلم؛ فإنه إن افتقرت كان لك مالا، وإن استغنيت كان لك جمالاً.

وقد جمع معاذ بن جبل - رضي الله عنه - فضائل العلم فقال: تعلّموا العلم، فإنّ تعلّمه حسنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه

جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، ألا إنَّ العلم سبيل منازل أهل الجنة، وهو المؤنس في الوحشة، والصَّاحِب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدَّليل على السَّراء، والمعين على الضَّراء، والزَّين عند الأخلاء، والسَّلام على الأعداء، يرفع الله له أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة أئمة، تقتفي آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وترغب الملائكة في خلَّتهم، وبأجنحتها تمسهم، ويصلي عليهم كل رطب ويابس وحيثان البحر وهوام الأرض وسباع البر والبحر والأنعام، لأنَّ العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوَّة الأبدان من الضَّعف، ويبلغ بالعبد منازل الأخيار والأبرار والدَّرجات العلا في الدُّنيا والآخرة، والتَّفكر فيه يعدل بالصَّيام، ومذاكرته تعدل بالقيام، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام والعمل تابعه، ويلهمه السَّعادة، ويحرمه الأشقياء^(١).

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك^(٢).

وكان سليمان بن حرب: أحد شيوخ الإمام البخاري، قد وضع له منبر خاص في بغداد على مقربة من قصر الخلافة، في مكان مرتفع، لكي يجلس عليه، ويملي الأحاديث، وكان أمير المؤمنين مأمون الرشيد وجميع أفراد الخلافة يحضرون مجلسه، وكل كلمة كانت تخرج من فم

(١) تنبيه الغافلين: (٢/٤٦٦).

(٢) الإحياء: (١٨/١).

سليمان بن حرب يكتبها أمير المؤمنين بيده، وقد عُدَّ الحاضرون فكان أربعين ألف نسمة^(١).

أما أهمية العلم والعلماء وحاجة الناس إليهما فهو كما ذكره الإمام أحمد بن حنبل: النَّاسُ يحتاجون إلى العلم مثل الخبز والماء؛ لأنَّ العلم يحتاج إليه في كل ساعة، والخبز والماء في كلِّ يوم مرَّةً أو مرتين^(٢).

ولذلك قال ابن القيم في مدح الفقهاء والعلماء: فقهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خُصوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال من الحرام، فهم في الأرض بمنزلة الثُّجُوم في السماء، بهم يُهتدى في الظلماء، حاجة النَّاس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في إحدى الروايتين عنه، وجابر بن عبد الله، والحسن البصري وأبو العالية، وعطاء والضَّحَّاك، ومجاهد في إحدى الروايتين عنه: أولو الأمر هم العلماء.

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه -: هم الأمراء. وهي الرواية الأخرى عن ابن عباس.

والتحقيق. أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء^(٣).

(١) تذكرة الحفاظ: (١/٣٩٣).

(٢) شذرات الذهب: (٢/١٧٦).

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم: (٩/١).

إذا كانت هذه منزلتهم وهذه مكانتهم فإن الأمر في طاعتهم ومحبتهم كما قال علي - رضي الله عنه - : ومحبة العالم دين يدان بها .

وكثير من جهلة الناس اليوم يشنون أبناءهم عن دراسة العلوم الشرعية وأنها لا فائدة منها، وماعلموا أنها أساس الفلاح والصلاح!! ولو رأوا حال أصحاب العلوم الأخرى لما فعلوا. فهذا الوزير، وذاك القائد، كأن على رؤسهم الطير إذا دخل في المجلس عالم. فالناس تتجه له وتسأله وتنسى الوزير والكبير. أليس كذلك!!؟

قال سهل التستري: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم سكارى إلا العاملون بالعلم، والعاملون مغرورون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر.

قال الإمام الآجري: فما ظنكم - رحمكم الله - بطريق فيه آفات كثيرة، ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء، فإن لم يكن فيه ضياء وإلا تحيروا، فقيض الله لهم فيه مصابيح تضيء لهم، فسلكوه على السلام والعافية، ثم جاءت طبقات من الناس، لا بد لهم من السلوك فيه فسلكوا، فبينما هم كذلك إذ طفئت المصابيح فبقوا في الظلمة، فما ظنكم بهم؟ هكذا العلماء في الناس، لا يعلم كثير من الناس كيف أداء الفرائض ولا كيف اجتناب المحارم، ولا كيف يُعبد الله في جميع ما يعبد به خلقه إلا ببقاء العلماء فإذا مات العلماء تحير الناس، ودرس العلم بموتهم، وظهر الجهل^(١).

واستمع إلى أبي الوفاء بن عقيل وهو يصف ما لأهل العلم عند الله

(١) أخلاق العلماء ص ٩٦ .

- تعالى - فيقول: حاشا المبدىء الخالق لهم على تلك الأشكال والعلوم، أن يرضى لهم بتلك الأيام اليسيرة، لا والله لا رضي لهم إلا بضيافة تجمعهم على مائدة تليق بكرمه سبحانه، نعيم بلا ثبور، وبقاء بلا موت، واجتماع بلا فرقة، ولذات بغير نغصة.

بل لقد بلغ من شرف العلم عند الناس أن ملوك الأرض وسلاطينها كانوا يتمنون أن يكونوا من أهل العلم، فمن ذلك ما رواه ابن عساكر عن محمد بن سلام الجمحي قال: قيل للخليفة المنصور: هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تحصله؟ فقال: بقيت خصلة أن أقعد على سرير المدرس وحولي طلاب الحديث فيقول المستملي: حدثنا، فأقول: حدثنا فلان عن فلان.. عن رسول الله ﷺ، قال محمد بن سلام: فلما كان الصباح غدا الوزراء وأبناءؤهم، ومعهم المحابر والدفاتر، ودخلوا على المنصور ليكتبوا عنه الحديث ويحققوا له ما تمناه، فلما رأهم المنصور قال: لستم بأصحاب الحديث الذين أريدكم إنما هم الدنسة ثيابهم، المشقة أرجلهم، الرحالون في البلدان^(١).

قال الأعمش: إذا رأيت الشيخ لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث فاصفع له (أي الطمه)، فإنه من شيوخ القمراء، قيل: وما شيوخ القمراء؟ قال أبو جعفر: هم شيوخ دهريون، يجتمعون في ليالي القمر، يتذكرون أيام الناس ولا يُحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة^(٢).

وقال مبيّنًا قدر نفسه وقدر العلم الذي يحمله والذي رفع قدره وأنزله

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٧٧.

(٢) مفتاح دار السعادة ج ٢.

منزلة عالية : لولا القرآن وهذا العلم عندي لكنت من بقالي الكوفة^(١).
 قال المزني : كان الشافعي - رحمه الله - إذا رأى شيخاً (أي كبير السن) سألته عن الحديث والفقه، فإن كان عنده شيء من العلم سكت عنه وإلا قال له : لا جزاك الله خيراً عن نفسك ولا عن الإسلام، قد ضيعت نفسك وضيعت الإسلام^(٢).

والعلماء لهم سهام من حديث الرسول ﷺ؛ يجري لهم الخير حتى بعد موتهم لما نشره من العلم وما بينوه للناس.
 قال رسول الله ﷺ : «إذا مات الإنسان (وفي رواية ابن آدم) انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [رواه مسلم].

قال كميل النخعي : خرجت مع علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى الجبانة (أي الخلاء) فقال لي : يا كميل ! الناس ثلاثة : عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وسائر الناس همج رعاع؛ أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح. العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

وكان الإمام البخاري كلما حل مدينة أو نزل أرضاً كان المسلمون يزدحمون حوله حيث يفوق الوصف والبيان.

وكان الناس بعد ما سمعوا تلك الأوصاف الخارقة التي وهبها الله لهذا الإمام الجليل؛ من فقه عديم النظير، وذاكرة خارقة، وتبحر في العلم،

(١) السير : (٢٢٩/٦).

(٢) مفتاح دار السعادة ج ٢.

كانوا يتمنون رؤيته . فإذا نزل مكانًا تجمعوا حوله بحيث لا يكاد يوجد موضع قدم من شدة الزحام وكثرة الناس .

ولمَّا رجع إلى بخارى عائدًا من رحلته الدراسية نصبت له القباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد، حتى لم يبق مذكور إلا ونشر عليه الدراهم والدنانير .

وجرى معه مثل هذا في نيسابور .

قال الإمام مسلم : لما قدم محمد بن إسماعيل (البخاري) نيسابور ما رأيت واليًا ولا عالمًا فعل به أهل نيسابور ما فعلوا به ، استقبلوه من مرحلتين من البلد أو ثلاث^(١) .

وكان الإمام عاصم بن علي يجلس على سطح في رحبة النخل خارج بغداد ، وكان مستمليه هارون يركب نخلة معوجة ، وذات مرة أرسل الخليفة المعتصم بالله من يحرز له عدد الحاضرين في مجلسه ، فكان عددهم عشرين ومائة ألف^(٢) .

وكانت طريقة إيصال العلم عن طريق الشيخ بوجود من يبلغ ما قال حتى ينقطع الصوت ، ويقوم بهذا العمل عدد من المستمليين .

ولما قدم أبو مسلم الكجي بغداد أُملي في رحبة غسان ، فكان في مجلسه سبعة مستمليين يبلغ كل واحد منهم الآخر ، ويكتب الناس عنه قيامًا ، ثم مسحت الرحبة ، وحسب من حضر بمجبرة ، فبلغ ذلك نيفًا وأربعين ألف خبرة سوى النظارة .

(١) مقدمة الفتح ص ٤٩٣ .

(٢) تذكرة الحفاظ : (١/ ٣٩٧) .

وأما الذين كانوا يسمعون فقط ولا يكتبون، كانوا خارجين من عدادهم^(١).

قال الفريبي: إن تسعين ألف رجل أخذ من البخاري صحيحه في حياته واستجازوه روايته.

نعم تسعون ألفاً أخذوا إجازة في الحديث من الإمام البخاري - رحمه الله - واليوم كم لدينا من قرأ صحيح البخاري نظراً... بل جزءاً منه؟! قال يحيى بن جعفر: إن مجلس علي بن عاصم كان يحضره ثلاثون ألف نسمة^(٢).

ولما جاء يزيد بن هارون ودرّس في بغداد قُدِّر عدد الحاضرين بسبعين ألف نسمة.

وعندما عقد الفريابي أحد شيوخ الإمام البخاري مجلس إملائه في بغداد كان عدد المستمطين ثلاثمائة وستة عشر الذين كانوا يبلغون لفظ الشيخ للناس، وقدر عدد الحاضرين بثلاثين ألفاً^(٣).

قال الله - تعالى -: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهل يستوي العالم والجاهل.

وكل ضرر يصيب العبد في دنياه أو أخره سببه الجهل، ولذا أخبر الله - تعالى - أن الجهال هم شر الدواب فقال - تعالى -: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

(١) تذكرة الحفاظ: (٢/ ٦٢١).

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ٣١٧).

(٣) تاريخ بغداد: (٧/ ٣٠٢).

بل جعل الله الجاهل بمنزلة العميان الذين لا يُبصرون فقال - تعالى -: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ [الرعد: ١٩] فالجاهل أصل الأخلاق الرديئة من الكبر والفخر والظلم والفساد في الأرض.

وقد توعد الله - عز وجل - من أعرض عن العلم الواجب عليه وعن تعليمه بوعيد شديد فقال - تعالى -: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

قال ابن القيم - رحمه الله - والمعنى أن من نسي ربه أنساه الله ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحة، بل نسي مابه صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده، فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه. ونسيان الإنسان لربه بمعنى إعراضه عن دينه وتركه لتعلم شرعه وأوامره.

واستمع إلى الإمام ابن القيم وهو يبين لك حال الجاهل فيقول: العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، الإنسان إنما يتميز عن غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلاً منه وأقوى بطشاً، وإنما مُيز على الحيوانات بعلمه، فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم. والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيراً منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل.

ورحم الله من قال:

فليجتهد رجل في العلم يطلبه كيلا يكون شبيه الشاء والبقر

قال عمر بن الخطاب: إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فإذا سمع العالم خاف، واسترجع عن ذنوبه، وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب. فلا تفارقوا مجالس العلماء؛ فإن الله - عز وجل - لم يخلف على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء^(١).

قال الإمام أحمد: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب مرة أو مرتين، أما حاجته للعلم فهي بعدد أنفاسه^(٢).

قال الحسن - رحمه الله -: لولا العلماء لصار الناس كالبهائم^(٣).

يا طلاب العلم:

كونوا يتابع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سُرُج الليل، جدد القلوب، خلجان الثياب، تُعرفون في السماء وتخفون على أهل الأرض.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: يا أباي! أي رجل كان الشافعي فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ فقال لي: يا بني! كان الشافعي كالشمس للدنيا، والعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلفٍ أو منهما عوض؟^(٤).

وقال كعب الأحبار: لو أنَّ ثواب مجالس العلماء بدا للناس لاقتتلوا عليه حتَّى يترك كل ذي إمارة إمارته وكل ذي سوق سوقه^(٥).

(١) الإحياء: (٤١٣/١).

(٢) تهذيب مدارج السالكين.

(٣) الفوائد ص ١٩٣.

(٤) تهذيب الكمال: (٣٧١/٢٤).

(٥) الإحياء: (٤١٣/١).

وقال سفيان الثوري: العالم طيب الدين، والدّرهم داء الدين، فإذا اجتَرَّ الطبيب الداء إلى نفسه، فمتى يداوي غيره؟^(١).
ونحن نسير في رحاب العلماء، وهم ملء السمع والبصر ماضيًا وحاضرًا، نسترشد بقول الإمام أبي حنيفة - رحمه الله -: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم^(٢).
وقد حدّد ووضع العلماء منهج الطلب وسير المُجدِّ فقال سفيان الثوري: أوّل العبادة الصّمت، ثمّ طلب العلم، ثمّ العمل به، ثمّ حفظه، ثمّ نشره^(٣).

ثم بعد كل هذا انظر وتأمل واعتبر في قول أحدهم.
قال أبو عمرو بن العلاء: ما نحنُ فيمن مضى إلا كبقل في أصول نخل طوال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن له في الأُمَّة لسانُ صدق عام بحيث يثنى عليه ويُحمد في جماهير أجناس الأُمَّة فهؤلاء أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وغلظهم قليلٌ بالنسبة إلى صوابهم، وعامته من موارد الاجتهاد التي يُعذرون فيها، وهم الذين يتبعون العلم والعدل فهم بُعداء عن الجهل والظلم، وعن اتباع الظن وما تهوى الأنفس^(٤).

(١) روضة العقلاء ص ٤٣.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص ٥٠.

(٣) روضة العقلاء ص ٤٣.

(٤) مجموع الفتاوى: (٤٣/١١).

توقير العلماء واحترامهم

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : كُنَّا جُلُوسًا فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ إِلَيْنَا فَكَأَنَّ عَلَى رُؤُسِنَا الطَّيْرَ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ مِنَّا ^(١).

وهذا عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - مع جلالته ومنزلته، كان يأخذ بركاب دابة زيد بن ثابت الأنصاري ويقول : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ^(٢).

وكان كثير من السلف يقول : ماصليت إلا ودعيت لوالدي ولمشاخي جميعاً ^(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وإذا كان الرجل قد علمه أستاذ؛ عرف قدر إحسانه إليه وشكره ^(٤).

فلا يجتمع التعلم مع الكبر، ولا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع، قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ^(٢٧) [ق : ٣٧].

قال الغزالي : ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلاً للعلم، والفهم، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب؛

(١) رواه البخاري.

(٢) أخرجه الحاكم.

(٣) السير : (٨٢/١٠).

(٤) مجموع الفتاوى : (١٧/٢٨).

ليستقبل كل ما ألقى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة. وليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة - أي لينة سهلة - نالت مطراً غزيراً فتشربت جميع أجزائها وأذعنت لقبوله، ومهما أشار إليه المعلم بطريق في التَّعلم فليتبَّعه، وليترك رأيه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها. فكم من مريض محروور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لا خبرة له به^(١).

وهذا الإمام مالك - رحمه الله - قال لفتى من قريش: يا ابن أخي! تعلَّم الأدب قبل أن تتعلَّم العلم^(٢).

وهذا الليث بن سعد لما أشرف على أصحاب الحديث فرأى منهم شيئاً فقال: ما هذا؟ أنتم إلى يسيرٍ من الأدب أحوجُّ منكم إلى كثيرٍ من العلم^(٣).

وقد قال الإمام الشافعي: لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلَّ النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح^(٤).

اصبر على مُرِّ الجفأ من معلِّم
فإنَّ رسوبَ العلم في نفراته
ومن لم يذُق مُرَّ التَّعلم ساعةً
تجرَّع ذلَّ الجهل طول حياته

(١) الإحياء: (٥٠/١).

(٢) حلية الأولياء: (٣٣٠/٦).

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ١٧٠.

(٤) مجموع الفتاوى: (٣٥/١).

ومن فاته التعليم وقت شبابه

فكَبَّرَ عليه أربعًا لوفاته^(١)

قال الربيع بن سليمان صاحب الشافعي وتلميذه المشهور: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبة له.

قال أحمد بن حنبل: لزمته هشيماً (ابن بشير) أربع سنين ما سألته عن شيء إلا مرتين هيبة له^(٢).

ولذا ينبغي للمستفتي أن يحفظ الأدب مع المفتي، ويبجله في خطابه وسؤاله، ونحو ذلك، ولا يومئ بيده في وجهه، ولا يقول له: ما تحفظ في كذا وكذا؟ وما مذهب إمامك الشافعي في كذا وكذا؟ ولا يقل إذا أجابه: هكذا قلت أنا أو كذا وقع لي، ولا يقل له: أفتاني فلان، أو أفتاني غيرك بكذا وكذا، ولا يقل إذا استفتي في رقعة: إن كان جوابك موافقاً لما أجاب فيها فكتبه، وإلا فلا تكتب^(٣).

وما ذاك إلا لمعرفة قدرهم وجمع شملهم، والاستفادة من علمهم بحسن الأدب والتلطف في السؤال.

بل لقد كان الشافعي يقول: إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث كأني رأيت رسول الله ﷺ^(٤).

العلم ميراث النبي كما أتى

في النص والعلماء هم ورثته

(١) ديوان الإمام الشافعي ص ٢٩.

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/٢٤٩).

(٣) أدب المفتي والمستفتي ص ١٦٨.

(٤) شرف أصحاب الحديث.

ما خلف المختار غير حديثه فينا
فذاك متاعه وأثائه

والهدى الصالح قيس ونور من مشكاة النبوة، فقد روى عبد الله بن عباس أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الْهَدَى الصَّالِحَ وَالسَّمَتَ الصَّالِحَ وَالِاِقْتِصَادَ جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة»^(١).

قال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأنَّ آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة^(٢).

وعندما مرَّ أعرابيٌّ وابن مسعود يُعلِّم ويُحدِّث طلابه وهم حوله مجتمعون قال الأعرابي: عَلَامَ اجتمع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود: على ميراث محمد ﷺ يقتسمونه بينهم^(٣).

وقال أبو داود الطيالسي: لولا هذه العصابة (أي الفئة والجماعة) وهم أهل العلم) لاندرس الإسلام.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: وينبغي للمتعلِّم أن يُحسن الأدب مع مُعلِّمه، ويحمد الله إذ يسر له من يعلمه من جهله، ويحييه من موته، ويوقظه من سباته، ويتنهَّز الفرصة كل وقت في الأخذ عنه، ويكثر من الدعاء له حاضرًا وغائبًا؛ فإن النبي ﷺ قال: «من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتَّى تروا أنكم كافأتموه». وأيُّ معروف أعظم من معروف العلم والنصح والإرشاد؟!

(١) رواه أحمد.

(٢) الإحياء: (١/٢٢).

(٣) شرف أصحاب الحديث.

فكلُّ مسألة استفيدت عن الإنسان فما فوقها حصل بها نفعٌ لمتعلمها وغيره فإنه معروفٌ وحسناتٌ تجري لصاحبها، وقد أخبرني صاحبٌ لي كان قد أفتى في مسألة في الفرائض، وكان شيخه قد توفي، أنه رآه في المنام يقرأ في قبره، فقال: المسألة الفلانية التي أفتيت فيها وصلني أجرها^(١).

وهذا أمر معروف في الشرع: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فله أجرها وأجرُ من عمل بها إلى يوم القيامة».

أخِي المسلم:

طلب العلم متيسر وقريب المنال. ومن تلك السبل:

- ١ - الالتحاق بالكلليات الشرعية.
 - ٢ - حضور الدورات الشرعية التي تعقد بين حين وآخر.
 - ٣ - المداومة على دروس العلماء فهي بلسم للجروح ودواء للمرضى.
 - ٤ - سؤال العلماء مقابلة أو مهاتفة.
 - ٥ - مصاحبة الأخيار والصالحين.
 - ٦ - زيارة العلماء والاستماع إلى علمهم ونصحهم.
 - ٧ - قراءة مؤلفات السلف الصالح والسؤال عما أشكل عليك فيها.
 - ٨ - الاستماع إلى أشرطة الدروس العلمية لعلمائنا الأجلاء.
- ولا تكن كمن قيل له:

جَهِلْتَ فَعَادِيَتَ الْعُلُومَ وَأَهْلَهَا

كذلك يعادي العلم من هو جاهله

(١) الفتاوى السعدية ص ١٠١.

ومن كان يهوى أن يُرى متصداً
ويكره «لا أدري» أصيبت مقاتله^(١)

ذكر أن إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه، فقال: يا عم، ما عندك فيما يقول هؤلاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، شغلونا في الصغر، واشتغلنا في الكبر، فقال: لم لا تتعلمه اليوم؟ قال: أو يحسن بمثلي طلب العلم؟ قال: نعم، والله لأن تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل^(٢).

أخي الحبيب:

قال سهل بن عبد الله: اجهدوا أن لا تلقوا الله إلا ومعكم المحابر^(٣).
وعليكم بقول ابن المبارك عندما سُئل: لو أوحى إليك أنك ميت العشية، ما أنت صانع اليوم؟ قال: أطلب فيه العلم^(٤).
وحينما رأى بعض الحكماء رجلاً قد جلس على كتاب، فقال: سبحان الله! يصون ثيابه ولا يصون كتابه، لَصَوْنُ الكتاب أولى من صون الثياب^(٥).

كان أيوب السخيتاني إذا بلغه موت رجل من أصحاب الحديث، حزن لذلك حتى يرى أثره فيه، وإذا بلغه موت عابد لم يُرَ ذلك فيه^(٦).

(١) أدب الدنيا والدين ص ٤٢.

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٤٩.

(٣) شذرات الذهب: (١٨٢/٢).

(٤) تنبيه الغافلين: (٤٦٧/٢).

(٥) تقييد العلم ص ١٤٧.

(٦) شرف أهل الحديث.

ويقال : العلماء سراج الأمة ، فكل عالم مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره . فكن سراج زمانك ، بل وسراج بيتك ، وسراج نفسك^(١) .

وقال أبو الدرداء : وكأنه يُطل على كثير من الناس في زماننا هذا : اطلبوا العلم فإن لم تطلبوه فحبوا أهله ، فإن لم تحبوه فلا تبغضوهم^(٢) .

قال علي بن أبي طالب : العالم أفضل من الصائم القائم السَّاجِد ، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلثة لا يسدها إلا خلف منه^(٣) .

ومع كل هذه المنزلة والمكانة للعالم فإنَّ ذلك لم يتم له إلا بعد تيسير الله - عزَّ وجلَّ - له وتوفيقه عليه كما قال الشافعي : ينبغي للفقهاء أن يضع التراب على رأسه تواضعًا لله ، وشكرًا له^(٤) .

(١) تنبيه الغافلين : (٤٦٨/٢) .

(٢) كتاب الزهد للإمام أحمد ص ٢٠٠ .

(٣) الإحياء : (١٨/١) .

(٤) السير : (٥٣/١٠) .



ولوشق تقرة

المقدمة

الحمد لله الكريم المتفضل بالعطايا والإحسان، والصلاة والسلام على أجود الناس وأبرّهم؛ نبينا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.
أما بعد:

فقد فتح الله علينا أبواب جوده وكرمه، فدرّ الضرع، وكثر الزرع وأخرجت الأرض كنوزها؛ ففاضت الأموال بأيدي الناس، وأصبحوا في رغد عيش وبحبوحة من الرّزق. ورغم هذه العطايا العظيمة والنعم الجسيمة إلا أنّ البعض نفسه شحيحة ويده مقبوضة.
فأحببت أن أذكر بفضل الصدقة وأثرها في الدنيا والآخرة؛ مستهدياً بقول الله - عزّ وجلّ -، ومستنيراً بحديث الرّسول ﷺ، ومذكّراً بأفعال السلف الصّالح.

وهذا هو الجزء السادس عشر من سلسلة «أين نحن هؤلاء» تحت عنوان: «ولو بشق تمرّة» فيه من الآيات والأحاديث وأطايب الكلام ما يحثُّ على صدقة التطوّع ويرغب فيها، فلا أرى أسعد منّا حالاً ولا أطيب منّا عيشاً في هذا الزّمن الذي استرعانا الله فيه أمانة هذه الخيرات لينظر كيف نصنع.

جعلنا الله ووالدينا من الذين يتبوّون من الجنة غُرفاً تجري من تحتها الأنهار.

عبدالمك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

قال - تعالى - في وصف عباده المتقين : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١٧)
 وَيَا لَأَشْحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿ ١٨ ﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿ ١٩ ﴾
 [الجاثية : ٧١ - ٩١].

وقد وعد الله - عزَّ وجلَّ -، وهو الجواد الكريم الذي لا يخلف الميعاد، بالخلف لمن أنفق، فقال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ [سبا : ٣٩].

وأجزل العطية للمنفقين بأعظم ممَّا أنفقوا أضعافًا كثيرة في الدنيا والآخرة، فقال - تعالى - : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥].

وذكر - جلَّ وعلا - آداب الإنفاق، ورَتَّبَ لمن تمسك بها الأجر والأمن والسَّعادة في الدنيا والآخرة، فقال - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢١٧) [البقرة : ٢٦٢].

والآيات في الحثِّ على الإنفاق كثيرة جدًّا وهي من أبواب الخير العظيمة. وبذل الأموال في الإسلام يُعدُّ جهادًا في سبيل الله، بل إنَّ الجهاد بالمال مقدَّم على الجهاد بالنفس في جميع الآيات التي ورد فيها ذكر الجهاد في القرآن العظيم ما عدا آية واحدة هي قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا لَنَشْتَرِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ [التوبة : ١١١].

والصدقة من أفضل القربات، وهي أفضل من الجهاد، لاسيما إذا كان زمن مجاعة على المحاويع، خصوصاً صاحب العائلة، خصوصاً القرابة، ومن الحج؛ لأنه متعدّ والحج قاصر^(١).

ففيها تفريج كربة، وإغناء عن سؤال، وإشباع جائع، وفرحة لصغير، وسرور يدخل على قلب الكبير، وسعادة بين المسلمين. وتتجلى في الصدقة أسمى صور التكاتف والتعاون والترّاحم بين المسلمين.

وفي الصدقة من أحاديث الرّسول ﷺ ما تقرُّ به النفوس، وتهنأ به الصدور، ويستحث بها المسلم الخطأ إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض في طريق آمنة مطمئنة.

فعنه - صلى الله عليه وسلم - أنّه قال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشَقِّ تَمْرَةٍ»^(٢). وقال ﷺ: الصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تَطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا تَطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»^(٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنّ رسول الله ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» وذكر منهم رجلاً: «تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»^(٤).

وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في العطاء والإنفاق حتّى أته النفوس طائعة والقلوب ملبية.

قال أنس - رضي الله عنه -: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامَ شَيْئًا

(١) حاشية الروض: (٣/٣٣٨).

(٢) متفق عليه.

(٣) حديث صحيح. انظر صحيح الترغيب والترهيب للألباني.

(٤) متفق عليه.

إلا أعطاه، ولقد جاءه رجلٌ، فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم! أسلموا، فإنَّ محمداً يُعطي عطاءً من لا يخشى الفقر...»^(١). وللممسكين والمُقتربين نبشُّرهم بحديث الصادق الذي لا ينطق عن الهوى حيث قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله - عزَّ وجلَّ»^(٢). وعنه عليه السلام أنه قال: «قال الله - تعالى - : أنفق يا ابن آدم يُنْفِق الله عليك»^(٣).

وهذه صورة من صور التنافس على الخير بين الصحابة - رضي الله عنهم - فعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق، ووافق ذلك مالاً عندي فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً. قال: فجئت بنصف مالي، قال: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله. وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً»^(٤).

قال ابن القيم - رحمه الله - : وقد دلَّ الثقل والعقل والفطرة وتجارب الأمم - على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها - على أنَّ التَّقَرُّبَ إلى الله ربِّ العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكلِّ خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكلِّ شرٍّ؛ فما استجلبت نعم الله - تعالى - واستدفعت نِقْمَهُ بمثل طاعته

(١) : رواه مسلم.

(٢) : رواه مسلم.

(٣) : متفق عليه.

(٤) : رواه أبو داود والترمذي.

والتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى خَلْقِهِ.

وقال - رحمه الله -: من رَفَقَ بعباد الله رَفَقَ الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله - تعالى - بتلك الصِّفَةِ بعينها في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فالله - تعالى - لعبده حسب ما يكون العبد لخلقهِ.

وفي صورة من صور الإيثار في صدر الإسلام التي حفظها التاريخ على مرِّ الأَيَّامِ والعصور، ما قاله عمر - رضي الله عنه -: أَهْدِي إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأْسُ شَاةٍ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي كَانَ أَحْوَجَ مِنِّي إِلَيْهِ؛ فَبَعَثَ بِهِ إِلَيْهِ. فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتَّى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأوَّل^(١).

كانت هذه أخلاقهم وتلك صفاتهم، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

قال يحيى بن معاذ: ما أعرف حبةً تزن جبال الدُّنْيَا إِلَّا الحَبَّةَ مِنَ الصَّدَقَةِ^(٢).

وكان ابن عمر إذا اشتدَّ عجبه بشيء من ماله قرَّبه إلى ربه - عزَّ وجلَّ -^(٣)، وذلك امتثالاً لقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

(١) الإحياء: (٣/ ٢٧٣).

(٢) الإحياء: (١/ ٢٦٧).

(٣) وفيات الأعيان: (٣/ ٣٠).

وكثير من الناس اليوم إذا بليت ثيابه أو تقطعت نعاله دفع بها إلى الفقراء وكأنه يتخلص منها!!

قال الفقيه أبو الليث السمرقندي: عليك بالصدقة بما قل أو كثر، فإن في الصدقة عشر خصال محمودة: خمسة في الدنيا، وخمسة في الآخرة. **فأما الخمسة التي في الدنيا:**

فأولها: تطهير المال كما قال النبي ﷺ: «يا معشر التجار إن هذا البيع يحضره الحلف والكذب، فشوبوه بالصدقة»^(١).

والثاني: أن فيها تطهير البدن من الذنوب كما قال الله - عز وجل -: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والثالث: أن فيها دفع البلاء والأمراض كما قال النبي ﷺ: «داووا مرضاكم بالصدقة».

والرابع: أن فيها إدخال الشُّرور على المساكين. وأفضل الأعمال إدخال الشُّرور على المؤمنين.

والخامس: أن فيها بركة في المال وسعة في الرِّزق كما قال الله - تعالى -: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩].

وأما الخمسة التي في الآخرة:

فأولها: أن تكون الصدقة ظلاً لصاحبها من شدة الحر.

والثاني: أن فيها حَقَّة الحساب. والثالث: أنها تثقل الميزان.

والرابع: جواز على الصُّراط. والخامس: زيادة الدَّرجات في الجنة.

ولو لم يكن في الصدقة فضيلة سوى دعاء المساكين لكان الواجب على

العاقل أن يرغب فيها، فكيف وفيها رضا الله - تعالى - ورغم الشيطان؟ وفيها الاقتداء بالصالحين؛ لأن الصالحين كانت همتهم الصدقة^(١).

قال ابن القيم - رحمه الله -: فَإِنَّ الصَّدَقَةَ تَفْدِي مِنَ عَذَابِ اللَّهِ - تعالى -؛ فَإِنَّ ذُنُوبَ الْعَبْدِ وَخَطَايَاهُ تَقْتَضِي هَلَاكَهُ، فَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ تَفْدِيهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَتَفْكُهُ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّحِيحِ لَمَّا خُطِبَ النِّسَاءُ يَوْمَ الْعِيدِ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حَلِيكَنْ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» وَكَأَنَّهُ حَثَّهِنَّ وَرَغَّبَهُنَّ عَلَى مَا يَفْدِي بِهِ أَنْفُسَهُنَّ مِنَ النَّارِ. وَأَثَرُ الصَّدَقَةِ وَاضِحٌ عَلَى النَّفْسِ، وَفِي بَرَكَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَدَفْعِ الْبَلَاءِ، وَجَلْبِ الرِّخَاءِ، كَمَا أَنَّ الْمُتَصَدِّقَ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْشَرَحَ لَهَا قَلْبُهُ، وَانْفَسَحَ بِهَا صَدْرُهُ.

وعليك - أيها المنفق - بقول جعفر بن محمد لسفيان الثوري: لَا يَتِمُّ الْمَعْرُوفُ إِلَّا بِثَلَاثَةٍ: بِتَعْجَلِهِ، وَتَصْغِيرِهِ (فِي عَيْنِكَ حَتَّى وَإِنْ كَانَ كَبِيرًا) وَسْتَرِهِ^(٢).

ومن صور الإنفاق العالية فِعْلُ ابْنِ عَمَرَ - رضي الله عنهما - فقد كان يستغرق في المجلس ثلاثين ألفًا، ثُمَّ يَأْتِي عَلَيْهِ شَهْرٌ مَا يَأْكُلُ مِزْعَةً لَحْمٍ^(٣).

أخي الحبيب:

كانوا يقدّمون ولا يؤخّرون، ويعجّلون ولا يسوّفون، ويزرعون في الدُّنْيَا ويحصدون للآخرة. لم تكن الدُّنْيَا إِلَّا مَطِيَّةً يَعتَلُونَهَا سَيْرًا إِلَى اللَّهِ، وَلَمْ تَكُنْ الْأَمْوَالُ إِلَّا مَرْكَبًا لِرِضَا اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - تسير حيث أمر الله - عزَّ وجلَّ.

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٤٧.

(٢) صفة الصفوة: (١٦٩/٢)، حلية الأولياء: (١٩٨/٣).

(٣) السير: (٢١٨/٣).

وجلّ - ولهذا كانت الدنيا لديهم حقيرةً ذليلةً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ثمّ ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليُبارك له فيه، ولا يأخذه بإسرافٍ وهلع، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة، والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء^(١).

وقال يحيى بن معاذ وكأنّه يطلُّ على حال كثيرٍ من أهل الدنيا: عجبت من ثلاث:

رجلٌ يراني بعمله مخلوقاً مثله ويترك أن يعمله لله.

ورجلٌ يبخل بما له وربُّه يستقرضه منه فلا يُقرضه منه شيئاً.

ورجلٌ يرغب في صحبة المخلوقين ومودّتهم، والله يدعو إلى صحبته ومودّته.

أخي المسلم:

ويظهر عيب المرء في الناس بخله

ويستره عنهم جميعاً سخاؤه

تغط بأثواب السّخاء فإنّني

أرى كلّ عيب فالسّخاء غطاؤه^(٢)

عن عروة قال: لقد رأيت عائشة تقسّم سبعين ألفاً وهي ترقع درعها^(٣).

رضي الله عنها وأرضاها. إنّها أم المؤمنين التي نشأت في بيت الصديق

أبي بكر - رضي الله عنه - وتربّت في بيت الثبوة.

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/٦٦٢).

(٢) فضائل الذكر ص ٤٠.

(٣) صفة الصفوة: (٢/٣٠).

وعنها - رضي الله عنها - أنّهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟» قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: «بقي كلّها غير كتفها»^(١).
إنّ الدرهم الذي نجمعه والدينار الذي نكتزه لا ثمرة له إلا بالإنفاق، ولا أثر له إلا إذا فارق مكانه.

قال الحسن: بش الرّفيق الدينار والدرهم لا ينفعانك حتّى يفارقاك^(٢).
ومن صور المفارقة الطّيبة إخراجهم في أبواب البرّ ومواقع الإحسان التي لها أثر في الدّنيا والآخرة؛ فالصدقة أثرها عظيم نراه في واقع حياتنا وفي سائر أحوالنا.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: فإنّ للصدقة تأثيراً عجيباً في دفع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم بل من كافر، فإن الله يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند النّاس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلّهم مقرّون به لأنّهم جرّبوه.

وقال أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه -: الصّلاة عماد الإسلام، والجهاد سنام العمل، والصدقة شيءٌ عجيبٌ، والصدقة شيءٌ عجيبٌ، والصدقة شيءٌ عجيبٌ^(٣).

ومن آثارها العجيبة في الدّنيا ما روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «بينما رجلٌ يمشي بفلاةٍ من الأرض، فسمع صوتاً في سحابةٍ: اسق حديقة فلان، فتنحّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرةٍ»^(٤) فإذا تلك

(١) رواه الترمذي.

(٢) السير: (٩٥/١٦).

(٣) تنبيه الغافلين ص ٢٤٣.

(٤) حرة: الأرض الملبسة حجارة سوداء.

الشراح^(١) قد استوعبت ذلك الماء كله؛ فتنبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يُحوّل الماء بمسحاته، فقال له: عبدالله! ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبدالله! لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إنني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أمّا إذ قلت هذا، فإنني أنظر إلى ما يخرج منها، فأصدق بثلثه، وأكل أنا وعيالي ثلثاً، وأردّ فيها ثلثه^(٢) ومن لم ينفق فقد أساء الظنّ بالله من عدم الخلف في الدنيا والأجر والمثوبة في الآخرة.

قال أبو سليمان الداراني: من وثق بالله في رزقه زاد في حسن خلقه، وأعقبه الحلم، وسخت نفسه في نفقته، وقلّت وسائسه في صلاته^(٣) فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده، فيكون هلوغاً؛ إذا مسه الشرّ جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً^(٤).

فالواجب على المسلم العاقل أن يجعل الدنيا في يده وليست في قلبه، حتّى وإن كثرت، فإنّها في يده أسهل خروجاً وسخاءً. رأى الأحنف بن قيس في يد رجلٍ درهماً، فقال: لمن هذا؟ قال لي: قال: ليس هو لك حتّى تخرجه في أجر أو اكتساب شكر. وتمثّل:

(١) الشرجة: هي مسيل الماء.

(٢) رواه مسلم.

(٣) حلية الأولياء: (٢٥٧/٩).

(٤) مجموع الفتاوى: (١٨٩/١٠).

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ
وَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَالْمَالُ لَكَ

أخي المسلم:

اعلم أنَّ المال إنْ كان مفقودًا فينبغي أنْ يكونَ حال العبد القناعة وقلة الحرص، وإنْ كان موجودًا فينبغي أنْ يكونَ حاله الإيثار والسَّخاء واصطناع المعروف والتَّباعَد عن الشَّحِّ والبخل، فإنَّ السَّخاء من أخلاق الأنبياء - عليهم السَّلام - وهو أصل من أصول النِّجاة^(١).

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: إن استطعت أن تجعل كنزك حيث لا يأكله الشُّوس، ولا تناله اللُّصوص، فافعل بالصدقة^(٢).

قال - جلَّ وعلا -: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وسمَّى الله هذا الإنفاق قرضًا حسنًا؛ حثًّا للنفوس، وبعثًا لها على البذل، لأنَّ الباذل متى علم أنَّ عين ماله يعود إليه ولا بدَّ طوَّعت له نفسه، وسهل عليه إخراجَه، فإن علم أنَّ المستقرض مليءٌ وفيٍّ محسنٌ، كان أبلغ في طيب فعله وسماحة نفسه. فإن علم أنَّ المستقرض يتَّجر له بما اقترضه، وينمِّي له ويثمره حتَّى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح. فإن علم أنَّه مع ذلك كلِّه يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، فإنَّ ذلك الأجر حظٌّ عظيمٌ، وعطاءٌ كريمٌ، فإنَّه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشَّحِّ، أو عدم الثِّقة بالضَّمان،

(١) الإحياء: (٢٥٨/٣).

(٢) تنبيه الغافلين ص ٢٤٧.

وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها.
وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسناً، وذلك يجمع
أموراً ثلاثة:

أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه.
والثاني: أن يخرج طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله؛ ابتغاء مرضاة الله.
والثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي.
فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمُنْفَق بينه وبين الله، والثالث
بينه وبين الآخذ^(١).

والبخل صفة دنيئة، هجر مركبها الأنبياء والصالحون، بل حتّى كرام
العرب في الجاهلية علموا أنّها سوء موطن.
قالت أم البنين ابنة عبدالعزيز بن مروان: أفّ للبخل، لو كان قميصاً ما
لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته.

وعندما سُئل الحسن - رضي الله عنه - عن البخل قال: هو أن يرى
الرّجل ما أنفق تلفاً وما أمسك شرفاً^(٢).

وقيل لعلي: ما السّخاء؟ قال: ما كان منه ابتداءً، فأماً ما كان عن
مسألة فحياء وكرم^(٣).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال سعيد بن العاص لابنه: يا بنيّ، أخزى الله المعروف إذا لم يكن

(١) التفسير الميسر لابن القيم ص ١٤٨ وما بعدها.

(٢) مكاشفة القلوب ص ١٢٢.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٧.

ابتداءً من مسألة، فأما إذا أتاك الرَّجُل تكاد ترى دمه في وجهه أو جاءك مخاطرًا لا يدري، أتعطيه أم تمنعه؟ فوالله لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من فعلهنَّ فقد ذاق طعم الإيمان: من عبَدَ الله - عزَّ وجلَّ - وحده بأنَّه لا إله إلا هو، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه في كلِّ عام، ولم يعط الهرمة، ولا الدرنة، ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم، فإنَّ الله - عزَّ وجلَّ - لم يسألکم خيرها، ولم يأمرکم بشرِّها، وزكى نفسه»، فقال رجلٌ: وما تزكية النَّفس؟ فقال: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله - عزَّ وجلَّ - معه حيث كان»^(٢).

فجعل النَّبِيُّ ﷺ تزكية النَّفس إحدى الخصال الموجبة لذوق طعم الإيمان.

أخي المسلم:

ضرب الرَّبِيعُ الفالَجُ، وطال به وجعه، فاشتَهِى لحم دجاج فكفَّ نفسه أربعين يومًا، ثمَّ حكى لامرأته فاشتريت دجاجةً بدرهم ودانقين فسوتَّها، وخبزت له خبزًا وجعلت له أصباعًا كالحلوى، ثمَّ جاءت بالخوان، فلمَّا ذهب ليأكل قام سائلٌ، فقال: تصدَّقوا عليَّ. فكفَّ، وقال: خذي هذا فادفعيه إليه. قالت: فأنا أصنع ما هو أحبُّ إليه. قال: وما هو؟

(١) البداية والنهاية: (٨/٩٣).

(٢) أخرجه الطبراني وصححه الألباني.

قالت : نعطيه ثمن هذا ، وتأكلي أنت شهوتك .

قال : قد أحسنت ، إيتيني بثمره .

فجاءت بثمر الدجاجة والخبر والأصباغ .

فقال : ضعيه على هذا وادفعين جميعاً إلى السائل^(١) .

ونحن قد أنعم الله علينا وبسط لنا من خيرات الأرض . أصبح هم الكثير

المأكل والمشرب والملبس والمسكن . تفاخر ومباهاة وشره وطمع !! تعال

لنر كيف كان السلف يجاهدون أنفسهم وبماذا ألزموها؟!

عن جابر بن عبدالله قال : رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي

فقال : ما هذا يا جابر؟ قلت : اشتريت لحماً فاشتريته ، فقال عمر : أفكلما

اشتريت يا جابر اشتريت؟! أما تخاف هذه الآية يا جابر : ﴿ أَذْهَبَتْكُمْ طَبِيبَتُكُمْ فِي

حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠]^(٢) .

أخي المسلم:

الفقير محتاج ، والمسكين يتلهف لطارق يطرق عليه بابه ويناوله ما

تيسر في يده . هذا واقعه : شدة حاجة وعوز وفقر ومسغبة . ولكن مع

حاجته الماسة تلك إلا أننا أحوج من الفقير ، نحن في حاجة ماسة إلى

ثواب الصدقة وأجر البر والإحسان في يوم تشخص فيه الأبصار . فحاجته

دنيوية ، وحاجتنا دنيوية وأخروية .

قال الشعبي : من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى

صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه .

(١) أحسن المحاسن ص ٢٨٩ .

(٢) تاريخ عمر لابن الجوزي ص ١١٩ .

وقال عبدالعزيز بن عمير: الصَّلَاة تبلغك نصف الطَّرِيق، والصَّوْم يبلغك باب الملك، والصَّدقة تدخلك عليه.

وقال عبيد بن عمير: يحشر النَّاس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، فمن أطعم الله أطعمه الله، ومن سقى الله سقاه الله، ومن كسا الله كساه الله.

قال عبدالله بن مسعود: من استطاع منكم أن يجعل كنزَه حيث لا يأكله السوس ولا تناله الشُّراق فليفعل، فإن قلب الرَّجل مع كنزِه^(١).

وقد ثبت عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يا رسول الله، ما مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فَإِنْ مَالُهُ مَا قَدِمَ، وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا آخَرَ»^(٢).

وفي صورة من صور الإنفاق العجيب والسخاء المنقطع النظير كانت أسماء بنت أبي بكر لا تدّخر شيئاً لغد^(٣).

ونحن والله يُخشى علينا العقوبة من كثرة ادخارنا وعدم أنفاقنا، فالبعض تمرُّ عليه شهور ولم ينفق من هذه الخيرات، والبعض ربما لا يعرف الصَّدقة إلا في رمضان، وإن خرجت فهي من أردأ ما في بيته وأقله، وتراه ينفق أضعافاً مضاعفة لعلاج نفسه أو دفع بلاء أصابه، ونسي أنه يُستدفع بالقليل من الصَّدقة أنواع البلاء وشَتَّى الخطوب.

ركب شعبة بن الحجاج حماراً له، فلقيه سليمان بن المغيرة فشكا

(١) حلية الأولياء: (١/١٣٥)، صفة الصفوة: (١/٤٢٠).

(٢) رواه البخاري.

(٣) السير: (٣/٣٨٠).

إليه، فقال له شعبة: والله ما أملك إلا هذا الحمار، ثم نزل ودفعه إليه^(١).
أخي المسلم:

اعلم أنَّ السَّخَاءَ والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجة السَّخَاءِ الإيثار، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة. وإنَّما السَّخَاءُ عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج، والبذل مع الحاجة أشد. وكما أنَّ السَّخَاوَةَ قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن؛ ولو وجدها مجاناً لأكلها. فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة؛ وذلك يُؤثر على نفسه غيره مع أنَّه محتاج إليه. فانظر ما بين الرجلين! فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء. وليس بعد الإيثار درجة في السَّخَاءِ^(٢).

ولكثرة النعم التي تُظِلُّنا والخيرات التي تأتي إلينا لابدَّ أن نتأمَّل قول سلمة بن دينار: إذا رأيت الله - عزَّ وجلَّ - يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره^(٣).

أخي الحبيب:

ها أنت تصرخ: إنَّها أموالِي، ودوري وقصوري، وطعامي وشرابي، ولكن هاك حديث الرسول ﷺ يرُدُّ عليك قولك: «يقول العبد مالي مالي، وإنَّما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى،

(١) حلية الأولياء: (١٤٦/٧).

(٢) الإحياء: (٢٧٢/٣).

(٣) صفة الصفوة: (٥٧/٢).

ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للنّاس»^(١).

عند هذا الرحيل يأتيك قول الله - عزّ وجلّ - : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقد قسّم الله الأرزاق كما قسّم الآجال بين عباده بحكمته وعلمه وعدله، فأعطى الغنيّ ليشكّر ويبدّل؛ ومنع الفقير ليصبر ويرضى ويستعفف، وكافأه بحديث الرسول ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»^(٢).

وهذا الفقير الذي لا يملك من الدُّنيا إلا اليسير. قال رسول الله ﷺ عن أحدهم: «رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»^(٣).
أخي المسلم:

نحن الآن في رغد عيش ونعم عظيمة لا تعد ولا تحصى. إذا لم ننفق الآن ونتوسع في ذلك ونحن على هذه الحال الطيبة - والله الحمد - فمتى ننفق؟! إذا حلّ الفقر بساحتنا؟! أم إذا نزل الموت بأرواحنا؟!
ليس في كل حالة وأوان

تتهيأ صنائع الإحسان
فإذا أمكنت فبادر إليها
ذراً ممن تعذر الإمكان^(٤)

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه مسلم.

(٤) السير: (٤١٩/١٨).

قال الحسن: من أيقن بالخلف جاد بالعطية^(١).

وقال أبو وائل شقيق بن سلمة: دخلنا على خباب بن الأرت في مرضه فقال: إنَّ في هذا التَّابوت ثمانين ألف درهم، والله ما شددت لها من خيط، ولا منعتها من سائل.

وعن عمرو بن دينار قال: دخل علي بن الحسين (ابن علي) علي محمد بن أسامة بن زيد في مرضه، فجعل محمد يبكي، فقال علي: ما شأنك؟ قال: عليّ دين، قال: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، قال: فهو عليّ.

وفي المال - أيها المسلم - حقوق سوى الزكاة، نحو مواساة قرابة، وصلة إخوان، وإعطاء سائل، وإعانة محتاج، وغير ذلك.

عن الشعبي قال: ما مات لي قرابة وعليه دين إلا قضيته عنه^(٢).

ولأحمد عن أبي أيوب مرفوعاً: «أفضل الصدقة على ذي الرِّحم الكاشح» أي العدو المضمّر للعداوة الطاوي عليها كشحه (أي باطنه) والذي يطوي عنك كشحه ولا يألفك.

وقال ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرِّحم اثنتان، صدقة وصلة»^(٣).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: أمر النبي ﷺ بالصدقة، فقال رجل: يا رسول الله! عندي دينار. فقال: «تصدّق به على نفسك» فقال: عندي آخر. قال: «تصدّق به على زوجتك» قال: عندي آخر. قال:

(١) الحسن البصري ص ٣٢.

(٢) تذكرة الحفاظ: (٨١/١).

(٣) رواه الخمسة.

«تصدّق به على ولدك» قال: عندي آخر. قال: «تصدّق به على خادمك» قال: عندي آخر. قال: «أنت أبصر»^(١).

وعنه عليه السلام أنّه قال: «أفضل دينار ينفقه الرّجل، دينار ينفقه على عياله»^(٢). قال أبو قلابة: وأيُّ رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار، يعفهم، أو ينفعه الله بهم ويغنيهم؟

والبخل - والعياذ بالله - إذا دخل قلب الرّجل أغلق دونه أبواب الإنفاق على نفسه وأهله وعامّة النّاس. ولهذا تعوّذ الرّسول صلى الله عليه وآله من البخل فقال: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدّين، وغلبة الرّجال»^(٣).

* جاء رجل في حمالة أربع ديات سأل فيها أهل المدينة، فقيل له: عليك بالحسن بن علي، أو عبدالله بن جعفر، أو سعيد بن العاص، أو عبد الله بن عباس، فانطلق إلى المسجد فإذا سعيد داخل إليه، فقال: من هذا؟ فقيل سعيد بن العاص. فقصده، فذكر له ما أقدمه، فتركه حتّى انصرف من المسجد إلى المنزل، فقال للأعرابي: ائت بمن يحمل معك. فقال: رحمك الله، إنما سألتك مالاً قرأ، فقال: أعرف، ائت بمن يحمل معك.

فأعطاه أربعين ألفاً، فأخذها الأعرابي وانصرف ولم يسأل غيره^(٤). وليس الإنفاق مقصوراً على أصحاب الأموال العظيمة، بل كل له

(١) صحيح النسائي للألباني بالرقم (٢٣٧٥).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) البداية والنهاية: (٩٣/٨).

سهم، ونحن لنا في ذلك سهام بما عندنا من مال وملبس ومأكّل.
هذا أبو هريرة يسأل الرسول ﷺ بقوله: أيُّ الصّدقة أفضل؟ قال ﷺ:
«جهد المقلّ، وابدأ بمن تعول»^(١).

وجهد المقلّ: أي طاقته، والمقصود إخراج شيء من قليل، بمعنى أنّ
الإنسان يرى نفسه فقيرًا، ولكن يجود من القليل ابتغاء ثواب الله وكرمه
وانتظار فضله.

وعنه - رضي الله عنه - أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق درهم مائة
ألف درهم». فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «رجلٌ له مالٌ
كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم تصدّق بها، ورجلٌ ليس له إلا درهماً
فأخذ أحدهما فتصدّق به»^(٢).

فالنبي ﷺ يُبَيِّنُ لنا ثواب الصّدقة الخارجة من مال الفقير، يُضَاعَف
أجرها مئات لأنّ الغنيّ يجود عن سعة، وينفق عن كثرة ولكنّ الفقير
يدعوه إيمانه برّبّه إلى الإنفاق وينتظر رزق الله. وقد رُوِيَ عن أم المؤمنين
عائشة - رضي الله عنها - أنّها تصدّقت بتمرة واحدة^(٣).

سُئِلَ أبو ذر الغفاري عن الصّوم؟ فقال: قربة وليس هناك فضل، قيل:
فأيُّ الصّدقة أفضل؟ قال: أكثرها فأكثرها، ثمّ قرأ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى
تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَ عِلْمِهِ﴾ [آل عمران: ٩٢].
قيل: فمن لم يكن عنده؟ قال: عفو مال، يعني يتصدق بفضل مال.

(١) رواه أبو داود والحاكم.

(٢) رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان، وحسنه الألباني.

(٣) وقد رأيت أحد العمّال المساكين يتصدّق بريالات قليلة على فقير كان بباب المسجد؛
فتأثّرت من عمله رغم غربته وحاجته الظاهرة!!

قيل : فمن لم يكن عنده مال ؟ قال : فعفو طعام .
 قيل : فمن لم يكن عنده ؟ قال : بغبن يفوته .
 قيل : فمن لم يفعل ؟ قال : يتقي النار ولو بشق تمرّة .
 قيل : فمن لم يفعل ؟ قال : يكف نفسه ، يعني لا يظلم الناس ^(١) .
أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!..

كان الرّبيع بن خيثم لا يعطي أقل من رغيف ، ويقول : إنّي لأستحي أن
 يُرى في ميزاني أقل من رغيف .
 وقال أبو إسحاق الطبري : كان النجاد يصوم الدهر ، ويفطر على
 رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة أكل تلك اللقمة التي
 استفضلها وتصدّق بالرّغيف ^(٢) .

يفني البخیل بجمع المال مدته
 وللحوادث والحوادث ما يدع
 كدودة القزّ ما تبنيه يخنقها
 وغيّرها بالذي تبنيه يتفّع ^(٣)

كان علي بن الحسن بن علي إذا أتاه سائل رحب به وقال : مرحبًا بمن
 يحمل زادي إلى الآخرة .
 وصدق فإنّ هؤلاء أبواب لنا نحو الصدقة والإنفاق ، ومن يُرد الآخرة
 يتغنّ ويتعب ويبحث ويدقّق حتّى يجدهم خاصّة المتعفّفون من كبار السنّ
 والأرامل والأيتام .

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٤٣ .

(٢) تذكرة الحفاظ : (٣/٨٦٨) .

(٣) البداية والنهاية : (١١/١٣) .

كما ينبغي للمتصدق أن يتحرى في صدقته أهل الخير والصَّلاح والزُّهد والورع ممَّن يعينهم المال على طاعة الله - عزَّ وجلَّ - وليحذر أن يعين أحداً بماله على معصية أو فساد.

وأذكر هنا قصةً على عَجَلٍ تُوضِّحُ حاجة النَّاس وعوزهم وهم بين أظهرنا، فقد ذكر لي أحد أئمَّة المساجد عن شخص من الوافدين فرحه بقدوم شهر رمضان (وكان ضعيف الحال كبير السن) قال الإمام: فسألته عن سبب هذا الفرح، فقال لي: حتَّى نأكل في المساجد ما لا نجدّه طوال العام في بيوتنا!!

وهذا الحديث كان قبل عشر سنوات تقريباً ولم يتوسَّع النَّاس بعد في التَّقطير مثل الآن بل كان الإفطار ما تيسر!!

وفي أحوال كثير من الأسر ما يُحزن القلب ويُدمع العين، فكم من فقير ومن أرملة ومن يتيم! وكم من شيخ يئن وطفل يجوع وأرملة لا تجد غذاء ولا كساء!! بل كم من أب وأم في حاجة إلى التَّوسعة عليهما، وربما تتطلع أنفسهم إلى أمر تكون الدراهم القليلة حاجزاً دونه، وابنهم في أيسر حال وأتمه!!

وقد حدَّثني أحد المشائخ الفضلاء ودمعته لا تفارق مجراها فقال: لحظت يوماً، وأنا خارج إلى المسجد قبل أذان الفجر، امرأة كانت واقفة أمام (النفایات) فتأخَّرت حتَّى أتبعها النَّظر وعرفت مسكنها، وفي الغد أرسلت أهل بيتي لمعرفة أمرها، فإذا بها أرملة وأمٌّ لأطفال صغار ولا تجد ما يسد جوعهم إلا من بقايا الطَّعام الموجود في هذا المكان، فتخرج في جنح الظَّلام حتَّى لا يراها أحد.

وهذه المرأة المتعففة لها نصيب من حديث الرسول ﷺ: «ليس

المسكينُ بهذا الطَّواف الذي يطوفُ على النَّاسِ فترده اللقمة واللقمتان والتمرّة والتّمرتان».

قالو: فما المسكين يا رسول الله؟

قال: «الذي لا يجدُ غنى يغنيه ولا يفطنُ له فيصدّق عليه، ولا يسأل النَّاسَ شيئاً»^(١).

ومن تأمّل في أحوال بعض أقاربه وجد أنَّهم من أهل الزّكاة ولكنّه يغفل عنهم، فكم حولنا من يتيم، وكم في أسرنا من أرملة، وكم في عوائلنا من ينتظره نهاية العام لتسديد أجرة منزله!! وكم في مجتمعا من مطلقة حولها صغار لا يجدون دفترًا جديدًا أو قلمًا ومسطرة أو ثمن علاج ودواء! لكن من يبحث عنهم ومن يسأل عنهم؟! وأين من يتحرّى ويدقق؟! بل والله قد ضعف هذا الأمر في كثير من الناس.

وتأمّل حال الزّكاة المفروضة، وهي عبادة عظيمة. كيف تُخرج؟! فإنّه يخيل إليك أنّه يتخلّص منها بأيّ شكل وبدون حرص واهتمام، وإن أردت مثلاً حيّاً لذلك فانظر كيف هي زكاة الفطر، وهي لا تزيد عن كيس أرز واحد عن أسرة كبيرة، فلا يبحث عن الفقراء، ولا يكلف المزكي نفسه مشقّة السّؤال والبحث!! رحم الله أحدهم، فقد سألته عن إخراج زكاة الفطر في مكّة المكرمة ولم يكن من سكّانها فقال لي: عليك برؤوس الجبال لتجد المستحقّين!! فقلت له: غفر الله لك، ومن أين لنا رؤوس الجبال؟! قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وإعطاء السّائل فرض كفاية إن صدق، ولهذا جاء في الحديث: «لو صدق ما أفلح من رده»^(٢).

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) حاشية الروض ص ٣٤٤.

وفي صورة مؤثرة لا يفعلها إلا قليل ممّن وهبهم خيراً وإخلاصاً. عن عمر بن ثابت قال: لما مات علي بن الحسين ابن علي فغسلوه فجعلوا ينظرون إلى آثار سواد في ظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقالوا: كان يحمل جرب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة^(١).

وهذه مولاة لداود الطائي تخدمه فقالت له: لو طبخت لك دسماً تأكله؟ قال: وددت، فطبخت له دسماً ثم أتت به فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: علي حالهم، قال: اذهبي بهذا إليهم، فقالت: أنت لم تأكل أدمًا منذ كذا وكذا، قال: إن هذا إذا أكلوه كان عند الله مذخوراً، وإذا أكلته كان في الحش^(٢).

عن ميمون بن مهران، أنّ امرأة ابن عمر عوتبت فيه، فقيل لها: أما تتلطفين بهذا الشيخ؟! فقالت: فما أصنع به، لا نصنع له طعاماً إلا دعا من يأكل معه، فأرسلت إلى قوم من المساكين كانوا يجلسون بطريقه إذا خرج من المسجد فأطعمتهم وقالت لهم: لا تجلسوا بطريقه، ثم جاء إلى بيته فقال: أرسلوا إلى فلان وإلى فلان، وكانت امرأته أرسلت إليهم بطعام وقالت: إن دعاكم فلا تأتوه، فقال ابن عمر - رضي الله عنهما -: أردتهم أن لا أتعشى الليلة، فلم يتعش تلك الليلة^(٣).

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: اثنان من الشيطان، واثنان في الله - تعالى -، ثم قرأ هذه الآية: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ يعني يأمركم بالطاعة والصدقة

(١) انظر السير: (١٣٩/٤).

(٢) تاريخ بغداد: (٣٥٣/٨).

(٣) حلية الأولياء: (٢٩٨/١).

لتنالوا مغفرته وفضله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨] يعني واسع الفضل، عليم بثواب من يتصدق^(١).

قال أحمد بن حنبل عن عباد بن عباد: كان ثقة صالحاً في دينه، بلغني أنّه اشترى نفسه من الله ثلاث مرات أو أربعاً فتصدق بوزن نفسه فضة^(٢).

وهذا أبو الحسن النوري مكث عشرين سنة يأخذ من بيته رغيفين، ويخرج ليمضي إلى السُّوق فيتصدق بالرغيفين ويدخل المسجد فلا يزال يركع حتّى يجيء وقت سوقه. فإذا جاء الوقت مضى إلى السوق فيظن أنّه قد تغدّى في بيته، ومن في بيته عندهم أنه قد أخذ معه غدائه، وهو صائم!! وكان عامر بن عبدالله بن الزبير يتخير العباد وهم سجود، فيأتيهم بالصرّة فيها الدنانير والدراهم، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه، فقليل له: ما يمنعك أن تُرسل بها إليهم؟ فيقول: أكره أن يتمرّ وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولي أو لقيني^(٣).

أيها الحبيب:

أمامنا أهوال وأهوال وفزعات وروعات. ولذا اشترى بعض السلف نفسه من الله ثلاث مرات أو أربعاً يتصدق كل مرة بوزن نفسه فضة. واشترى عامر بن عبدالله بن الزبير نفسه من الله بديته ست مرات تصدق بها، واشترى حبيب العجمي نفسه من الله بأربعين ألف درهم تصدق بها^(٤).

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٤٥.

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/٢١٠).

(٣) منهاج القاصدين ص ٤١.

(٤) حلية الأولياء: (٣/١٦٦).

قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالأسير يسعى في فكاك رقبتة، لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله - عز وجل - (١).

وقال رجل للحسن: ما تقول في رجل آتاه الله فهو يتصدق منه ويصل منه، أيحسب له أن يتعيش فيه (يعني يتنعم)؟

فقال: لا، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف، ويقوم ذلك ليوم فقره (٢).

وكان رسول الله ﷺ أجود من الريح المرسلة، ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا، وليس الزهد فقد المال وإنما الزهد فراغ القلب عنه، وقد كان سليمان - عليه السلام - في ملكه من الزهاد (٣).

تراه إذا ما جئته متهللاً
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ولو لم يكن في كفه غير روحه
لجاد بها فليثق الله سائله

هو البحر من أي النواحي أتيته
فلجته المعروف والجود ساحله (٤)

كان مورك العجلي يتجر، فيصيب المال فيفرقه على الفقراء والمساكين، وكان يقول: لولا هم ما اتجرت (٥).

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢٦٩.

(٢) مكاشفة القلوب ص ١٥٦.

(٣) الإحياء: (٣٩/١).

(٤) جامع العلوم والحكم ص ٢٢٢.

(٥) الزهد ص ٤٤.

نعم المال الصالح في يد الرجل الصالح، والله لقد حسنت النية في جمعه وفي إنفاقه!! ومن منا اليوم يخطر بباله هذا الأمر؟! بل ومن يستقبل يومه ليعمل ويحتسب أجر العمل عند الله ثم يحتسب أجر (أجرة) العمل إنفاقًا وإحسانًا؟!

أخي المسلم: في المال ثلاثة أسئلة عظام يُسأل عنها المرء: من أين اكتسبه؟! هل هو من حلال؟! أم من حلال خالطه حرام؟! أم حرام كله؟! ثم السؤال الثاني: أين وضعه؟! أفي حلال أم في حرام؟! ثم الثالث: أين أنفقه؟! أفي طاعة أم معصية؟! وهل هي طاعة زانها الإخلاص أم شابها الرياء؟! وهل...؟! ولو طبقنا تلك الأسئلة على مائة ريال مما نملك لعلمنا أن السؤال شديد وأن الحساب دقيق، ولربما أن هذه الأموال تكون سبباً في شقائنا وخسراننا؟!

قال أبو بكر - رضي الله عنه -: دخلت على أبي مسلم في يوم عيد، فرأيت عليه قميصاً مرقعاً وبين يديه خروف وهو يأكل منه، فقلت يا أبا مسلم! ما هذا؟ فقال: لا تنظر إلى الخروف ولكن انظر إذا سألتني ربي: من أين لك هذا؟ فأني جواب أقول وما اعتذاري؟!

وقال ابن المبارك: لأن أردّ درهماً من شبهة أحب إليّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف. حتى بلغ ستمائة ألف^(١).

وذلك طمعاً في قبول العلم وعظم الأجر والمثوبة؛ فقد قال ﷺ: «من تصدق بعدل - أي بمقدار - تمرّة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه

(١) صفة الصفوة: (٤/١٣٩).

- أي مهره - حتى تكون مثل الجبل»^(١).

قال الراقدي: صار إليّ من السلطان ستمائة ألف درهم ما وجبت عليّ زكاة فيها^(٢).

وكان دخلُ الليث بن سعد في كلِّ سنة ثمانين ألف دينار، وما أوجب الله عليه زكاة درهم قط^(٣).

وذلك بإتفاقها قبل أن يحول عليها الحول.

وفي كلمات صادقة لأصحاب القلوب الحية والنفوس الزكية الذين يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار.

كان الحسن يقول: رحم الله عبدًا جعل العيش عيشًا واحدًا، فأكل كسرة، ولبس خلقًا، ولزق بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على الخطيئة، وهرب من العقوبة؛ ابتغاء الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك^(٤).

قالت امرأة أبي حازم له: هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب، فقال لها أبو حازم: من هذا كله بد، ولكن لا بد لنا من الموت، ثم البعث، ثم الوقوف بين يدي الله - تعالى -، ثم الجنة أو النار^(٥).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

عن محمد بن المنكدر عن أم درّة - وكانت تخدم عائشة - رضي الله

(١) متفق عليه.

(٢) السير: (٤٦٧/٩).

(٣) وفيات الأعيان: (١٣٠/٤).

(٤) الزهد الكبير للبيهقي: (٦٥/٢).

(٥) الإحياء: (٢٣٩/٤).

عنها - قالت: إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق، فجعلت تُقسم بين الناس، فلمّا أمست قالت: يا جارية! هلُمَّ فطوري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟ فقالت: لو كنت ذكّرتيني لفعلت^(١).

وكان سعد بن عبادة يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يعشيهم^(٢).

وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ قَلٌّ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَنَدْرَ حَتَّى أَنْكَ لَا تَرَى لَذَلِكَ أَثَرًا حَتَّى بَيْنَ الْأَحْبَابِ وَالْأَصْحَابِ وَالْجِيرَانِ. أَمَّا الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ فَلَمْ نَسْمَعْ أَنْ أَحَدًا يَصْنَعُ لَهُمُ الطَّعَامَ أَوْ يُهْدِي لَهُمْ غَدَاءً أَوْ عِشَاءً. عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مَهْرَانَ قَالَ: أَتَتْ ابْنُ عَمْرٍَاثْنَانِ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ فِي مَجْلَسٍ فَلَمْ يَقُمْ حَتَّى فَرَقَهَا^(٣).

وَقَالَ بَكْرُ الزَّجَّاجِ لِمَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ فِي عِلَّتِهِ: أَوْصِ فَقَالَ: إِذَا مَاتَ فَتَصَدَّقُوا بِقَمِيصِي هَذَا؛ فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرَجَ مِنَ الدُّنْيَا عَرِيَانًا، كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْهَا عَرِيَانًا^(٤).

وَقَدْ مَاتَ الْوَاقِظِيُّ وَهُوَ عَلَى الْقَضَاءِ، وَلَيْسَ لَهُ كَفَنٌ، فَبَعَثَ الْمَأْمُونُ بِأَكْفَانِهِ^(٥).

(١) الإحياء: (٢٦٢/٣).

(٢) السير: (٢١٦/١).

(٣) صفة الصفوة: (٥٧١/١).

(٤) وفيات الأعيان: (٢٣٢/٥).

(٥) السير ص ٤٦٧.

وقال عبدالرحمن بن عوف: قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كُفّن في بردة؛ إن غُطي رأسه بدت رجلاه، وإن غُطي رجلاه بدا رأسه.
أخي المسلم:

ما بال دينك ترضى أن تُدنسه

وثوبك الدهر مغسولٌ من الدنس

روي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: درهم ينفقه أحدكم في صحته وشحه أفضل من مائة يوصي بها عند موته^(١).

ولهذا كان الأخيار من هذه الأمة ينفقون وهم في صحة وعافية قبل أن تغرغر الروح وتشرق شمس الآخرة.

عن أبي جعفر ابن علي بن الحسين أن أباه قاسم الله - تعالى - ماله مرتين، وقال: إن الله يحب المذنب التواب^(٢).

ومن أدب الصدقة الإخلاص فيها ورجاء ما عند الله نصيحة عون بن عبدالله حيث قال: إذا أعطيت المسكين شيئاً، فقال: بارك الله فيك، فقل أنت: بارك الله فيك؛ حتى تخلص لك صدقتك^(٣).

لأنه يريد أن تكون خالصة لله - عز وجل -، وليس فيها حظ من حظوظ النفس. وقد روي مثل ذلك عن عائشة وغيرها.

فالأمر كما قال الربيع بن خيثم: كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل^(٤).
قال الحسن: المؤمن أحسن الناس عملاً وأشدّهم من الله خوفاً، لو

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٤٥.

(٢) حلية الأولياء: (٣/١٤٠).

(٣) حلية الأولياء: (٤/٢٥٣).

(٤) السير: (٤/٢٥٩).

أنفق في سبيل الله مثل أحدٍ ذهباً ما أمن حتى يعاين^(١).
 جاء سائل إلى ابن عمر - رضي الله عنهما - فقال لابنه: أعطه ديناراً،
 فلما انصرف قال ابنه: تقبّل الله منك يا أبتاه، فقال: لو علمت أن الله
 يتقبل مني سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائباً أحب إليّ من
 الموت، أتدري ممن يتقبل؟ إنما يتقبل الله من المتقين.
أيها المسلم:

أنفق ولا تخش إقلاً فقد قُسمت
 على العباد من الرحمن أرزاق
 لا ينفع البخل مع دنيا مؤلّية
 ولا يضر مع الإقبال إنفاق^(٢)
 كان الليث بن سعد يستغل عشرين ألف دينار كل سنة وقال: ما وجبت
 علي زكاة قط^(٣).
 وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال: أطعموه السكر؛ فإن الربيع
 يحب السكر^(٤).
أخي المسلم:

تأمل ماذا ينفقون؟! إنّه أحب الموجودات إليهم، وأغلاها عندهم،
 وأنفسها في قلوبهم، أمّا نحن فالمنفق منا لا تطيب نفسه إلا بالنطيحة
 والمتردية، أما كرائم أموالنا فنضنّ بها على الآخرة، وننفقها في شراء

(١) الحسن البصري ص ٢٩.

(٢) مكاشفة القلوب ص ١٢٣.

(٣) تاريخ بغداد: (٨٠/١٣).

(٤) الزهد لابن السري: (٣٤٤/١).

الكماليات وعلى الفرش والأحذية . وتجد لدى البعض رجالاً ونساء ما يزيد عن عشرين أو خمسين بل مائة حذاء!! وكأنه جمعها ليسير بها آلاف الأميال!! ومع هذا كله لا يمر شهر أو أكثر إلا وقد اشترى حذاءً جديداً!! وعن العشرين والخمسين والمائة وتركه حيناً سوف يُسأل . ومن السنن المهجورة الانتعال حيناً وتركه حيناً آخر .

وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يوارى به عورته، وجلف الخبز، والماء»^(١). قال مالك بن دينار: إني لأغبط الرجل يكون عيشه كفافاً فيقنع به، فقال محمد بن واسع: أغبط والله عندي من ذلك أن يصبح جائعاً ويُمسي خائفاً، وهو عن الله - عز وجل - راضٍ^(٢).

أيها المنفق:

عشر خصال تبلغ العبد منزلة الأخيار، وينال بها الدرجات:

- أولها: كثرة الصدقة .
- والثاني: كثرة تلاوة القرآن .
- والثالث: الجلوس مع من يذكره بالآخرة، ويزهد في الدنيا .
- والرابع: صلة الرحم .
- والخامس: عيادة المريض .
- والسادس: قلة مخالطة الأغنياء الذين شغلهم غناهم عن الآخرة .
- والسابع: كثرة التفكير في ما هو صائر إليه غداً .

(١) رواه الترمذي . طيف الخبز : الخبز ليس معه إدام

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٧٠).

والثامن: قصر الأمل، وكثرة ذكر الموت.
 والتاسع: لزوم الصمت، وقلة الكلام.
 والعاشر: التواضع، ولبس الدون، وحب الفقراء والمخالطة معهم،
 وقرب اليتامى، والمساكين ومسح رؤوسهم^(١).

ويقال سبع خصال تُربي الصدقة وتعظمها:

أولها: إخراجها من حلال، لأن الله - تعالى - قال: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

والثاني: إعطاؤها من جهد مقل، يعني يعطي من مال قليل.

والثالث: تعجيلها مخافة الفوت.

والرابع: تصفيتها مخافة البخل، يعني يعطيها من أحسن أمواله ولا يعطيها من الرديء، لأن الله - تعالى - قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ يعني لا تأخذونه، يعني الرديء، إذا كان على الآخر لكم قرضاً.

﴿إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ﴾ أي تسامحوا وتساهلوا فيه.

والخامس: يعطيها في السر مخافة الرياء.

والسادس: بعد المن عنها مخافة إبطال الأجر.

والسابع: كف الأذى عن صاحبها مخافة الإثم، لأن الله - تعالى -

قال: ﴿لَا تُبْطِلُوا صِدْقَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]^(٢).

روي عن عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت جالسة ذات يوم إذ

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٥٢.

(٢) تنبيه الغافلين ص ٢٥٣.

جاءتها امرأة سترت يدها في كمّها، فقالت لها عائشة: ما لك لا تخرجين يدك من كمك؟ قالت: لا تسأليني يا أمّ المؤمنين. قالت عائشة - رضي الله تعالى عنها -: لا بدّ لك أن تخبريني. فقالت: يا أمّ المؤمنين! إنّه كان لي أبوان، فكان أبي يحبّ الصدقة وأما أمّي فكانت تبغض الصدقة، فلم أرها تصدقت بشيء إلا قطعة شحم وثوبًا خلقًا، فلمّا ماتا رأيت في المنام كأنّ القيامة قد قامت، ورأيت أمّي قائمة بين الخلق، والخلقة موضوعة على عورتها، ورأيت الشحمة بيدها وهي تلحسها، وتنادي: واعطشاه، ورأيت أبي على شفير الحوض وهو يسقي الماء، ولم يكن عند أبي صدقة أحبّ إليه من سقيه الماء، فأخذت قدحًا من ماء فسقيت أمّي، فنودي من فوق: ألا من سقاها شلت يده، فاستيقظت وقد شلت يدي^(١).

ولنا في رسول الله أسوة حسنة في فعله وقوله لمن كان يرجو الله والدار الآخرة.

عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببردة منسوجة فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره، فقال فلان: اكسنيها، ما أحسنها! فقال: «نعم» فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثمّ رجع فطواها، ثمّ أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت. لبسها النبي ﷺ محتاجًا إليها، ثمّ سألته، وعلمت أنّه لا يردّ سائلًا، فقال: إنّي والله ما سألتها لألبسها، إنّما سألته لتكون كفني. قال سهل: فكانت كفنه^(٢).

(١) تنبيه الغافلين ص ٢١٥.

(٢) رواه البخاري.

وللحثّ على بذل اللباس وستر عورات المسلمين وسدّ حاجتهم قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من كسا مسلماً ثوباً لم يزل في ستر الله ما دام عليه منه خيط أو سلك»^(١).

ومن كان في ستر الله فهو في ظلّ عظيم وخير كثير؛ فإنّ للصّدقة وفعل المعروف تأثيراً عجيباً في شرح الصدور؛ ودفع البلاء، وتوالي الخير، وتتابع النعم.

يقال إن الحسن مرّ به نحّاس ومعه جارية، فقال للنحّاس : أترضى في ثمنها الدرهم والدرهمين؟ قال : لا، قال : فاذهب فإنّ الله - عزّ وجلّ - رضي في الحور العين بالفلس واللقمة^(٢).

أيّها الحبيب:

تذكّر قول الإمام أحمد وأنت تسير خطواتك المحدودة في هذه الدّنيا؛ فإنّ لهذه البداية نهاية، ولهذه الرّحلة وقفة، وللطّريق مهما طال منايا تلوح وسهام تُصيب.

قال الإمام أحمد بن حنبل : إنّما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنّها أيّام قلائل^(٣).

وقال الحسن : أدركت أقواماً لو أنفق أحدهم ملء الأرض ما أمن لعظم الذنب في نفسه^(٤).

نعم يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار، ولذا وصف الله عباده

(١) رواه الترمذي والحاكم.

(٢) الإحياء: (٢٦٨/١).

(٣) السير: (٢١٦/١١).

(٤) جامع العلوم والحكم ص ٢١١.

المتقين الأبرار بقوله - تعالى - : ﴿ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨] وخصهم بالتجرد له في هذه الأعمال : ﴿ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

وبطاعة الله وامثال أوامره وبذل الخير أنزلهم خير منزل وأقامهم في أحسن مقام : ﴿ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان: ١١].

كان أهل المدينة عيالاً على عبدالرحمن بن عوف : ثلث يقرضهم ماله، وثلث يقضي دينهم، ويصل ثلثاً.

إن الكريم ليخفي عنك عسرته
حتى تراه غنياً وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل
زرق العيسون عليها أوجه سود
إذا تكرهت أن تعطي القليل ولا
تكون ذا سمعة لم يظهر الجود
بُثُّ النوال ولا يمنعك قلته
فكل ما سداً فقراً فهو محمود^(١)

قال عبدالملك بن مروان لأسماء بنت خارجة : بلغني عنك خصال فحدثيني بها؟ فقالت : هي من غيري أحسن منها مني، فقال : عزمت عليك إلا حدثتني بها. فقالت : يا أمير المؤمنين! ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط، ولا صنعت طعاماً قط فدعوت عليه قومًا إلا كانوا

أمنّ عليّ مني عليهم، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيئاً فاستكثرت شيئاً أعطيته إيّاه^(١).

ومن أدب الصّدقة الرّفع التّلطّف مع السّائل، وإكرامه بالكلمة الطّيبة والفعل الحسن، فقد كان علي بن الحسن إذا ناول الصّدقة السّائل قبّله ثمّ ناوله^(٢).

جاء رجلٌ من أهل الشّام فقال: دلوني على صفوان بن سليم، فإنّي رأيتّه دخل الجنّة. فقلت: بأيّ شيء؟ قال: بقميص كساه إنساناً.

قال بعضهم: سألت صفوان عن قصة القميص؟ فقال: خرجت من المسجد في ليلة باردة فإذا رجل عريان، فنزعت قميصي فكسوته^(٣).

ولو تفقّدنا منازلنا كلّ سنّة أشهر لوجدنا من الملابس التي لا نحتاج إليها كثيراً جدّاً، فلماذا نتأخّر في دفعها للفقراء والمحتاجين خاصّة أنّنا لا نتوقّف عن الشّراء طوال العام؟! والله يُخشى علينا من العقوبة في هذا الأمر، وربّما يبتلينا الله - عزّ وجلّ - فلا نجد ما نستتر به عوراتنا؛ فإنّ البعض وصل لديهم السّرف والتبذير في ذلك حد الخيال.

قال سالم بن أبي الجعد: خرجت امرأة ومعها صبي لها، فجاء ذئب فاختلس منها الصبي، فخرجت في أثره، وكان معها رغيف، فعرض لها سائل فأطعمته، فجاء الذئب بصبيها حتى رده عليها، فهتف هاتف: هذه لقمة بلقمة^(٤).

(١) الإحياء: (٢٦٥/٣).

(٢) حلية الأولياء: (١٣٧/٣).

(٣) صفة الصفوة: (١٥٤/٢).

(٤) تنبيه الغافلين ص ٥٢١.

وكان علي بن الحسن يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع المساكين في الظلمة ويقول: إِنَّ الصَّدَقَةَ فِي اللَّيْلِ تَطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ^(١).

واتفق العلماء على أن إخفاء صدقة التطوع أفضل وخير من إظهارها؛ لأن ذلك أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، وفيه بعدٌ عما تؤثره النفس من الصدقة، وفائدة ترجع إلى الفقير الآخذ وهي أنه إن أعطي في السر زال عنه الذل والانكسار، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحثيثة^(٢).

والإخلاص لله هو حقيقة الدين ومفتاح دعوة الرُّسل، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى يَرَأِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يَرَأِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يَرَأِي فَقَدْ أَشْرَكَ»^(٣).

والمخلص من يكتُم حسناته كما يكتُم سيئاته.

قال إبراهيم بن بشار: مضيت مع إبراهيم بن آدم في مدينة يقال لها طرابلس ومعني رغيفان ما لنا شيء غيرهما، وإذا سائل يسأل فقال لي: ادفع إليه ما معك فلبثت، فقال: ما لك؟ أعطه، فأعطيته وأنا متعجب من فعله، فقال: يا أبا إسحاق! إنك تلقى غداً ما لم تلقه قط، واعلم أنك تلقى ما أسلفت ولا تلقى ما خلّفت، فمَهَّدْ لِنَفْسِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى يَفَاجِئُكَ أَمْرُ رَبِّكَ، قال: فأبكاني في كلامه، وهَوَّنَ عَلَيَّ الدُّنْيَا، قال: فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ بَكَى وَقَالَ: هَكَذَا كُنْ^(٤).

(١) السير: (٣٩٣/٤).

(٢) الإحكام لشرح أصول الأحكام لابن قاسم: (٢٠٣/٢).

(٣) رَوَاهُ أَحْمَدُ.

(٤) الزهد للبيهقي ٢٥١، صفة الصفوة: (١٥٣/٤).

وأمر الطعام الذي توسعنا فيه وأصبح همنا؛ نأكل ثلاث وجبات كاملة كل يوم، فيها كثير الأصناف والأنواع، ثمَّ ما بين تلك الوجبات نأكل ونشرب وكأننا حيوان مجتر، طول نهارنا لا نتوقف عن المضغ والأكل. لَمَّا نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨) قالوا: يا رسول الله! أي نعيم نسأل عنه؟ وإِنَّمَا هما الأسودان: الماء والتمر؛ وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نُسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون»^(١).

ورسول الله ﷺ نبئ هذه الأمة كما قالت عائشة - رضي الله عنها -: «ما شبع منذ قدم المدينة من خبز ثلاث ليال تباعًا حتَّى قبض»^(٢). سئل سهل التستري: الرجل يأكل في اليوم أكلة؟ قال: أكل الصديقين، قيل له: فأكلتين؟ قال: أكل المؤمنين، قيل له: فثلاث أكلات؟ فقال: قل لأهله يبنوا له معلقًا^(٣).

وقال الحسن: أدركت والذي نفسي بيده أقوامًا ما أمر أحدهم أهله بصنعة طعام قط، فإن قرب إليه شيء أكله وإلا سكت، لا يبالي حارًا كان أو باردًا، وما افترش أحدهم بينه وبين الأرض فراشًا وإنما يتوسد يده فيجمع من الليل، ثم يقوم فيبيت ليلته قائمًا راکعًا ساجدًا، يرغب إلى الله في فك رقبتة^(٤).

وتأمل - أيُّها الأخ الحبيب - بعين التَّفَكُّر والاعتبار في ما قاله بلال بن

(١) فتح القدیر: (٦٠٧/٥).

(٢) رواه البخاري، ومسلم.

(٣) الفوائد ص ٢٣٢.

(٤) حلية الأولياء: (٢٧٠/٦).

سعد: ربّ مسرور مغبّون يأكل ويشرب ويضحك، وقد حقّ له في كتاب الله - عزّ وجلّ - أنّه من وقود النّار^(١).

وذكر جرير بن عبد الحميد أنّ سليمان التيمي لم تُر ساعة قط عليه إلا تصدق بشيء، فإن لم يكن شيء صلى ركعتين^(٢).

عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل امرئ في ظلّ صدقته حتّى يُقضى بين النّاس» قال يزيد: فكان أبو الخير مرثد لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو بكعكة أو بصلة^(٣).

الله أكبر... هذا ما يجدون... وما وجدوا تصدقوا به وأنفقوه، ولقد ذهبوا وذهب كل ذاك وبقي أجر الصدقة وثواب الإنفاق.

وقد يخطر ببال الكثير: كيف أتصدق كل يوم في هذه الأيام؟! والحل سهل ميسور؛ فبالإمكان جعل حصالة أو صندوق في صالة المنزل، ثمّ ضع فيها أنت وأهل بيتك كل يوم ما تجود به نفوسكم قل أو كثر، وفي نهاية كل شهر ادفع ما بها إلى أوجه الخير ومناحي البر. وبعض الأسر وضعت مثل ذلك في مجلس الرجال وفي مجلس النّساء، بل إنهم عودّوا أبناءهم الصّغار حث الضيوف على التّبرع.

قال سليم بن منصور بن عمار: حدثنا أبي قال: دخلت على الليث خلوة، فأخرج من تحته كيساً فيه ألف دينار، وقال: يا أبا السري! لا تعلم بها ابني، فتهون عليه.

وأعرف من كان - رحمه الله - يذهب بالصدقة ضحى أيام رمضان معللاً

(١) صفة الصفوة: (٢١٨/٤).

(٢) السير: (١٩٩/٦).

(٣) رواه أحمد وأبو حنيفة وابن حبان في صحيحهما.

بأن ذلك أنسب الأوقات وأبعد عن العيون؛ فالكل نائم في الدار، وكذلك الجيران وأهل الطريق.

سأل معاوية الحسن بن علي - رضي الله عنهم - عن المروءة والنجدة والكرم فقال:

أَمَّا المروءة فحفظ الرَّجل دينه، وحذر نفسه، وحسن قيامه بضيافته، وحسن المنازعة، والإقدام في الكراهية.

وَأَمَّا النّجدة فالذب عن الجار، والصبر في المواطن.

وَأما الكرم فالتبّرع بالمعروف قبل السُّؤال، والإطعام في المحل. والرّأفة بالسّائل مع بذل الثّائل.

وعندما رفع رجل إلى الحسن بن علي - رضي الله عنهما - رقعة قال له: حاجتك مقضية. فقليل له: يا ابن رسول الله! لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك. فقال: يسألني الله - عز وجل - عن ذل مقامه بن يدي حتى أقرأ رقعته.

وقال ابن السماك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه.

وأتى رجل صديقاً له فدق عليه الباب فقال: ما جاء بك؟ قال: عليّ أربعمئة درهم دين، فوزن أربعمئة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكي، فقالت امرأته: لِمَ أعطيته إذ شق عليك؟ فقال: إنما أبكي لأنني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتيحي^(١).

(١) الإحياء: (٩٧/٣).

وسُئِلَ بعض الأعراب: من سيدكم؟ فقال: من احتمل شتمنا، وأعطى سائلنا، وأغضى عن جاهلنا^(١).

وكان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدُّون إليه الخراج، فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله وليس معه منه شيء^(٢).

هـب الدنيا تُساق إليك عفوًا

أليس مصير ذاك إلى انتقـال

وما دنياك إلا مثل فيء

أظـلَّك ثم آذن بالـزوال

قال رجل: كنت أمشي مع سفيان بن عيينة إذ أتاه سائل فلم يكن معه ما

يعطيه فبكى، فقلت: يا أبا محمد! ما الذي أبكاك؟ قال: أي مصيبة أعظم من أن يؤمل فيك رجل خيرًا فلا يصيبه؟^(٣).

رحمهم الله ورحم زمانًا أظلم وأرضًا أفلتهم، ورزقًا من طيب

سجايهم وكريم خصالهم.

أخي الحبيب:

من دقيق نعم الله على العبد، التي لا يكاد يفطن لها، أنه يغلق عليه

بابه، فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئًا من القـت، ليُعرفه نعمته عليه^(٤).

ومن عظيم نعم الله على العبد أن يسوق إليه الأموال، ثم يدفع إليه من

(١) الإحياء: (٢٦١/٣).

(٢) حلية الأولياء: (٩٠/١).

(٣) وفيات الأعيان: (٢٩٣/٢).

(٤) عدة الصابرين ص (١٧٤).

يعطيه منها ويسأل عن مستحقها ليوصلها، ثم يتقبلها منه وتكون له سترًا عن النار. إنها نعم متتالية.

جاءت امرأة فسألت حسان بن أبي سنان فقال لشريكه: هكذا، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى، فذهب شريكه يزن لها درهمين، فوزن لها مائتين فقالوا: يا أبا عبدالله! كنت تُرضي بهذا كذا وكذا من سائل. فقال: إني ذهبت في شيء لم تذهبوا فيه، إني رأيت بها بقية من الشباب وخشيت أن تحملها الحاجة على بعض ما أكره^(١).

لم يكن عطاؤهم لسد الجوع وملء البطن فحسب، بل حتى الوصول إلى الكفاف والاستغناء؛ لكي لا تحملها الفاقة إلى فساد عرضها ودينها. قال علي بن عيسى الوزير: كسبتُ سبعمئة ألف دينار. أخرجت منها في وجوه البر ستمئة ألف وثمانين ألفًا^(٢).

والسؤال- أيها القارئ-: لو كانت في يدك؟ كم ستخرج وكم ستبقي؟! عندما سئل أبو صفوان الرّعيني: ما هي الدنيا التي ذمها الله في القرآن والتي ينبغي للعاقل أن يتجنبها؟ قال: كل ما أحببت في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أحببت منها تريد به الآخرة فليس منها^(٣). وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يصف الدنيا: حلالها حساب، وحرامها النار.

وقيل لسفيان بن عيينة: ما السخاء؟ قال: السخاء البر بالإخوان والجلود بالمال.

(١) صفة الصفوة: (٣/٣٣٨).

(٢) السير: (١٥/٣٠٠).

(٣) تزكية النفوس ص ١٢٨.

قال: ورث أبي خمسين ألف درهم فبعث بها صرراً إلى إخوانه.
وقال: قد كنت أسأل الله - تعالى - لإخواني الجنة في صلاتي أفأبخل
عليهم بالمال؟

قال يحيى بن معاذ وكأنه يخاطب الكثير في عصرنا: مسكين ابن آدم،
لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة^(١).
وقال الحسن: بذل المجهود منتهى الجود.

وقيل لبعض الحكماء: من أحب الناس إليك؟ قال: من كثرت أيادي
عندي، قيل: فإن لم يكن، قال: من كثرت أيادي عنده.
وقال عبدالعزيز بن مروان: إذا الرجل أمكنتني من نفسه حتى أضع
معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده.

وقال المهدي: لشبيب بن شبة: كيف رأيت الناس في داري؟ فقال: يا
أمير المؤمنين! إن الرجل منهم ليدخل راجياً ويخرج راضياً، وتمثل
متمثل عند عبدالله بن جعفر فقال:

إِنَّ الضَّيْعَةَ لَا تَكُونُ ضَيْعَةً

حَتَّى يَصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ

فَإِذَا اصْطَنَعْتَ ضَيْعَةً فَاعْمِدْ بِهَا

لِلَّهِ أَوْ لِذَوِي الْقَرَابَةِ أَوْ دَعِ

فقال عبدالله بن جعفر: إن هذين البيتين ليخلان الناس، ولكن أطر
المعروف مطراً، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً، وإن أصاب اللئام كنت
له أهلاً^(٢).

(١) تاريخ بغداد: (٣٦٧/١٠).

(٢) السير: (١٤٨/٨).

أما وصاياهم ونصحهم للأمة فلا حد له، وهم إلى الآخرة ينظرون ولتلك الأيام يستعجلون.

قال رجل لسفيان الثوري: أوصني؟ قال: اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، وللآخرة بقدر بقائك: فيها، والسلام^(١).

ولو عملنا للدنيا بقدر بقائنا فيها، وللآخرة بقدر بقائنا فيها؛ لتغيرت الحال، وتبدلت الأعمال، ولكن أين من يجاهد نفسه ويعمل لدار الخلود؟! قال قتيبة: كان الليث (ابن أسعد) يستغل عشرين ألف دينار في كل سنة، وقال: ما وجبت علي زكاة قط^(٢).

فرضت علي زكاة ما ملكت يدي
وزكاة جاهي أن أعيّن وأشفعا
فإذا ملكت فجُدد، فإن لم تستطع
فاجهد بوسعك كله أن تنفعا

قال شفيق بن إبراهيم: بينما نحن ذات يوم عند إبراهيم بن أدهم إذ مر رجل فقال إبراهيم: أليس هذا فلان؟ فقليل: نعم. فقال لرجل: أدركه فقل له: قال لك إبراهيم: لِمَ لَمْ تَسَلِّمْ؟ فقال له. فقال: والله إن امرأتي وضعت وليس عندي شيء فخرجت شبه المجنون. قال: فرجعت إلى إبراهيم، فقلت له، فقال: إنا لله، كيف غفلنا عن صاحبنا حتى نزل به هذا الأمر؟ وقال: يا فلان! إيت صاحب البستان فاستسلف منه دينارين، فادخل السوق فاشتر له ما يصلحه بدينار، وادفع الدينار والآجر إليه.

(١) حلية الأولياء: (٥٦/٧).

(٢) طبقات الحنابلة: (٢٠٤/١).

فدخلت السوق فأوقرت بدينار من كل شيء، وتوجهت إليه فدققت الباب. فقالت امرأته: من هذا؟ قلت: أنا أردت - فلاناً. قالت: ليس هو هاهنا. قلت: فُمري بفتح الباب وتنحّي، قال: ففتحت الباب، فأدخلنا ما على البعير وألقيته في صحن الدار وناولتها الدينار. فقالت: على يدي، من بعث هذا؟ فقلت: قولي: على يد أخيك إبراهيم بن أدهم. فقالت: اللهم لا تنس هذا اليوم لإبراهيم^(١).

وقال علي بن الحسين - رضي الله عنهما -: من وُصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخيًا، وإنما السخي من يتدّى بحقوق الله - تعالى - في أهل طاعته، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله - تعالى - تامًا.

وقيل للحسن: ما السخاء؟ فقال: أن تجود بمالك في الله عز وجل - . قيل: فما الحزم؟ قال: أن تمنه مالك فيه، قيل: ما الإسراف؟ قال: الإنفاق لحب الرئاسة.

ومن آداب الطّعام التي غفلنا عنها وهجرناها دعوة الضعفاء والمساكين والأيتام لمشاركتنا نعم الله - عز وجل - وخيراته، فقد كان عبدالله بن عمر لا يأكل طعامًا إلا وعلى خوانه يتيم.

وأيتام الأمة الإسلامية تتخطفهم الحملات الصليبية، وتخرقهم جيوش الكفر، فأين نحن عن إعانتهم وكفالتهم وتعليمهم؟! بل أين أنت - أخي المسلم - عن أيتام أسرتك ممن هم في أمس الحاجة إلى الرعاية

(١) صفة الصفوة: (٤/٢٥٥).

* ليس المقصود هنا وصفه - جل وعلا - بالنسيان - تعالى عن ذلك - ولكن المقصود: أعظم له الأجر لفعله هذا اليوم.

وربما أنهم من أهل الزكاة وأنت عنهم غافل؟!
 وليبشر كافل اليتيم - وهو القائم على أموره - بمرافقة الرسول ﷺ
 حيث بشره بذلك فقال - عليه الصلاة والسلام -: «أنا وكافل اليتيم في
 الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما^(١).
 عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً،
 وكان أحب إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ
 يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

قال أنس فلما نزلت: ﴿لَنْ نَأْثُرَ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]
 قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ نَأْثُرَ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ تُنْفِقُوا مِمَّا
 تُحِبُّونَ﴾، اللهم إن أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها
 وأدخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ:
 «بخ، ذاك مال رابح، ذاك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها
 في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، قال: فقسمها أبو
 طلحة في أقاربه وبني عمه.

أخي المسلم:

يفني البخیل بجمع المال مدته
 وللحوادث والأیام ما يدع
 كدودة القز ما تبنيه يهدمها
 و غيرها بالذي تبنيه ينتفع
 عن بيان المصري قال: كنت في مكة قاعداً، وشاب بين يدي، فجاءه

إنسان وحمل إليه كيسًا فيه دراهم فوضعه بين يديه، فقال: لا حاجة لي فيه، فقال: فرّقه على المساكين، ففرقه، فلمّا كان العشاء رأته في الوادي يطلب شيئًا لنفسه، فقلت: لو تركت شيئًا مما كان معك؟ فقال: لم أعلم أنني أعيش إلى هذا الوقت.

سأل أعرابي سعيد بن العاص فأمر له بخمسمائة، فقال الخادم: خمسمائة درهم أو دينار؟ فقال: إنما أمرتك بخمسمائة درهم، وإذا قد جاش في نفسك أنها دنائير، فادفع إليه خمسمائة دينار، فلمّا قبضها الأعرابي جلس يبكي، فقال له: ما لك؟ ألم تقبض نوالك؟ قال: بلى والله، ولكن أبكي على الأرض كيف تأكل مثلك^(١).

وبعث محمد بن المنكدر إلى صفوان بن سليم أربعين دينارًا، ثم قال له لبنيه: يا بني! ما ظنكم برجل فرغ صفوان لعبادة ربه - عز وجل -^(٢).

أي كفاه مؤنة البحث عن الرزق وأعانه على أمور الدنيا.

أما من حسب الدنيا مالاً لا ينفد ونعيمًا لا يزول فإليه إحدى تلك العبر من بين مئات يعرفها وتعرفها أنت وأنا.

كان فخر الدولة علي بن ركن (من ملوك بني بويه) يقول: جمعت لولدي ما يكفيهم ويكفي عسكرهم خمس عشرة سنة، وتوفي في قلعة بالري، وكانت مفاتيح خزائنها مع ولده، ولم يحضر، فلم يوجد له كفن، فابتيع من قيّم الجامع الذي تحت القلعة ثوب خلف فيه، واختلف الجند فاشتغلوا عنه حتى أراح، فلم يمكنهم القرب منه، فشدّ بالحبال، وجُزّ

(١) البداية والنهاية: (٩٣/٨).

(٢) صفة الصفوة: (١٤٢/٢).

على درج القلعة من بُعد حتّى تقطع، وكان قد ترك ألفي ألف دينار، وثمانمائة وخمسة وستين ألفاً، وكان في خزائنه من الجوهر والياقوت واللؤلؤ والبلخش والماس أربعة عشر ألفاً وخمسمائة قطعة قيمتها ألف ألف دينار. ومن أواني الفضة ما وزنه ثلاثة آلاف ألف، ومن الأثاث ثلاثة آلاف حمل، ومن السلاح ألف حمل، ومن الفرش ألفان وخمسمائة حمل^(١).

أما الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز فقد قال له مسلمة بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين، إنك أفرغت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتهم عيلة لا شيء لهم، فقال عمر بن عبدالعزيز: أبالفقر تخوفني يا مسلمة؟ أما قولك إنني أفرغت أفواه ولدي من هذا المال، فوالله إنني ما منعتهم حقاً هو لهم وأن بنيّ أحد رجلين: إما رجل يتقي الله فسيجعل الله له رزقاً، وإما رجل مكب على المعاصي فإني لم أكن لأقويه على معصية الله. وعاش أبناء عمر رحمه الله لم يحتاجوا إلى أحد ولا سألوا من بعده.

وحال الأخيار لا يريدون علواً في الأرض، يرون هذه الدنيا خطوات مضي أكثرها، يسهرون لذلك المسير ليلاً بالعبادة مشرقاً، ونهاراً بالطاعة مزهراً.

عن علي بن زيد قال: حج الحسن خمس عشرة حجة ماشياً، وإن النجائب لتتقاد بين يديه، وخرج من ماله لله مرتين، وقاسم الله - عز وجل - ماله ثلاث مرات، حتى إنه كان ليعطي نعلاً ويمسك نعلاً.

عن ميمون بن مهران أن رجلاً من بني عبد الله بن عمر استكساه إزاراً وقال: قد تخرّق إزاري، فقال: ارفع إزارك ثم البسه، فكره الفتى ذلك

(١) شذرات الذهب: (٣/١٢٤).

فقال له عبدالله بن عمر: ويحك، اتق الله ولا تكن من القوم الذين يجعلون ما رزقهم الله - عز وجل - في بطونهم وعلى ظهورهم^(١).

وروي على سلمان الفارسي جبة من صوف فقيل له: لو لبست ألين من هذا؟ قال: إنما أنا عبد، ألبس كما يلبس العبد، فإذا أعتقت لبست ثياباً لا تبلى حواشيها^(٢).

أولئك قوم قال عنهم الحسن: والله لقد أدركت أقواماً ما طوي لأحدهم في بيته ثوب قط، ولا أمر في أهله بصنعة طعام قط، وما جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط^(٣).

ومنهم طلحة بن عبيدالله الذي باع أرضاً له من عثمان بسبعمئة ألف، فحملها إليه، فلمّا جاء بها قال: إن رجلاً تبيت عنده في بيته فلا يدري ما يطرقه من أمر الله لضرير بالله، فبات ورسله تختلف بها في سكك المدينة، حتى أسحر وما عنده منها درهم^(٤).

لا تبخلنّ بدينيا وهي مقبلة
فليس ينقصها التبذير والسرف

وإن تولّت فأحرى أن تجود بها
فالحمدُ منها إذا ما أدبرت خلف^(٥)

اجتمع عند أبي الحسن الأنطاكي نيف وثلاثون نفساً - وكانوا في قرية

(١) صفة الصفوة: (١/٥٧٥).

(٢) التواضع والخمول ص ١٧١.

(٣) حلية الأولياء: (٢/١٤٦).

(٤) صفة الصفوة: (١/٣٤٠).

(٥) الإحياء: (٣/٢٦١).

بقرب الري - ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم، فكسروا الرغفان، وأطفأوا السراج، وجلسوا للطعام، فلما رُفِع فإذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئاً إيثاراً لصاحبه على نفسه^(١).

وقال الربيع: أخذ رجل بركاب الشافعي، فقال لي: أعطه أربعة دنانير واعذرني عنده^(٢).

أما حكيم بن حزام فقد كان يحزن على اليوم الذي لا يجد فيه محتاجاً ليقضي له حاجته حيث قال: ما أصبحت وليس ببابي صاحب حاجة إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها.

وقضى ابن شبرمة حاجة كبيرة لبعض إخوانه فجاء يكافئه بهدية. فقال: ما هذا؟ قال: لما أسديته إلي، فقال: خذ مالك عافاك الله. إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها، فتوضاً للصلاة، وكبر عليه أربع تكبيرات، وعده من الموتى^(٣).

وعلى هذا القياس في أيامنا هذه فالكثير إلى الأموات أقرب.

وذكر أن مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - كان جالساً ذات يوم، فجاء سائل وسأله شيئاً، وكان عنده سلة تمر، فقال لامرأته: ائتيني بها؛ فأخذها مالك فأعطى نصفها إلى السائل، وردَّ نصفها إلى امرأته، فقالت له امرأته: مثلك يسمى زاهداً؟! هل رأيت أحداً يبعث إلى الملك هدية مكسرة؟ فدعا مالك بالسائل وأعطاه البقية، ثم أقبل على امرأته فقال لها: يا هذه اجتهدى ثم اجتهدى؛ فإن الله - تعالى - قال: ﴿ خذُوهُ فَغْلُوهُ فَرِّقُوهُ ﴾

(١) الإحياء: (٢٧٣/٣).

(٢) السير: (٣٧/١٠).

(٣) الإحياء: (١٥٩/٢).

الْحَجِيمَ صَلَوَةٌ ﴿٣١﴾ تُرْفَى سِلْسِلَةً ذَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ فيقال : من أين هذه الشدة؟ قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحاقة : ٣٠ - ٣٤].

اعلمي - أيتها المرأة - قد طرحنا من عنقنا نصفها بالإيمان، فينبغي أن نطرح النصف الآخر بالصدقة^(١).

ومن أثر الصدقة العاجل في الدنيا ما نراه في هذه الواقعة التي جرت على يدي عبدالله بن جعفر حين خرج إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه، إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله، وعبدالله ينظر إليه، فقال : يا غلام ! كم قوتك كل يوم؟! قال : ما رأيت ! قال : فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال : ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعًا فكرهت أن أشبع وهو جائع، قال : فما أنت صانع اليوم؟ قال : أطوي يومي هذا، فقال عبدالله بن جعفر : ألام على السخاء ! إن هذا الغلام لأسخى مني . فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فعتق الغلام ووهبه منه^(٢).

والله - عز وجل - جواد كريم يعطي الجزيل على العمل القليل، حتى وإن كان في الدواب والبهائم.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، ثم خرج

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٥٢.

(٢) الإحياء : (٣٧٣/٣).

فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه، حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له^(١) قالوا: يا رسول الله! إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: «في كل كبدٍ رطبة أجر»^(٢).

وفي رواية أخرى: «بينما كلب يطيف (يدور) بركية (بئر) قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فاستقت له به، فسقته، فغُفِّر لها به»^(٣).

حدّث محمد بن الفضل عن رجل من أهل البصرة قال: كان أعرابي صاحب ماشية، وكان قليل الصدقة، فتصدق بغريض من غنمه، (يعني بسخلة مهزولة) فرأى فيما يرى النائم كأنها أقبلت عليه غنمه كلها تنطحه، فجعل الغريض يحامي عنه، فلمّا انتبه قال: والله لئن استطعت لأجعلن أتباعك كثيرة. قال: وكان بعد ذلك يعطي ويقسم^(٤).

وها هو جعفر بن محمد بن علي، من شدة ثقته بالله - عز وجل - يطعم حتى لا يبقى لعياله شيء^(٥).

وكان أنس بن سيرين يُفطّر كل ليلة من رمضان خمسمائة إنسان^(٦). أما صدقة اللباس الذي يشترك في مهمة عظيمة، وهي ستر العورة، وما زاد عن ذلك فهو سواء قل أو كثر. فإنهم أصحاب أيادٍ بيضاء وصدقة لا تنقطع.

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) تنبيه الغافلين ص ٢٥٢.

(٤) صفة الصفوة: (٢/١٦٩).

(٥) شذرات الذهب: (١/١٥٧).

قال قراد أبو نوح: رأى عليّ شعبة قميصاً، فقال: بكم اشتريت هذا؟ فقلت: بثمانية دراهم، فقال لي: ويحك، أما تتقي الله؟ ألا اشتريت قميصاً بأربعة دراهم وتصدقت بأربعة كان خيراً لك؟ قلت: يا أبا سظام، أنا مع قوم نتجمل لهم، قال: أيش نتجمل لهم؟^(١)

أخي الحبيب:

كان عمرو بن قيس الملائي يقول: إذا سمعت شيئاً من الخير فاعمل ولو مرة به تكن من أهله.

اعمل الخير ما استطعت وإن كان قليلاً فلن تحيط بكلِّه ومتى تفعل الكثير من الخير

— إذا كنت تاركاً لأقلِّه^(٢)

قال محمد بن إسحاق: كان الناس من أهل المدينة يعيشون، لا يدرون من أين كان معاشهم، فلمّا مات علي بن الحسن فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل^(٣).

وجاءت امرأة إلى الليث بن سعد فقالت: يا أبا الحارث! إن ابناً لي عليل واشتهى عسلاً فقال: يا غلام، أعطها مرطاً من عسل (المرط عشرون ومائة رطل).

وكان أحمد بن إبراهيم، كثير الصدقة، سأله سائل فأعطاه درهمين، فحمد الله فجعلها خمسة، فحمد الله فجعلها عشرة، ثم ما زال يزيده

(١) صفة الصفوة: (٣/٣٥٠).

(٢) أدب الدنيا والدين ص (٢٠٤).

(٣) البداية والنهاية: (٩/١١٧).

ويحمد السائل الله حتى جعلها مائة فقال : جعل الله عليك واقية باقية .
فقال للسائل : والله لو لزمت الحمد لأزيدنك ولو إلى عشرة آلاف درهم^(١) .
وعندما عوتب الحسن بن سهل وقد كثر عطاؤه على اختلال حاله فقيل
له : ليس في السرف خير ، قال : بل ليس في الخير سرف^(٢) .
وقد اشترى خالد الطحان نفسه من الله أربع مرات ؛ فتصدق بوزن نفسه
فضة أربع مرات .

وإن من علائم الخير في الأمم أن ترى أبناءها في حياتهم الشخصية
والعائلية لا ينفقون إلا بقدر معتدل ، ولا يبذلون إلا ما هو في حدود
الكفاية . ولكنهم في حياتهم الاجتماعية أسخياء كرماء لا يعرفون للكرم
حدودًا ولا غاية ، هكذا يعيش أبناء العالم المتحضر اليوم ، يقتصد أحدهم
في الإنفاق على نفسه إلى درجة تقرب من البخل ، فترى الغني يلبس
الثوب البسيط ، ولكنه ينفق الملايين على جامعة تؤسس ، أو على ميثم
ينشأ ، أو على بحث من أبحاث العلم يحتاج إلى من يتفرغ له .
ولقد سبقهم أهل الإسلام بذلك ؛ فلقد كان أبو بكر - رضي الله عنه -
في حياته الخاصة من أبسط الناس معيشة ومأكلاً وملبسًا ، حتى إذا احتاج
المسلمون إلى المال للإنفاق في غزوة تبوك أخرج ماله كله .

وهذا عثمان - رضي الله عنه - ، الغني ، يصيب الناس في عهد عمر
قحط وشدة ، فتأتيه قافلة من الشام ألف جمل ، عليها أصناف الطعام
واللباس مما لا يُقدر في تلك المحنة بثمان ، فيجيئه التجار يطلبون أن

(١) البداية والنهاية : (١١/١٣١) .

(٢) وفيات الأعيان : (٢/١٢١) .

يبيعهم هذه القافلة، فيقول: كم تعطوني ربخاً؟ قالوا: خمسة في المائة، قال: إني وجدت من يعطيني أكثر، فما زالوا يزيّدونه حتى أعطوه عشرة بالمائة، فقال لهم: لقد وجدت من يعطيني أكثر؛ فتصدق بها^(١).

وبعض الأسر المتحضرة المتعلمة تتميز بصفاء القلب، وكرم النفس وسخاء اليد، فلها في ذلك سهام تصل إلى الفقراء والمساكين والجيران وذوي الرحم، وهم مع هذا الإنفاق أهل مأكّل وملبس لا يتميز عن غيرهم، رغم أنهم نشأوا في غنى قديم ونعمة متواترة، وغداً تضم القبور من أكل كثيراً ومن لم يأكل إلا قليلاً، ومن لبس الحرير ومن لبس دون ذلك، ولكن يبقى العمل وتتجلى أنوار العبادة في قبور مظلمة وصحبة موحشة.

سئل سعيد بن عبدالعزيز عن الكفاف من الرزق ما هو؟ فقال: شبع يوم وجوع يوم^(٢).

حتى متى تُسقى النفوس بكأسها
ريب المنون وأنت لاه ترتع
أفقد رضيت بأن تعلل بالمنى
وإلى المنية كل يوم تدفع
أحلام نوم أو كظـل زائل
إن الليـب بمثلها لا يخـدع
فتزود ليوم فقرك دائماً
واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع^(٣)

(١) أخلاقنا الاجتماعية، د. مصطفى السباعي ص ٢١.

(٢) تذكرة الحفاظ: (٢١٩/١).

(٣) السير: (٢١٦/٤).

وهذه نداءات خاصة للنساء فقد قال رسول الله ﷺ: «تصدقن يا معشر النساء لو من حليكن»^(١).

وقال ﷺ: «يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن الاستغفار؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار»^(٢).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أنفقت المرأة في طعام زوجها غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئاً»^(٣).

ومن صور الاستجابة في عهد الرسول ﷺ ما روته أم سنان الأسلمية - رضي الله عنها - في غزوة العسرة حين قالت: «لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي النبي ﷺ في بيت عائشة - رضي الله عنها - فيه مُسْك، ومعاضد، وخلاخيل، وأقرطة، وخواتيم، وقد مُلئ، مما بعث من النساء يُعِنُّ به المسلمين في جهازهم»^(٤).

والدعوة عامة لنا جميعاً معشر الرجال والنساء، قال الله - تعالى - في عطاء جزيل ومنة عظيمة من رب كريم رحيم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

شبه الله - سبحانه - نفقة المنفق في سبيله - سواء كان المراد بها الجهاد

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الجماعة.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر: (٤/٣٥٠).

أو جميع سبل الخير من كل حبة - بمن بذر بذراً، فأنبئت كل حبة منه سبع سنابل، اشتملت كل سنبل على مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك، بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها، ووقوعها موقعها.

فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه، غير جزع ولا هلع، ولا متبعه نفسه، ترجف يده وفؤاده^(١).

أخي الحبيب:

تأمل في قول الله - تعالى -: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦].

وأبشر ببشارة من رب الأرض والسموات: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

بعد هذه النداءات المتتالية وصور الإنفاق الطيبة لا تكن كمن قال الله عنهم: ﴿ هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ۖ وَأَنتُمْ الْفُقَرَاءُ ۗ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

ولا تكن ممن هم أشد من أولئك: ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ

(١) التفسير القيم للإمام ابن القيم ص ١٥٠.

يَا بَخْلَ وَيَكْمُوتُ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ [النساء: ٣٧].

فإننا والله كما قال الربيع بن خيثم: أصبحنا ضعفاء مذنبين، نأكل
أرزاقنا وننتظر آجالنا^(١).

بل وكما قال المغيرة: أصبحنا مغرقين في النعم، عاجزين عن الشكر،
يتحجب إلينا ربنا وهو غني عنا، وتممقت إليه ونحن إليه محتاجون^(٢).

أخي المسلم.. أختي المسلمة:

إن هذا المال الذي هو نعمة أرسله الله إلينا وجعلنا أمناء عليه، ربما
يتحول إلى نقمة إذا لم يكن عونًا على الطاعة وبلية إذا لم يكن طريقًا إلى
الجنة، ولا ندعي كذبًا ونباهي زورًا أننا جمعناه بجدنا واجتهادنا وعرق
جباهنا. فقد قال قارون مثل ذلك: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ
اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ
ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [القصص: ٧٨].

بل احمد الله أن جعلك ممن نالهم هذا الخير، وكُل وأطعم، والبس
وأكس، وأنفق وتصدق ليوم تشخص فيه الأبصار، واحمد الله - عز
وجل - على أن جعلك تُعطي ولا تأخذ، وتصدق ولا يُصدق عليك.

أخي المسلم:

وأنت تسير في طريق الإنفاق، لا يغوينك الشيطان ويصدنك عن فعل
الخير، واستحضر هذه الآية في كل حين: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا

(١) صفة الصفوة: (٦٧/٣).

(٢) تزكية النفوس ص ٩٦.

رَزَقْتَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ ﴿البقرة: ٢٥٤﴾.

ولا تظن أيها الأخ الحبيب أن أبواب الصدقة مقتصرة على دفع المال فحسب، بل هناك أنواع من الصدقة كثيرة دون المال، فمن ذلك ما قاله الرسول ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»^(١).

وعن أبي ذر جندب بن جنادة - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله! أي العمل أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله».

قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا».

قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق».

قلت: يا رسول الله! أرايت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك»^(٢).

وفي حديث آخر جمع فيه الرسول ﷺ أنواعاً من الصدقة فقال: «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الإثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»^(٣).

ومن أعظم الصدقات صدقة الجاه، وقضاء حوائج الناس، والشفاعة لهم، خاصة في هذا الزمن؛ قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلقاً خلقهم

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

لحوائج الناس، يفرّج الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله»^(١).

وقال ﷺ: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب»^(٢).
ومن أعظم الصدقات إصلاح ذات البين، فقد قال رسول الله ﷺ:
«أفلا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟» قالوا بلى يا
رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين»^(٣).

أخي الحبيب:

قال رسول الله ﷺ: «إنَّك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أجرت
عليها حتّى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك»^(٤).

فأبواب الخير كثيرة، وجوّد البر معلومة، جعلني الله وإياك ووالدينا
من الحامدين الشاكرين الذين ينفقون في السراء والضراء، ممن يُنادون
يوم القيامة: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

(١) رواه الطبراني.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) متفق عليه.



مفتاح دعوة الرسل

المقدمة

الحمد لله وحده لا شريك له، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
وبعد :

فإن تربية النفوس وتزكيتها أمر مهم غفل عنه أمةٌ من الناس، ومع انتشار الخير وكثرة من يسلك طريق الاستقامة إلا أن البعض يروم الصواب ولا يجده وينشد الجادة ويتيه عنها، وقد انبرى لهم الشيطان فاتخذ هؤلاء مطية ومركباً يسير بهم في لجة الرياء والسمعة والعجب . ولخطورة الأمر وعظمه وردت الجَمُّ وأدليت بدلوي ونزعت نزعاً لا أدعي كماله، وحسبي منه اجتهد مُقَّصر ومحبة الخير لي وللمسلمين .

وهذا هو الجزء «السابع عشر» من سلسلة «أين نحن من هؤلاء؟» تحت عنوان : «مفتاح دعوة الرسل» .

رزقنا الله الإخلاص في القول والعمل، وجعل أعمالنا صواباً خالصة لوجهه الكريم لا رياء فيها ولا سمعة .

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخل

إن الإخلاص هو حقيقة الدين، ومفتاح دعوة الرسل - عليهم السلام - قال الله - تعالى - : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة : ٥] . وقال - جل وعلا - : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣] . وقال - تعالى - : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [المالك : ٢] .

قال الفضيل ابن عياض : هو أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً وصواباً ، والخالص : أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة . ثم قرأ قوله - تعالى - : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] . وقال الله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء : ١٢٥] .

قال ابن كثير : أي أخلص العمل لربه - عز وجل - فعمل إيماناً واحتساباً^(١) .

فإسلام الوجه : إخلاص القصد والعمل لله .
والإحسان فيه : متابعة رسوله ﷺ وسنته .
أما حال من قصد غير وجه الله - عز وجل - فقد قال عنهم - جل وعلا -

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٠ .

في محكم كتابه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وهي الأعمال التي كانت على غير السنة أو أريد بها غير وجه الله^(١).

وعن أبي هريرة مرفوعاً: «قال الله - تعالى -: أنا أغني الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٢). وقال ﷺ: «من صلى يرأى فقد أشرك، ومن صام يرأى فقد أشرك، ومن تصدق يرأى فقد أشرك»^(٣).

وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٤).
أخي المسلم:

إن الإخلاص أهم أعمال القلوب المندرجة في تعريف الإيمان، وأعظمها قدراً وشأناً، بل إن أعمال القلوب عموماً أكد وأهم من أعمال الجوارح.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن الأعمال القلبية: وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين لله، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف

(١) مدارج السالكين، ص ٩٣.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد.

(٤) متفق عليه.

منه، والرجاء له، وهذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين^(١).

ولأهمية ذلك وعظم أمره قال أحد العلماء: وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أتى على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك.

وحتى هذا العلم الذي ينفع الله به البلاد والعباد إذا لم يكن صاحبه صادق الإخلاص لله عز وجل في طلبه ثم في بذله فإنه متوعد يوم القيامة على لسان رسوله ﷺ حيث قال: «من تعلم علماً مما يُتغنى به وجه الله - عز وجل -، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة (يعني ريحها) يوم القيامة»^(٢).

والله - عز وجل - مطلع على السرائر وما تخفي الأنفس، لا ينظر إلى الصور وما ملكت اليد؛ فهو صاحب الفضل ومُسدي النعم، ولكنه ينظر إلى ما في داخل الصدور من الإيمان به والتصديق برسالاته والعمل بمقتضى ذلك.

عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٣).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وبالجمله كل حظ من حظوظ الدنيا

(١) مجموع الفتاوى ٥/١٠.

(٢) رواه أبوداود.

(٣) رواه مسلم.

تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب - قل أم كثر - إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه . والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس^(١).

والرياء : هو أن يُرى الناس أنه يعمل عملاً على صفة وهو يضمّر في قلبه صفة أخرى، فهو مستحق للذم والعقاب، ولا ثواب له إلا فيما خلصت فيه النية لله تعالى .

قال الحافظ : الرياء إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدونه عليها . والفرق بينه وبين السمعة، أن الرياء لما يُرى من العمل، كالصلاة والصدقة، والسمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث به . وهو البحر الذي لا ساحل له وقل أن ينجو منه، فمن أراد بعلمه غير وجه الله، أو نوى شيئاً إلى غير الله وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته، والإخلاص أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونياته^(٢).

واعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً، ويسمى الفعل المصطفى المخلص : إخلاصاً^(٣) .
وقيل : الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن .
والرياء : أن يكون ظاهره خيراً من باطنه .
والصدق في الإخلاص : أن يكون باطنه أعمر من ظاهره .

(١) الإحياء ٤/٤٠٠ .

(٢) حاشية كتاب التوحيد، لابن قاسم، ص ٢٦٤ .

(٣) الإحياء ٤/٤٠٠ .

وقيل : الإخلاص : نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق . ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله^(١) .

وتجمع المراءى به خمسة أقسام ، وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس :

القسم الأول: الرياء في الدين بالبدن :

وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة الأكل ، وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين ، وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفريغ لتسريح الشعر ، ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذي خفض من صوته أو الجوع هو الذي ضعف قوته .

الثاني: الرياء بالهيئة والزّي :

أما الهيئة فتشعيث شعر الرأس وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه .

والمراءون بالزّي على طبقات : فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المنحرفة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا .

وأما أهل الدنيا ، فمراءاتهم بالتبخر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطى والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة .

(١) مدارج السالكين ، ص ٩٥ .

الثالث: الرياء بالقول :

ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار، لأجل الاستعمال في المحاورة، وإظهار لغزارة العلم، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي، وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه، ليعرف أنه بصير بالأحاديث، والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه، والمجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوته في علم الدين. والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاسيح في العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

الرابع: الرياء بالعمل :

كمراءة المصلي بطول القيام ومد الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس، وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون، وتسوية القدمين واليدين، وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وبإطعام الطعام، وبالإحبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام، حتى أن المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفاً من أن ينسبه

إلى العجلة وقلة الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له، بل هو لا اطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء الصالحين.

الخاص: المراءة بالأصحاب والزائرين والمخالطين:

كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال إن فلاناً قد زار فلاناً، وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه، ومباهاته ومراءاته تترشح منه عند مخاطبته، فيقول لغيره: من لقيت من الشيوخ؟ وأنا قد لقيت فلاناً وفلاناً ودرت البلاد وخدمت الشيوخ، وما يجري مجراه.

فهذه مجامع ما يراي به المراءون، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.

ومنهم: من يقنع بحسن الاعتقادات فيه، فكم من راهب انزوى إلى ديرة سنين كثيرة، وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق، ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته، بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه فإنه نوع قدرة وكمال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال.

ومن المرائين: من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس من ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد.

ومنهم: من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه.

ومنهم: من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة.

ومنهم: من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام، وهؤلاء شر طبقات المرأين الذين يراءون بالأسباب التي ذكرناها. فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء^(١).

وقد توعده الله - عز وجل - المرأين فقال - تعالى - : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۖ وَيَسْمَعُونَ أَلْمَاعُونَ ۖ﴾ [الماعون: ٤ - ٧]

وقال - تعالى - : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقْتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَأَلَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وأسباب الرياء وبواعثه ترجع إلى ثلاثة أصول هي:

الأول: حُب لذة الحمد والثناء من الناس.

الثاني: الفرار من الذم.

الثالث: الطمع فيما في أيدي الناس من مال وجاه وغيره.

ولأن هذه البواعث تطرق الإنسان وتأخذ بيد من وافقها فقد حذر النبي ﷺ من الرياء لخفائه وعدم ظهوره، بل وجهل بعض الناس بأمره. عن أبي سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك الخفي».

وقد سماه خفياً لأنه عمل قلب لا يعلمه إلا الله، ولأن صاحبه يظهر أن

عمله لله، وقد يقصد به غيره، أو شكه فيه بتزيين صلاته لأجله.
وعن شداد بن أوس قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر^(١).

قال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق والحلف بغير الله وقول الرجل ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت، وقد يكون هذا أكبر بحسب حال قائله ومقصده، ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله^(٢).

وقال - رحمه الله تعالى -: فالسجود، والعبادة، والتوكل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والتحسب، والتوبة، والنذر، والحلف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً، والطواف بالبيت، والدعاء، كل ذلك محض حق الله، ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل^(٣).

هذا إذا كان لا يجوز لملك مقرب ولا نبي مرسل فما بالك بمن يصرف بعضاً من ذلك أو يسيره رياءً لمن يرى من رؤسائه ومدرائه!! وسُمتة لمن يسمع من أقاربه أو معارفه وجيرانه؟!

أخي المسلم:

للمرائي علامات ذكرها علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله:
للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في

(١) رواه ابن جرير وغيره وصححه الحاكم.

(٢) حاشية كتاب التوحيد، ص ٢٦٧.

(٣) الجواب الكافي ص ١٨٠.

الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه وينقص إذا ذم^(١).
 إذا السر والإعلان في المؤمن استوى
 فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
 فإن خالف الإعلان سرّاً فماله
 على سعيه فضل سوى الكد والغنا
 وسأل رجل شقيق بن إبراهيم فقال: إن الناس يسمونني صالحاً،
 فكيف أعلم أنني صالح أو غير صالح؟ فقال شقيق:
أولاً: أظهر شرك عند الصالحين، فإن رضوا به فاعلم أنك صالح، وإلا
 فلا.

ثانياً: اعرض الدنيا على قلبك، فإن ردها فاعلم أنك صالح.
ثالثاً: اعرض الموت على نفسك، فإن تمتته فاعلم أنك صالح، وإلا
 فلا.

فإذا اجتمعت فيك هذه الثلاثة فتضرع إلى الله - تعالى - لكي لا يدخل
 الرياء في عملك فيفسد عليك أعمالك^(٢).

وكثر حديث النفس في المجالس مباحة ورياء.. فهذا سعي لبناء
 مسجد: فتراه يذكر قصته من أول يوم وما واجهه من عقبات وصعوبات
 وكيف تعب وشقي حتى أتم الأمر كله!!

والآخر يتحدث عن صدقته وأنه يوصلها للأيتام بنفسه ويحكي ما رأى
 على سبيل حظ النفس وأنه ذهب في الحر الشديد ودخل أحياء موحشة!!

(١) الإحياء: ٣/٣١٣.

(٢) تنبيه الغافلين: ١/٢٤.

وتلك تتحدث عن جهدها في الدعوة وكم شريطاً اشترت وكم كتاباً وزعت!!

وهكذا يكون اللسان في كثير من المجالس وبالأعلى صاحبه!!
وأما من ابتلي بأعمال ظاهرة للناس فتراه يتصنع التعب وضيق الوقت وكثرة الداخلين والخارجين وأن هموم الإسلام على ظهره!! فسبحان الله ما أجهله.. ولقد قارب الفلاح ولكن الشيطان أبى!!

يهوى الثناء مبرز ومقصر

حبّ الثناء طبيعة الإنسان

قال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور^(١).
قال ابن القيم لا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس، ولا شيء أصلح لها من شهود العبد منة الله وتوفيقه والاستعانة به والافتقار إليه وإخلاص العمل له^(٢).

أخي الحبيب:

إن العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه^(٣).

وفي العمل القليل الخالص لوجه الله - عز وجل - بركة وأجر عظيم.
قال سري السقطي: لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما، خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً أو سبعمائة بعلو.

(١) مدارج السالكين ص ٩٩.

(٢) الفوائد ص ٦٤.

(٣) المجموعة السعدية ٢/ ٢٦٢.

وقال بعضهم: في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز.
ويقال: العلم بذر، والعمل زرع، وماؤه الإخلاص^(١).
ومن ثمرات الإخلاص وصدق التوجه إلى الله - عز وجل - ما نراه في
حال السلف - رحمهم الله -.

قال سفیان بن عیینة: ما أخلص عبدُ الله أربعين يوماً إلا أنبت الله الحكمة
في قلبه نباتاً، وأنطق لسانه بها، وبصره عيوب الدنيا داءها ودواءها^(٢).
هذا إذا كان هدفه من هذا الإخلاص وجه الله - عز وجل - وليس لهدف
أن ينبت الله في قلبه الحكمة أو غيرها. فإنها حينئذ تنصرف إلى الجهة
والقصد. ومن قصد الله وجده، ومن يَمِّم نحو هدف كالحكمة أو هدف
آخر فإن إخلاصه ينثلم!!

ومن جاهد نفسه يوماً بعد آخر وشهراً بعد شهر فإن الله - عز وجل -
يسر له أمر الإخلاص والانقطاع له ويجعل له نفعاً ولعمله قبولاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والمأمور به أمران: عملٌ باطن وهو
إخلاص الدين لله، وعملٌ ظاهر وهو ما شرعه الله لنا من واجب
ومستحب؛ وخلق كثير يعبدون غير الله، وخلق كثير يتدعون عبادة لم
يأذن بها الله، وكثير من الناس عملهم ليس خالصاً لله ولا موافقاً لشريعة
الله، مبتدعة ضلال يُشَرِّعون ديناً لم يأذن به الله.

سئل حمدون القصار: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال:
لأنهم تكلموا العز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم

(١) الإحياء ٣٩٩/٤.

(٢) حلية الأولياء ٢٨٧/٧.

لعز النفوس، وطلب الدنيا، ورضا الخلق^(١).

استعدوا للآخرة وتجهزوا لها وعملوا للإسلام وبدلوا له فكان لهم النفع والقبول، ثم طوت الأيام صفحتها وقل نظيرهم ونذر جنسهم. فالهوى والنفس الأماره والشيطان كل يجاذب الإنسان في طريق!! وها هو الشيطان في خداع مع الإنسان يبحث له عن مدخل ويطرق عليه جميع الأبواب.

قال الحسين بن زياد: لا يترك الشيطان الإنسان حتى يحتال له بكل وجه، فيستخرج منه ما يُخبر من عمله، لعله يكون كثير الطواف، فيقول: ما كان أحلى الطواف الليلة، أو يكون صائماً، فيقول: ما أثقل السحور، وما أشد العطش، فإن استطعت أن لا تكون محدثاً ولا متكلماً ولا قارئاً، إن كنت بليغاً، قالوا: ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوته، فيعجبك ذلك فتنتفخ، وإن لم تكن بليغاً قالوا: ليس يُحسن يُحدث، وليس صوته بحسن، أحزنك وشق عليك، فتكون مرأئياً، إذا جلست فتكلمت ولم تبال من ذمك ومن مدحك من الله فتكلم^(٢).

وعليك بإخلاص النية وصدق الالتجاء إلى الله - عز وجل - فإن في ذلك فلاح الدارين. حكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد.. قال: أجاهده، قال: فإن عاد.. قال: أجاهده.. قال: هذا يطول. أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٢٢.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٩١.

وأرده جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك^(١).

أخي الحبيب:

من مداخل الشيطان العُجب وهو الدرجة الأولى في سلم الكبر والعياذ بالله. والعجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المُنعم.

والعجب أنواع: فمن الناس من يعجب بصحته وقوته وتناسب أعضائه وحسن صورته، فليعلم أن ذلك من نصيب الدود وأن كل من عليها فإن، وقد قال سليمان عليه السلام: «لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل منهن تنجب فارساً يجاهد في سبيل الله» ولم يقل إن شاء الله، فلم تنجب منهن إلا واحدة ولدت نصف طفل، قال رسول الله ﷺ: «لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله»^(٢).

ومن الناس من يعجب بعقله واستكشافه لبطائن الأمور الدينية والدنيوية، وثمره هذا العجب أن تجده مستبداً برأيه مستجهاً لغيره معرضاً عن سماع آراء الآخرين. فليفكر هذا العاقل فيما لو ابتلاه الله بمرض في دماغه لجن عقله وطار لبه، وذهب فكره، فليحمد الله على العافية وليشكره على النعمة.

ومن الناس من يعجب بنسبه ويظن أنه ناج لا محالة، أليس هو ابن فلان؟ فليعلم هذا الغافل أن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، وأن النبي

(١) تلييس إبليس، ص ٣٧.

(٢) متفق عليه.

ﷺ نادى أقرب الناس إليه «يا فاطمة: اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً» (١).

ومن الناس من يعجب بكثرة أولاده وأهله وعشيرته، وهذا يكفيه قول الله - تعالى -: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤ - ٣٧].

فأني عجب بمن يتركك في أشد أحوالك، ويهرب منك في أخرج أوقاتك؟.

ومن الناس من يعجب بماله وغناه، فليقرأ قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

وقول رسوله ﷺ: «بينما رجل يتبختر في حلة قد أعجبته نفسه مرّجّل جمته إذ خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» (٢).

ومن الناس من يعجب بعبادته، وهذا إنما أوتي من جهله، لأنه لا يدري أقبلت عبادته أم لا؟.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما الإخلاص فهو حقيقة الإسلام إذ [الإسلام] هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

فمن لم يستسلم لله فقد استكبر ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام، والإسلام ضد الشرك والكبر (٣).

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) مجموع الفتاوى ١٤/١٠.

قال مسروق: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله^(١).

بل لله الحمد في الأولى والآخرة. فله الحمد على نعمة الإسلام، وله الحمد على نعمة الهداية والتوفيق، وله الحمد أن يسر لنا العمل الصالح، وندعوه عز وجل كما يسر لنا ذلك ووقفنا له أن يوفقنا إلى قبول العمل الصالح الخالص لوجهه الكريم، وأن يتجاوز عن تقصيرنا فهو صاحب الإحسان العظيم ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

عن عمر - رضي الله عنه - قال: إن من صلاح توبتك أن تعرف ذنبك، ومن صلاح عملك أن ترفض عجبك، ومن صلاح شكرك أن تعرف تقصيرك.

وتأمل فقههم في الدين وعلمهم بعظمة الله - عز وجل - على العباد وحقوقه على عباده، قال مطرف بن عبدالله: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً^(٢).

وروى عن عائشة - رضي الله عنها - أن رجلاً سألها فقال: متى أعلم أنني مُحسن؟ قالت: إذا علمت أنك مسيء.. قال: ومتى أعلم أنني مسيء؟ قالت: إذا علمت أنك محسن.

قال ابن القيم: كثر الخلق إذا نالوا الرئاسة تغيرت أخلاقهم ومالوا إلى الكبر وسرعة الانفعال، فمن الغلط أن تطالبه بالأخلاق التي كان

(١) رواه الدارمي.

(٢) السير ١٠٩/٤.

يعامل بها قبل الرئاسة؛ ومخاطبة الرؤساء بالقول اللين مطلوب شرعاً وعقلاً، وهكذا كان ﷺ يخاطب العشائر والقبائل^(١).

ولخوف سلف الأمة على أنفسهم ومهابتهم من الله - عز وجل - قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من صحابة رسول الله ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه^(٢).

ولهذا قال سهل بن عبد الله: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركته وسكونه في سره وعلايته لله تعالى، لا يمازجه شيء، لا نفس، ولا هوى، ولا دنيا.

والعجب إحدى الآفات التي تفسد الأعمال، وتهلك العباد، وهو أحد العوارض التي تعرض للعالمين أثناء سيرهم إلى الله - تعالى -، فمنهم من يباهي بنفسه أنه تصدق بكذا وكذا، وآخر أنه صلى كذا وكذا، والثالث أنه يدعو إلى الله منذ عشر سنين. وكل ذلك عجبٌ ومباهاة!!

والعجب داء ينافي الإخلاص ويضاده، ويجافي الذل والافتقار لله تعالى، فهو سوء أدب مع الله - جل جلاله - كما أن العجب يجانب محاسبة النفس، ويُعمي عن معرفة أدواء النفس وعيوبها.

قال أبو الليث السمرقندي: من أراد أن يكسر العجب فعليه بأربعة أشياء:

أولها: أن يرى التوفيق من الله - تعالى -، فإذا رأى التوفيق من الله - تعالى - فإنه يشغل بالشكر ولم يعجب بنفسه.

(١) المجموعة السعدية ٢١٨/٢.

(٢) تنبيه الغافلين، ص ٢٥٢.

الثاني: أن ينظر إلى النعماء التي أنعم الله بها عليه فإذا نظر في نعمائه اشتغل بالشكر عليها واستقل عمله ولم يعجب به .

الثالث: أن يخاف أن لا يتقبل منه، فإذا اشتغل بخوف القبول لا يعجب بنفسه .

الرابع: أن ينظر في ذنوبه التي أذنب قبل ذلك، فإذا خاف أن ترجع سيئاته على حسناته فقد قل عجبه، وكيف يعجب المرء بعمله ولا يدري ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة، وإنما يتبين عجبه وسروره بعد قراءة الكتاب^(١).

قال عبدالله بن المبارك: العجب أن ترى عندك شيئاً عند غيرك^(٢). وهذا أصل مرض إبليس حيث قال الله - تعالى - قاصداً اعتراضه على السجود لآدم - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢] فأعجبت المسكين نفسه حيث ظن أن النار خير من الطين، فأورثه ذلك العجب خسران الأبد، والعياذ بالله .

وهذا قارون أعجب بنفسه وماله فقال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨] فأهلكه الله - تعالى - حيث خسف به الأرض .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وكثيراً ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ والمعجب لا يحقق قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فمن حقق قوله:

(١) تنبيه الغافلين، ص ٢٥٢ .

(٢) السير ٤٧/٨ .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١) خرج عن الإعجاب (١).

قال المحاسبي: يجمع العجب خصالاً شتى: يعمى عليه كثير من ذنوبه، وينسى مما لم يعم عليه منها أكثر، وما ذكر منها كان له مستصغراً، وتعمى عليه أخطاؤه، وقوله بغير الحق، ويخرجه ذلك إلى الكبر والتعظيم على العباد، ويغتر بالله - عز وجل - ويدل عليه بعلمه وعمله، حتى كأن له منة على ربه عز وجل، فحينئذ ينقطع عن الله - عز وجل - عصمته، ويكمله إلى نفسه، فيرى أنه من المحسنين وهو عند الله من الظالمين الفاسقين (٢).

قال النووي: وطريقة في نفي الإعجاب: أن يعلم أن العلم فضل من الله - تعالى -، ومنة عارية، فإن الله تعالى ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فينبغي أن لا يعجب بشيء لم يخترعه، وليس مالكا له، ولا على يقين من دوامه (٣).

أخي المسلم:

كل عملك الذي تقدمه قليل في جنب الله وإن ظهر لك مثل الجبال . . فاجمع على قلبك الخوف والرجاء، وتذكر قول ابن عون: لا تثق بكثرة العمل فإنك لا تدري أيقبل منك أم لا؟! ولا تأمن ذنوبك فإنك لا تدري أكفرت عنك أم لا؟! إن عملك مغيب عنك كله (٤).

(١) الفتاوى ٢٧٧/١٠.

(٢) الرعاية، للمحاسبي، ص ٣٣٧.

(٣) المجموع ٥٥/١.

(٤) جامع العلوم والحكم، ص ٢١١.

قال ابن بطال: في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف، لأنه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسل، وإن كان هالِكاً ازداد عتواً، فحجب عنه^(١).

وكان الحسن يروي أن عائشة - رضي الله عنهما - رأت رجلاً متماوتاً، فقالت: ما بال هذا؟ فقالوا: إنه صالح، فقالت: لا أبعد الله غيره، كان عمر - رضي الله عنه - أصلح منه، وكان إذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، فدعوا التصنع فإن الله لا يقبل من متصنع عملاً. وروي عن بعض الصالحين أنه كان يقول: أفضل الزهد، إخفاء الزهد وكان يقول: من تزين للناس بما لا يعلمه الله منه شأنه ذلك^(٢).

وداء الرياء ليس في الحياة فحسب بل قد يصاحب أناساً بعد الموت. قال بشر بن الحارث: قد يكون الرجل مرئياً بعد موته، يحب أن يكثر الخلق في جنازته^(٣).

بل وبعضهم يُحب أن يكون طاغوتاً يعبد بعد موته من دون الله؛ فهو يسارع في آخر حياته إلى بناء [ضريحه] وتجميله واختيار الصنائع الماهرة لبنائه مخالفاً أمر الله - عز وجل - وأمر رسوله ﷺ في التحذير من ذلك والنهي عنه!!

وما أحسن قول سهل بن عبد الله: ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب^(٤).

(١) فتح الباري ١١/٣٣٠.

(٢) الزهد، للحسن البصري، ص ١٩٠.

(٣) السير ١٠/٤٧٣.

(٤) جامع العلوم والحكم، ص ٢١.

وهاك أيها القارئ جوهرة من جواهر شيخ الإسلام ابن تيمية وهو
يصور للمرائي سقوط ما يسعى إليه وتهافت ما يبحث عنه حيث قال:
رضا الناس غير مقدور وتحصيله غير مطلوب...!

ومن ذا الذي يقدر على إرضاء الناس!! وهل في كتاب الله وسنة
رسوله ﷺ ما يبحث على السعي لتحصيل هذا الرضا والقبول؟! بل إن أكثر
الناس كما قال الله - تعالى - عنهم: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ
يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ
بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وهذا بحد ذاته يجعل الإنسان يركن إلى عزيز جبار ويلجأ إلى فاطر
السموات والأرض بعيداً عن تحصيل رضا فلان وعلان... فإن رضي الله
عنك فأنت في خير وإلى خير.

قال الفضيل بن عياض: تزيت لهم بالصوم فلم ترهم يرفعون بك
رأساً، تزيت لهم بالقرآن فلم ترهم يرفعون بك رأساً، تزيت لهم بشيء
بعد شيء. إنما هو لحب الدنيا^(١).

وقال الحسن: إن كان الرجل جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان
الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي
الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعر به، ولقد أدركنا أقواماً ما
كان على ظهر الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في سر فيكون
علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون الدعاء وما يسمع لهم صوت،
إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ذلك أن الله - عز وجل - يقول: ﴿أَدْعُوا

(١) صفة الصفة ٢/ ٢٤٠.

رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴿ [الأعراف: ٥٥] وذلك أن الله - تعالى - ذكر عبداً صالحاً ورضي قوله فقال: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (١) [مريم: ٣].
قال يعقوب: المخلص من يكتسب حسناته كما يكتسب سيئاته (٢)

وانظر إلى كرم الله - عز وجل - وجوده لمن أخلص له في عمله وصدق في توجهه واستقبل الآخرة وخلف الدنيا وأهلها وراءه!!

يقول ابن تيمية: إذا كان العبد مخلصاً له اجتباؤه ربه، فيحيي قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مرّ بعطفه (٣) آماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيراً عبداً لمن لو اتخذه هو عبداً له لكان ذلك عيباً ونقصاً وذمماً، وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب. ومن لم يكن خالصاً لله عبداً له، قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل من سواه، ويكون ذليلاً له خاضعاً وإلا استعبده الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه (٤).

وتأمل في حال من أخلص لله قلبه وتوجه بقلبه لله عز وجل، يقول

(١) تركية النفوس، ص ١٧.

(٢) أي بجانبه.

(٣) مجموع الفتاوى ٢١٦/١٠.

العلامة ابن القيم: وقد جرت عادة الله التي لا تبدل وستته التي لا تحول أن يلبس المخلص من المهابة والنور والمحبة في قلوب الخلق وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيته ومعاملته لربه، ويلبس المرائي اللابس ثوبي الزور من المقت والمهانة والبغضة ما هو اللائق به.

فالمخلص له المهابة والمحبة وللآخر المقت والبغضاء، وقد شرط الله لقبول العبادات وصحتها أن تكون خالصة له سبحانه وأن ينوي بها العبد التقرب إلى الله وإلا كانت عادة وليس عبادة، يقول الله - تعالى -: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وثبت في الصحيحين وغيرهما، قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١).

فساد النية في الغالب مرجعه إلى الشبهات والشهوات فإذا كثرت الشكوك والشبهات سبب ذلك الانحراف، وكذلك إذا كثر ورود شهوات على القلب أشرب حبها وأخذ يسعى في تحقيقها، وصدق الله العظيم: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الذين يدفعون زكاة أموالهم إلى السلطان خشية أن تضرب أعناقهم، أو تنتقص حرمتهم، أو تؤخذ أموالهم، وعن الذين يقومون يصلون خوفاً على دماءهم أو أموالهم أو أعراضهم. تحدث عنهم واصفاً إياهم بالنفاق والرياء ثم قال: عندنا وعند

(١) رواه البخاري ومسلم.

أكثر العلماء، أن هذه العبادة فاسدة، لا يسقط الفرض بهذه النية^(١).
عليك - أخي الحبيب - بجهد النفس وإلزامها العجادة وترك الرياء
والتصنع للناس فإنك يا ابن آدم كما قال الحسن: رحم الله رجلاً لم يغره
كثرة ما يرى من الناس.

ابن آدم: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك،
وتحاسب وحدك!!^(٢).

واعلم - أخي الحبيب - أن من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما
زيد في عمله زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه
وحذره، وكلما زيد في عمره نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله زيد
في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من الناس
وقضاء حوائجهم والتواضع لهم^(٣).

قال الحسن: السجود يذهب بالكبر والتوحيد يذهب بالرياء^(٤).

وقال بعضهم: إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً ومنعه ثلاثاً، أعطاه
صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه
الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها^(٥).

والشهرة التي يسعى إليها البعض من أهل الدنيا تنافي الإخلاص إذا
كان الهدف منها الجاه وإبراز النفس والته على الآخرين، أما إذا أتت

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/٢٦.

(٢) حلية الأولياء ١٥٥/٢.

(٣) الفوائد، ص ٢٠١.

(٤) التواضع والخمول، ص ٢١٠.

(٥) الإحياء ٣٩٩/٤.

طائعة مرغمة فإنها من أنواع الابتلاء الذي يحتاج إلى جهاد ومدافة
لحظوظ النفس!!

قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله عبد أحب الشهرة^(١).
يقول ابن الجوزي: واعلم أن المؤمن لا يريد بعمله إلا الله سبحانه
وتعالى، وإنما يدخل عليه خفي الرياء فيلبس الأمر، فنجاته منه صعبة،
وفي الحديث مرفوعاً عن يسار قال لي يوسف ابن سباط: تعلموا صحة
العمل من سقمه فإني تعلمته في اثنين وعشرين سنة.
وفي الحديث مرفوعاً عن إبراهيم الحنظلي قال: سمعت بقية بن الوليد
يقول: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: تعلمت المعرفة من راهب يقال له
سمعان، ودخلت عليه في صومعته فقلت له: يا سمعان، منذ كم أنت في
صومعتك هذه؟ قال: منذ سبعين سنة.. قلت: ما طعامك؟ قال:
يا حنيفي، وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم. قال: في كل ليلة
حمصة.. قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟
قال: ترى الذي بحذائك؟ قلت: نعم، قال: إنهم يأتونني في كل سنة
يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها يعظمونني بذلك، وكلما
تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها تلك الساعة. فأنا أحتمل جهد سنة لعز
ساعة. فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد. فوقر في قلبي المعرفة.
فقال: أزيدك؟ قلت: نعم، قال: انزل عن الصومعة. فنزلت، فأدلى إلي
ركوة فيها عشرون حمصة.. فقال لي: ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت
إليك، فلما دخلت الدير اجتمعت النصارى، فقالوا: يا حنيفي، ما الذي

أدلى إليك الشيخ؟ قلت: من قوته، قالوا: وما تصنع به ونحن أحق؟ ساوم. قلت: عشرين ديناراً، فأعطوني عشرين ديناراً فرجعت إلى الشيخ فقال: أخطأت، لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك، هذا عز من لا يعبد، فانظر كيف تكون بعز من تعبد، يا حنيفي: أقبل على ربك^(١).

أخي المسلم:

لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضرب والحوث، فإذا حدثت نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهّل عليك الإخلاص^(٢).

عن يحيى بن أبي كثير قال: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل^(٣). قال ابن تيمية - رحمه الله - : النية المجردة عن العمل يثاب عليها، والعمل المجرد عن النية لا يثاب عليه، ومن نوى الخير وعمل منه مقدوره وعجز عن إكماله كان له أجر عامل.

ومع كثرة مشاغل الحياة وجهل البعض ترى من لا يستحضر النية الصالحة في نومه وأكله وشربه ليؤجر عليها!!

ومما ينبغي التذكير به في هذا الموضوع هو أن الإخلاص إذا تمكن من طاعة ما فكانت هذه الطاعة خالصة لوجه الله - تعالى -، فإننا نشاهد أن الله - تعالى - يجزي الجزاء الكبير والعطاء العظيم لهؤلاء المخلصين، وإن

(١) تلبس إبليس، ص ١٥٣.

(٢) الفوائد، ص ١٩٥.

(٣) حلية الأولياء ٣/٣٠٧.

كانت الطاعة في ظاهرها يسيرة أو قليلة .

يقول ابن تيمية في هذا الشأن: والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله به كبائر كما في حديث البطاقة. فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق، كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم يقولون التوحيد، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة .

ثم ذكر ابن تيمية حديث البغي التي سقت كلباً فغفر الله لها . . والرجل الذي أمارط الأذى عن الطريق فغفر الله له، ثم قال: فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها. فالأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإجلال^(١).

وفي المقابل نجد أن أداء الطاعة بدون إخلاص وصدق مع الله، لا قيمة لها ولا ثواب، بل صاحبها متعرض للوعيد الشديد، وإن كانت هذه الطاعة من الأعمال العظام كالإنفاق في وجوه الخير، وقتال الكفار، ونيل العلم الشرعي كما جاء في حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت

(١) منهاج السنة ٦/٢١٨.

القرآن ليقال: قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتني به فعرفه نعمه فعرفها، قال: ما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»^(١)

ومن الخوف العظيم من تسلط الرياء على الإنسان وخسران العمل وضياع الجهد.

قال محمد بن أسلم: لو قدرت أن أتطوع حيث لا يراني ملكاي، لفعلت خوفاً من الرياء^(٢).

يقول ابن القيم في بيان عظم أعمال القلوب: أعمال القلوب هي الأصل، وأعمال الجوارح تبع ومكملة، وإن النية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فموات، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح^(٣).

ويقول - رحمه الله -: ومن تأمل الشريعة، في مصادرها ومواردها، علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وإنما أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد من الأعمال التي ميزت بينهما؟ وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت^(٤).

(١) رواه مسلم.

(٢) السير ١٢/٢٠٠.

(٣) بدائع الفوائد ٣/٢٢٤.

(٤) بدائع الفوائد ٣/٣٣٠.

ومن فوائد الإخلاص لله عز وجل وابتغاء مرضاته ما قاله أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوسوس والرياء^(١).
قال موري العجلي: ما أحب أن يعرفني بطاعته غيره^(٢).

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟

كان محمد بن يوسف الأصبهاني لا يشتري زاده من خباز واحد وقال: لعلهم يعرفوني فيحابوني، فأكون ممن أعيش بديني^(٣).
ومرّ حمزة الزيات برجل فاستسقى، ثم قال: أنت ممن يحضرنا في القراءة، قال: نعم، قال حمزة: لا حاجة لنا في مائك^(٤).
ودخل عبدالله بن محيريز حانوتاً وهو يريد أن يشتري ثوباً، فقال رجل لصاحب الحانوت: هذا ابن محيريز فأحسن بيعه، فغضب ابن محيريز وخرج، وقال: إنما نشترى بأموالنا، لسنا نشترى بديننا^(٥).
واليوم - والله المستعان - كثر المشترون بدينهم!!

أخي المسلم:

السنة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه في طاعة فثمرته شجرة طيبة، ومن كانت في معصية فثمرتها حنظل، وإنما يكون الجداد يوم المعاد، فعند الجداد يتبين حلو الثمار من مرها.

(١) مدارج السالكين، ص ٩٦.

(٢) التواضع والخمول، ص ١٣.

(٣) حلية الأولياء ١٣١/٨.

(٤) صفة الصفوة ١٥٦/٣.

(٥) صفة الصفوة ٢٠٦/٤.

والإخلاص والتوحيد شجرة في القلب، فروعها الأعمال، وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك^(١).

قال مالك بن دينار: الخوف على العمل أن لا يُقبل، أشد من العمل^(٢).
وصدق، فإن الكثير تحولت لديه العبادة إلى عادة يجريها بلا روح وبدون حضور قلب!!

وقد أوصى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بوصية جامعة مانعة فقال للعاملين: كونوا بقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل، فإنه لن يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل يتقبل؟^(٣).

ولهذا كانوا يحرصون على تخليص العمل من الرياء والسمعة، فأخفوه حتى عن أقرب الأقرباء وأصنفى الأصفياء.

قال محمد بن واسع: إن كان الرجل ليكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به^(٤).

وقال بعضهم: الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله^(٥).

أما وهب بن منبه فإنه يذكر لنا قصة رجل من أفضل أهل زمانه، وكان يزار فيعظم، فاجتمعوا إليه ذات يوم فقال: إنا قد خرجنا من الدنيا وفارقنا

(١) الفوائد، ص ٢١٤.

(٢) حلية الأولياء ٢/٣٧٧.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص ١٧٠.

(٤) صفة الصفوة ٣/٢٦٩، حلية الأولياء ٢/٣٤٧.

(٥) مدارج السالكين، ص ٩٥.

الأهل والأموال مخافة الطغيان، وقد خفت أن يكون قد دخل علينا في هذه حالة من الطغيان أكثر مما يدخل على أهل الأموال في أموالهم. أرانا يحب أحدنا أن تقضى له حاجته، وإن اشترى بيعاً أن يقارب لمكانه دينه، وإن لقي حياً ووفر لمكان دينه، فشاع ذلك الكلام حتى بلغ الملك فعجب به فركب إليه ليسلم عليه وينظر إليه، فلما رآه الرجل قيل له: هذا الملك قد أتاك ليسلم عليك، فقال: وما يصنع؟ قال: للكلام الذي وعظت به، فسأل غلامه: هل عندك طعام؟ فقال: شيء من ثمر الشجر مما كنت تفطر به، فأمر به، فأتي على مسح فوضع بين يديه، فأخذ يأخذ منه، وكان يصوم النهار ولا يفطر، فوقف عليه الملك فسلم عليه فأجابه بإجابة خفيفة وأقبل على طعامه يأكله، فقال الملك: أين الرجل؟ فقيل له: هو هذا!! قال: هذا الذي يأكل؟ قالوا: نعم، قال: فما عند هذا من خير، فأدبر، فقال الرجل: الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به^(١).

وقيل: كان الحسن يقول: روي أنه من قبل الله - تعالى - من عمله حسنة واحدة أدخله بها الجنة، قيل: يا أبا سعد، فأين تذهب حسنة العباد؟ فقال: إن الله - عز وجل - إنما يقبل الخالص الطيب المجانب للعجب والرياء، فمن سلمت له حسنة واحدة فهو من المفلحين^(٢).

وعندما جاء سائل إلى ابن عمر - رضي الله عنه - قال لابنه: أعطه ديناراً، فلما انصرف قال ابنه: تقبل الله منك يا أبتاه، فقال: لو علمت أن الله يتقبل مني سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائب أحب إلي من

(١) تليس إبليس، ص ١٥٣.

(٢) الزهد، للحسن البصري، ص ١٦٠.

الموت، أتدري ممن يُتقبل؟ إنما يتقبل الله من المتقين .
 ويقول ابن الجوزي: ما أقل من يعمل لله - تعالى - خالصاً، لأن أكثر
 الناس يحبون ظهور عباداتهم . واعلم أن ترك النظر إلى الخلق، ومحو الجاه
 من قلوبهم بالعمل وإخلاص القصد وستر الحال، هو الذي رفع من رفع .
 فقد كان أحمد بن حنبل يمشي حافياً في وقت، ويحمل نعليه في
 يديه، ويخرج للقاط، وبشر يمشي حافياً على الدوام وحده، ومعروف
 الكرخي يلتقط النوى . واليوم صارت الرياسات من كل جانب، وما
 تتمكن الرياسات حتى يتمكن من القلب الغفلة، ورؤية الخلق، ونسيان
 الحق، فحينئذ تطلب الرياسة على أهل الدنيا .

ولقد رأيت من الناس عجباً حتى من يتزيا بالعلم، إن رأني أمشي
 وحدي أنكر عليّ، وإن رأني أزور فقيراً عظم ذلك، فقلت: فواعجباً هذه
 كانت طريق الرسول ﷺ والصحابة - رضي الله عنهم - فصارت أحوال
 الخلق نواميس لإقامة الجاه، لا جرم والله سقطتم من عين الحق،
 فأسقطكم من عين الخلق .

فالتفوا إخواني إلى إصلاح النيات، وترك التزين للخلق، ولتكن
 عمدتكم الاستقامة مع الحق، فبذلك صعد السلف وسعدوا^(١) .

وللحائرين الذين لم يجدوا الجادة . . ها هو قول الفضيل يرسم لهم
 منارات لهذه الحيرة وعلامات لما خفي من علم الشريعة: ترك العمل من
 أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص: أن يعافيك
 الله منهما^(٢) .

(١) صيد الخاطر، ص ٢٢٦ باختصار .

(٢) تزكية النفوس، ص ١٧، مدارج السالكين، ص ٩٥ .

وتأمل في حال السؤال يوم القيامة عن كل كبيرة وصغيرة زانها الإخلاص أو شانها الرياء، وهل هي صواب على الجادة أم تفرقت بها السبل!!؟

قال الثوري: يُسألون والله عن كل شيء، حتى التبسم، فيم تبسمت يوم كذا وكذا؟^(١).

وعن سفيان بن عيينة قال: قال رجل من العلماء: اثنتان أنا أعالجهما منذ ثلاثين سنة: ترك الطمع فيما بيني وبين الناس، وإخلاص العمل لله - عز وجل -^(٢).

ويروى عن بعضهم قال: غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة، فقلت أشتريها فأنتفع بها في غزوي فإذا دخلت مدينة كذا بعثها فربحت، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغزاة، فأملى عليه: خرج فلان متزهاً وفلان مرثياً وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله، ثم نظر إلي وقال: اكتب: فلان خرج تاجراً، فقلت: الله الله في أمري!! ما خرجت أتجر وما معي تجارة أتجر فيها، ما خرجت إلا للغزو، فقال: شيخ، قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها، فبكيت وقلت: لا تكتبوني تاجراً. فنظر إلى صاحبه وقال: ما ترى؟ فقال: اكتب: خرج فلان غازياً إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله - عز وجل - فيه بما يرى^(٣).

وتأمل أخي الكريم في قول الحسن: ما ضربت ببصري ولا نطق

(١) الورع، لعبد الله ابن حنبل، ص ١٩٣.

(٢) حلية الأولياء ٢٧١/٧.

(٣) الإحياء ٣٩٩/٤.

بلساني ولا بطشت بيدي ولا نهضت على قدمي، حتى أنظر أعلى طاعة أو على معصية، فإن كانت طاعة تقدمت وإن كانت معصية تأخرت^(١).

قال ابن تيمية - رحمه الله - : فإن الله - تعالى - لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «يقول الله - تعالى - : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً فأشرك فيه معي غيري فأنا منه بريء، وهو كله للشرك» وثبت في الصحيح حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار، القاريء المرائي، والمجاهد المرائي، والمتصدق المرائي - وقد مضى ذكره قريباً - بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه^(٢).

وقال رجل لعبادة بن الصامت : أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجهه الله - تعالى - ومحمدة الناس، قال : لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات، كل ذلك يقول : لا شيء لك، ثم قال في الثالثة : إن الله يقول : «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك»^(٣) . . الحديث .

وكان عبدالله بن المبارك يضع اللثام على وجهه عند قتاله في سبيل الله، ولذا قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له^(٤).

(١) الورع، لابن أبي الدنيا، ص ١١٦ .

(٢) مجموع الفتاوى ٤٨/١٠ .

(٣) الإحياء ٣/٣١٣ .

(٤) صفة الصفوة ٤/١٤٦ .

قال عون بن عبد الله في نصيحة للمتصدقين والمنفقين: إذا أعطيت المسكين شيئاً فقال: بارك الله فيك، فقل أنت: بارك الله فيك، حتى تخلص لك صدقتك^(١).

لأنه يريد بهذه الوصية أن تكون صدقتك خالصة لله عز وجل وليس فيها حظ من حظوظ النفس.. وقد روي مثل ذلك عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -.

وهذا الحسين بن زياد وكأنه يخاطب أحداً على ضعفنا وقصورنا وتفريطنا وتسويفنا فيقول: تُريد الجنة مع النبيين والصديقين، وتريد أن تقف المواقف مع نوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام، بأي عمل؟! وبأي شهوة تركتها لله عز وجل؟! وأي قريب بعدته في الله وأي قريب قربته في الله؟

قال ابن رجب: العمل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين، قال - تعالى -: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالاً يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه، وإن كان أصله لله ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن

كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أو لا فيجazy على أصل نيته، فيه خلاف رجح أحمد وغيره لا يبطل بذلك، وأنه يجazy بنيته الأولى.

ولا يظن الظان أنه يكتفى فيه بحبوط عمله فلا له ولا عليه، قال الشيخ: بل هو مستحق للذم والعقاب، وقد دل الكتاب والسنة على حبوط العمل بالرياء، وجاء الوعيد عليه.

وأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله الثناء الحسن في قلوب المؤمنين، ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر بذلك لم يضره، وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(١)، وفي حديث أبي هريرة: يدخل علي الرجل في بيتي وأنا أصلي فيسرني ذلك، فقال: «يرحمك الله لك أجران، أجر السر وأجر العلانية» لأنه لم يقصد رؤية أحد عند الشروع، ولا قام بقلبه أن يراه أحد^(٢).

وسأورد لك أخي القارئ بعضاً من دقائق الرياء التي لا تخفى على كثير من الناس وخفاياها على النحو التالي:

أولها: ما ذكره أبو حامد الغزالي في إحيائه حيث قال أثناء ذكره للرياء الخفي: وأخفى من ذلك أن يختفي [العامل بطاعته] بحيث لا يريد الاطلاع، ولا يسر بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يشنوا عليه، وأن

(١) رواه مسلم.

(٢) حاشية كتاب التوحيد، لابن قاسم، ص ٢٦٦.

يوسعوا له في المكان، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه، ووجد لذلك استبعاداً في نفسه، كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يُطلع عليه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله، ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من ديبب النمل، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر، ولا يسلم منه إلا الصديقون^(١).

ثانيها: فهو أن يجعل الإخلاص لله وسيلة - لا غاية وقصداً - لأحد المطالب الدنيوية.

وقد نبه شيخ الإسلام على تلك الآفة الخفية فكان مما قال - رحمه الله -: حُكي أن أبا حامد الغزالي بلغه أن من أخلص لله أربعين يوماً تفجّرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، قال: فأخلصت أربعين يوماً فلم يتفجر شيء، فذكرت ذلك لبعض العارفين، فقال لي: إنك إنما أخلصت للحكمة، ولم تخلص لله - تعالى -.

ثم قال ابن تيمية: وذلك لأن الإنسان قد يكون مقصوده نيل العلم والحكمة، أو نيل المكاشفات والتأثيرات، أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم إياه، أو غير ذلك من المطالب، وقد عرف أن يحصل ذلك بالإخلاص لله وإرادة وجهه، فإذا قصد أن يطلب ذلك بالإخلاص لله وإرادة وجهه كان متناقضاً، لأن من أراد شيئاً لغيره فالثاني هو المراد المقصود بذاته، والأول يراد لكونه وسيلة إليه. فإذا قصد أن يخلص لله

ليصير عالماً أو عارفاً أو ذا حكمة أو صاحب مكاشفات وتصرفات ونحو ذلك، فهو هنا لم يرد الله، بل جعل الله وسيلة له إلى ذلك المطلوب الأدنى^(١).

ولذا يقول الشاطبي - رحمه الله -: إن الفاعل للسبب عالماً بأن المسبب ليس إليه، وإذا وكله إلى فاعله وصرف نظره عنه كان أقرب إلى الإخلاص، فالمكلف إذا لبي الأمر والنهي في السبب من غير نظر إلى ما سوى الأمر والنهي، خارج عن حظوظه، قائم بحقوق ربه، واقف موقف العبودية، بخلاف ما إذا التفت إلى المسبب وراعه، فإنه عند الالتفات إليه متوجه شطره، فصار توجهه إلى ربه بالسبب، بواسطة التوجه إلى المسبب، ولا شك في تفاوت ما بين الرتبين في الإخلاص^(٢).

ولما ذكر الشاطبي حكاية من أخلص أربعين يوماً، قال - رحمه الله -: وهذا واقع كثيراً من ملاحظة المسيبات [النتائج والعواقب] في الأسباب، وربما غطت ملاحظاتها فحالت بين المتسبب وبين مراعاة الأسباب، وبذلك يصير العابد مستكثراً لعبادته، والعالم مغترأ بعلمه، إلى غير ذلك^(٣).

ومن دقائق الرياء وهو ثالثها . . ما أشار إليه ابن رجب - رحمه الله - بقوله: وها هنا نكتة دقيقة، وهي أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس، يريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عند نفسه؛ فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه السلف

(١) الدرر ٦/٦٦، ٦٧.

(٢) الموافقات ١/٢١٩، ٢٢٠.

(٣) الموافقات ١/٢٢٠.

الصالح، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: كفى بالنفس إطراء أن تذمها على الملاء كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه^(١).
أخي المسلم:

الإخلاص وإخفاء العمل عن الناس عزيز وصعب المنال!! فما بالك وأنت في دارك بل وفي وسط بيتك وبين أهلك؟!
قال الخريبي: كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها^(٢).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

كان عمل الربيع بن خيثم كله سرًا، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه^(٣).

ولهذا قال الزبير بن العوام - رضي الله عنه -: أيكم استطاع أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل^(٤).

وقال سهل بن منصور: كان بشر (ابن منصور) يصلي فيطول، ورجل وراءه ينظر، ففطن له، فلما انصرف قال: لا يعجبك ما رأيت مني، فإن إبليس قد عبد الله دهرًا مع الملائكة^(٥).

وروي عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء فقالت له امرأته: لو تمشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء، فقال: هذه مشية لا أعرفها، وأنا

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان.. ص ٤٦، نقلًا عن الإخلاص والشرك الأصغر.

(٢) السير ٣٤٩/٩.

(٣) حلية الأولياء ١٠٧/٢.

(٤) الزهد، لابن المبارك، ص ٣٩٢.

(٥) السير ٣٦/٨.

أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة. فكأنه لم تحضره في هذه المشية تعلق بالدين فلم يجز الإقدام عليها^(١).

قال ابن المبارك: رب عمل صغير تعظمه النية^(٢).

قال الفضيل بن عياض: كانوا يراءون بما يعملون، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون.

وهؤلاء كثروا في هذا الزمن وينطبق عليهم وعيد الله - عز وجل - : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

فما أكثر المدّعين لأعمال غيرهم، خاصة إذا كانوا في الواجهة من مدراء أو كبراء أو غيرهم، فترى الواحد منهم ينسب عمل من تحت يده إليه ويباهي بذلك، ولا يستحيي من الله ولا من الخلق!! أما استصحاب النية في عمل فإن الكثير مفرط فيه، وقليل من ينوي تحويل العادة كالأكل والنوم إلى عبادة بنية صادقة.

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية تفصيلاً دقيقاً في هذا الأمر فيقول: ينبغي ألا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة، ويقصد الاستعانة بها على الطاعة^(٣).

فالمسلم إذا قصد بنومه وأكله وشربه أن يتقوى بها على طاعة الله، كي يتمكن من قيام الليل والجهاد في سبيل الله، فهذا مثاب على هذه الأعمال بهذه النية. وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال لسعد بن أبي وقاص:

(١) الورع، لعبد الله ابن حنبل، ص ١٢٢، الإحياء ٢/ ١١٠.

(٢) جامع العلوم والحكم، ص ١٤.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/ ٤٦٠.

«إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك»^(١).

قال النووي: وضع اللقمة في في الزوجة يقع غالباً في حال المداعبة ولشهوة النفس في ذلك مدخل ظاهر، وعلى ذلك إذا وجه القصد في تلك الحالة إلى ابتغاء الثواب حصل له بفضل الله^(٢).

وقد حث العلماء ورغبوا في استحضار النية عند المباحات والعاديات، ليثاب عليها ثواب العبادات مع أنه لا مشقة علينا في القيام بها، بل هي مألوفة لنفسه مستلذة، وهذا من عظيم سعة رحمة الله، أن أباح لعبده الطيبات التي يشتهيها، ثم مع ذلك يشبه عليها بحسن نيته^(٣). قال يحيى بن كثير: تعلموا النية، فإنها أبلغ من العمل^(٤).

وقال زبيد: أحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في طعامي وشرابي^(٥).

وعن سفيان الثوري قال: ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي، لأنها تتقلب عليّ^(٦).

قال مطرف بن عبد الله: صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية^(٧).

(١) رواه البخاري.

(٢) فتح الباري ٣٧/١.

(٣) كتاب الإخلاص، لعمر الأشقر، ص ١٥٦.

(٤) حلية الأولياء ٧٠/٣.

(٥) حلية الأولياء ٦١/٥.

(٦) جامع العلوم والحكم، ص ١٢.

(٧) جامع العلوم والحكم، ص ١٢.

وقال عكرمة: إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لأن النية لا رياء فيها^(١).

يقول ابن القيم رحمه الله: على قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في معالي الأمور يكون توفيقه سبحانه وإعانتة. فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر همهم ونياتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب عكس ذلك، فالله - سبحانه - أحكم الحاكمين وأعلم العالمين يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به ويضع الخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم؛ وما أوتي من أوتي إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء. وملاك ذلك كله الصبر.

أخي الحبيب! أين نحن من هؤلاء؟!

كان عمرو بن قيس الملائي إذا حضرته الرقة يحول وجهه إلى الجائط ويقول لجلسائه: هذا الزكام^(٢).

وقيل: وعظ يوماً فتنفس رجل الصعداء، فقال: يا ابن أخي، ما عساك أردت بما صنعت؟ إن كنت صادقاً فقد شهرت نفسك، وإن كنت كاذباً فقد أهلكتها، ولقد كان الناس يجتهدون في الخفاء وما يسمع لأحدهم صوت، ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يستكمل القرآن فلا يشعر به جاره، ولقد كان الآخر يتفقه في الدين ولا يطلع عليه صديقه، ولقد قيل لبعضهم: ما أقل التفاتك في الصلاة وأحسن خشوعك؟ فقال: يا ابن

(١) الإحياء ٣/٣١٤.

(٢) صفة الصفوة ٣/١٢٤.

أخي، وما يدريك أين كان قلبي؟^(١).
 وكان أيوب السخثياني يقوم الليل كله، فيخفي ذلك، فإذا كان عند
 الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة^(٢).
 أما سلمة بن دينار فإنه يحث على أمر عظيم غفل عنه كثير من الناس
 وذلك في نصيحة صادقة حيث قال: اكتم حسناتك أشد مما تكتم
 سيئاتك^(٣).
 ومن يستطيع ذلك؟! إلا من جاهد نفسه ووقفه الله - جل وعلا - وأعانته
 وسدده!!
 قال الحسن: إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها فإذا
 خشي أن تسبقه قام^(٤).
 وقال جرير بن عمرو بن ثابت: لما مات علي بن الحسين فغسلوه
 جعلوا ينظرون إلى آثار سواد بظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقيل: كان يحمل
 جرب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة^(٥).
 وفي صورة من صور حفظ العمل.. إخفاء الدمعة الصغيرة حتى لا
 تُرى قال حماد بن زيد: كان أيوب (السخثياني) في مجلس، فجاءته
 عبرة، فجعل يتمخط ويقول: ما أشد الزكام^(٦).

(١) الزهد، للحسن البصري، ص ١٥٩.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ٤٩٢.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ٢٤٠، السير ٦/ ١٠.

(٤) الزهد، ص ٣٧٣.

(٥) حلية الأولياء ٣/ ١٣٦.

(٦) السير ٨/ ٥٠٣.

وقال محمد بن واسع: لقد أدركت رجلاً، كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بلّ ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجلاً، يقوم أحدهم في الصف، فتسيل دموعه على خده، ولا يشعر به الذي إلى جنبه^(١).

وحالهم في إخفاء الصيام والصدقة عجب. وقد جمع بين هاتين العبادتين أبو الحسن النوي الذي مكث عشرين سنة يأخذ من بيته رغيفين، ويخرج ليمضي إلى السوق، فيتصدق بالرغيفين ويدخل المسجد، فلا يزال يركع حتى يجيء وقت سوقه، فإذا جاء الوقت مضى إلى السوق، فيظن أنه تغدى في بيته، ومن في بيته عندهم أنه قد أخذ معه غذاءه، وهو صائم^(٢).

هؤلاء قوم صبروا على أعظم أنواع الصبر وأشقها وأعصاها على النفس وهو الصبر على الطاعة، فجاهدوا أنفسهم ودربوها فذلت لهم وأطاعتهم حتى أتت صاغرة نحو الحق والجد في الطاعة!!

إني رأيت وفي الأيام تجريرة
للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جدّ في أمر يحاوله
فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر
صام داود الطائي أربعين سنة ما علم به أحد، وكان خزازاً، وكان

(١) حلية الأولياء ٣٤٧/٢.

(٢) صفة الصفوة ٤٣٩/٢.

يحمل غذاءه معه ويتصدق به في الطريق، ويرجع إلى أهله يفطر عشاء لا يعلمون أنه صائم^(١).

قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسنا والدين والرفعة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب»^(٢).

التقى سفيان والفضيل فتذاكرا، فبكيا، فقال سفيان: إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة، فقال له الفضيل: لكني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه شؤماً. أليس نظرت إلى أحسن ما عندك، فتزينت به لي، وتزينت لك، فعبدتني وعبدتك؟ فبكى سفيان حتى علا نحيبه، ثم قال: أحييتني أحياءك الله.

أخي المسلم:

صام منصور بن المعتمر أربعين سنة، وقام ليلها، وكان يبكي الليل كله فإذا أصبح كحل عينيه وبرق شفتيه ودهن رأسه، فتقول له أمه: أقتلت قتيلاً؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعت نفسي^(٣).

وفي الإسرائيليات أن عابداً كان يعبد الله دهرًا طويلاً فجاءه قوم فقالوا: إن ها هنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله - تعالى -، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة، قال: وما أنت وذاك!! تركت عبادتك واشتغالك بنفسك

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٣٥.

(٢) رواه أحمد في المستد.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ١٤٢.

وتفرغت لغير ذلك! فقال: إن هذا من عبادتي، قال: فإني لا أتركك أن تقطعها، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره، فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك، فقام عنه فقال إبليس: يا هذا، إن الله - تعالى - قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك! وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك، والله - تعالى - أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها!! فقال العابد: لا بد لي من قطعها، فتابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع؟ قال: وما هو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك، فأطلقه فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كلٌّ على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشيع وتستغني عن الناس!! قال: نعم، قال: فارجع عن هذا الأمر ولك عليّ أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتها فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئاً ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها!! فتفكر العابد فيما قال، وقال: صدق الشيخ! لست بنبي فيلزمني قطع الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها، وما ذكره أكثر منفعة، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئاً، فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة، فقال: هيهات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجله

وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك؛ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، قال: يا هذا، غلبتني فخلّ عني وأخبرني كيف غلبتك أولاً وغلبتني الآن؟ فقال: لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك، وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك^(١).

قال بشر بن الحارث يوصي الكثير منا في نصيحة صادقة ومحبة ظاهرة: لا تعمل لتُذكر، اكتم الحسنة كما تكتم السيئة^(٢). ومصارعة الرياء عجيبة، ولكن من أعانه الله صرعه مرة بعد الأخرى وإن عاد فله مثل الأولى!!

قال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر^(٣). وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب لعملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه^(٤).

كان العالم العابد عبدالله بن المبارك كثير الاختلاف إلى طرطوس، وكان ينزل الرقة في خان، فكان شاب يختلف إليه، ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث، قال: فقدم عبدالله الرقة مرة فلم ير ذلك الشاب، وكان مستعجلاً، فخرج غازياً في سبيل الله، فلما قفل من غزوته، ورجع إلى الرقة، سأل عن الشاب، فقالوا: إنه محبوس لدين ركه، فقال

(١) الإحياء ٤/٣٩٨.

(٢) السير ١٠/٤٧٦.

(٣) مدارج السالكين، ص ٩٦.

(٤) المرجع السابق.

عبدالله: وكم مبلغ دينه؟ قالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دُل على صاحب المال، فدعا به ليلاً، ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلفه أن لا يخبر أحداً ما دام عبدالله حياً، وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس^(١).

أخي المسلم:

لما حرص أولئك الأولياء على الإخلاص التام وإخفاء الطاعات في سبيل تحقيق كمال التجرد لله وحده لا شريك له، فإن الله - تعالى - جازاهم في العاجلة بالقبول والثناء الحسن، وجعل الله لهم لسان صدق لأنهم سعوا إلى تحقيق مرضاة الله، فرضي الله عنهم، وأرضى عنهم الناس.

(ولقد جعلوا الإخلاص غاية ومقصداً، فلم يتوسلوا به إلى تحقيق رضا الناس عنهم، فمن أخلص لله - تعالى - ليصير له قبول وثناء حسن فهو لم يُرد الله - تعالى -، بل جعل الله وسيلة له) أما غير المخلصين من المرائين وأهل العُجب وأصحاب (العقل المعيشي) فما نالوا إلا ذم الناس وسخطهم، عقوبة لهم على نقيض قصدهم والوعيد الشديد لهم في الآخرة^(٢).

خرج داود الطائي إلى السوق فرأى الرطب، فاشتتهه نفسه، فجاء إلى البائع فقال له: أعطني بدرهم إلى الغد، فقال له: اذهب إلى عمك، فراه بعض من يعرفه فأخرج له صرة فيها مائة درهم وقال: اذهب فإنه آخذ

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٤١.

(٢) معالم في السلوك، ص ٩٢.

منك بدرهم فالمائة لك، فليحقه البائع وقال له: ارجع خذ حاجتك، فقال: لا حاجة لي منه إنما جربت هذه النفس فلم أرها تساوي في هذه الدنيا درهماً وهي تريد الجنة^(١).

قالت امرأة هشام بن حسان: كنا نزولاً مع محمد بن سيرين في داره، وكنا نسمع بكاءه في الليل وضحكه بالنهار^(٢).

بكأؤهم في الليل خوفاً وطمعاً يرجون رحمة ربهم، وضحكم بالنهار إخفاء لحالهم وإظهاراً للإخلاص وعدم إبداء التعب والحزن وآثار الجهد من قيام الليل.

روي عن بعض الحكماء أنه قال: مثل من يعمل الطاعات للرياء والسمعة كمثل رجل خرج إلى السوق وملاً كيسه حصاة، فيقول الناس: ما أملأ كيس هذا الرجل، فلا منفعة له سوى مقالة الناس، ولو أراد أن يشتري له شيئاً لا يُعطى به شيئاً، كذلك الذي عمل للرياء والسمعة لا منفعة له سوى مقالة الناس، ولا ثواب له في الآخرة، كما قال الله - تعالى -: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍٰ فَلَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ۚ﴾ [الفرقان: ٢٣].

يعني الأعمال التي عملوها لغير وجه الله - تعالى - أبطلنا ثوابها، وجعلناها كالهباء المنثور، وهو الغبار الذي يرى في شعاع الشمس^(٣).

ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يُغمى عليه ثم يفيق ويقرأ: ﴿وَقَلْبٌ أَفْئَدَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ ۖ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي

(١) صفة الصفوة ٣/١٣٩.

(٢) الزهد، ص ٤٢٢.

(٣) تنبيه الغافلين ١/١٦.

طَغَيْنَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠]. فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحُسنى.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله - تعالى - منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه. ما سُمع بهذا ولا عُلِمَ به والله الحمد، إنما تكون لمن له فسادٌ في العقيدة أو إصرار على الكبيرة، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى نزل به الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله^(١).

علاج الرياء

حيث أن لكل داء دواء علمه من علمه، وجهله من جهله، ولعظم أمر الرياء وخطورته على عمل المسلم، فإن لداء الرياء وكذا غيره مما يضاد الإخلاص أنواعاً من العلاج والدواء فمنها:

١ - أن يعلم المكلف علماً يقيناً بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيدته عوضاً ولا أجر، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه وإحسان إليه لا معاوضة.

٢ - مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو. فكل خير فهو مجرد فضل الله ومنته.

٣ - مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره، وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان، فكل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل، وللنفس فيه حظ، سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته، فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» فإذا كان هذا الالتفات طرفة فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟!.

٤ - تذكير النفس بما أمر الله - تعالى - به من إصلاح القلب وإخلاصه وحرمان المرائي من التوفيق.

٥ - خوف مقت الله - تعالى - إذا اطلع على قلبه وهو منطوٍ على الرياء.

٦ - الإكثار من العبادات غير المشاهدة وإخفاؤها؛ كقيام الليل وصدقة

السر والبكاء خالياً من خشية الله .

٧ - تحقيق تعظيم الله - تعالى -، وذلك بتحقيق التوحيد والتعبد لله بأسمائه وصفاته العُلا، وأن يستيقن أن الناس لا يملكون له نفعاً ولا ضرراً، وأنهم أضعف من أن يجلبوا نفعاً لأنفسهم فضلاً عن غيرهم، ويتحقق هذا للعبد بمعرفته التامة بتوحيد الأسماء والصفات فالنافع هو الله والمعطي هو الله، وأما غيره ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

٨ - تذكر الموت وسكراته والقبر وأهواله واليوم الآخر بأحواله التي تشيب لها الولدان.

٩ - معرفة الرياء ومداخله وخفائيه حتى يتم الاحتراز منه.

١٠ - النظر في عاقبة الرياء في الدنيا والآخرة.

فيعلم العبد أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، كما جاء في وصية رسول الله ﷺ لابن عباس، ولذا قال بعض السلف: من عرف أسباب الرياء استراح، واحرص على أن يكون الناس عندك كالبهائم والصبيان، ولا تفرق في عبادتك بين وجودهم وعدمهم وعلمهم بها أو غفلتهم عنها واقنع بعلم الله وحده.

ورضي الله عن الفاروق عمر القائل: فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله.

يقول ابن القيم معلقاً على عبارة أمير المؤمنين: «ومن تزين بما ليس فيه شانه الله» قال: لما كان المتزين بما ليس فيه ضد المخلص فإنه يظهر للناس أمراً وهو مبطن بخلافه - عامله الله بنقيض قصده، فإن المعاقبة بنقيض القصد ثابتة شرعاً وقدرأً، ولما كان المخلص يُعجَّل له من ثواب

إخلاصه الحلاوة والمحبة والمهابة في قلوب الناس، عجل للمتزين بما ليس فيه عقوبته أن شأنه الله بين الناس، لأنه شأن باطنه عند الله، وهذا موجب أسماء الرب الحسنی وصفاته العليا.

وأما عاقبة الرياء في الآخرة فكما قال ﷺ: «من سمع سمع الله به، ومن يراني يراني الله به»^(١).

كما أن المرائي من أوائل الذين تُسعر بهم نار جهنم.

١١ - الاستعانة بالله على الإخلاص والتعوذ به من الرياء، فعلى المسلم أن يكثر من الدعاء والتضرع إلى الله بأن يقيه الرياء ودواعيه، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»^(٢). وأنواع الرياء كثيرة نسأل الله الإعانة في تحقيقها والتداوي بها^(٣).

أخي المسلم:

هناك أمور قد تخطر في ذهنك وهي أمور لا تعد من الرياء ومنها:

١ - حمد الناس للعبد على عمل الخير دون قصد منه، فعن أبي ذر رضي الله عنه - قال: يا رسول الله! أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه؟ قال ﷺ: «تلك عاجل بُشرى المؤمن»^(٤). وهكذا يفر المخلص من الشهرة ويكرهها ولكن الله يضع له القبول في الأرض،

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح الجامع الصغير ٢٣٣/٣.

(٣) نقلاً عن كتاب الإخلاص، د. عبدالعزيز العبد اللطيف.

(٤) رواه مسلم.

فيسر العبد بفضل الله، وأما المرائي فإنه يركب الصعب والذلول ليحظى بالقبول.

٢ - نشاط العبد في عمل الخير عند رؤية العابدين، ومجالسة أهل الإخلاص والصالحين، فإنها تبعث في نفسه الهمة والنشاط وتقوي عزمه.

٣ - كتمان الذنوب: يجب على المسلم أن يستتر ولا يجاهر بذنوبه، فمن تاب تاب الله عليه. ونشر الذنوب والتحدث بها من إشاعة الفاحشة ويؤدي إلى الاستخفاف بحدود الله - تعالى -.

قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي معافي إلا المجاهرون، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان! عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»^(١).

٤ - تجميل الثياب والنعل ونحوه: فعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطن الحق، وغمط الناس»^(٢).

٥ - إظهار شعائر الإسلام: يتضمن الإسلام عبادات لا يمكن إخفاؤها، كالحج والعمرة والجمعة والجماعة، والعبد لا يكون مرائياً بإظهارها، لأن من حق الفرائض الإعلان عنها وتشهيرها؛ لأنها أعلام

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

الإسلام وشعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ، فوجب إمارة التهمة بالإظهار^(١) .

واحذر أخي المسلم أن يأتيك الشيطان بعد إخلاصك وحذرك من الرياء بمدخل عجيب ، وهو زهوك بنفسك وعجبك بها وعجبك بإخفاء العمل والمن بهذا على الله - عز وجل - ، بل احمداً الله واشكره أن يسر لك هذا الإخلاص ، وتذلل له واخضع لطاعته .

جعل الله أعمالنا صواباً ورزقنا الإخلاص في القول والعمل ، وبارك في أعمالنا ، وغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين .

كما أدعوه عز وجل أن نعيش سعداء وأن نموت على التوحيد شهداء .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١) الرياء ، ذمه وأثره في الأمة ، ص ٥٣ وما بعدها باختصار .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
مدخل	٧
من يصلح للصحة	٨
وصف الصحة	١٠
الإخوان ثلاثة	١١
كرام الناس	١٣
الواجب على العاقل	١٩
حقوق المجلس	٢١
العاقل والأشرار	٢٣
نصيحة محب	٢٧
قياس الصحة	٢٨
بئس الأخ	٣٢
حسن الخلق	٣٣
المحبة في الله	٣٧
برجلك نعم	٣٩
الواجب على العاقل	٤٢
أعز الأشياء	٤٤

الموضوع	الصفحة
الضحك	٤٦
التبسم	٤٩
العزلة	٥٠
آداب العشرة	٥٣
المصادر	٥٧
ورثة الأنبياء	
المقدمة	٦١
مدخل	٦٣
الهمم العالية	٩٧
التخطيط لتحصيل العلوم النافعة	١٠٥
الرحلة في طلب العلم	١٠٦
حفظ الوقت	١٢٧
استغل وقتك في الأنفس من العلوم	١٤٩
توقير العلماء واحترامهم	١٨٣
ولو بشق تمره	
المقدمة	١٩٣
مدخل	١٩٤
اتقوا النار	١٩٥
من الأسباب الجالبة للخير	١٩٦
داووا مرضاكم بالصدقة	١٩٨
كيف يؤخذ المال؟	٢٠٠

الموضوع	الصفحة
والصدقة شيء عجيب	٢٠١
اجعل الدنيا في يدك	٢٠٢
أما تخاف هذه الآية؟	٢٠٦
من أيقن بالخلف جاد بالعطية	٢١٠
مرحبًا بمن يحمل زادي	٢١٣
اشترى نفسه من الله	٢١٧
ما وجبت عليّ زكاة قط	٢٢٠
إطعام الطعام	٢٢١
من أدب الصدقة	٢٢٢
ماذا ينفقون؟	٢٢٣
عشر خصال	٢٢٤
أجود من الريح المرسلة	٢٢٦
طعام دون طعام	٢٢٧
رأيته دخل الجنة	٢٢٩
الإخلاص هو حقيقة الدين	٢٣٠
كل امرئ في ظل صدقته	٢٣٢
من دقيق نعم الله	٢٣٤
أمطر المعروف مطرًا	٢٣٦
من آداب الطعام	٢٣٨
جمعت لولدي ما يكفيهم	٢٤٠
من أثر الصدقة العاجل	٢٤٤

الموضوع	الصفحة
أبو بكر - رضي الله عنه -	٢٤٧
يا معشر النساء	٢٤٩
من أنواع الصدقة	٢٥٢
مفتاح دعوة الرسل	
المقدمة	٢٥٧
مدخل	٢٥٩
أهم أعمال القلوب	٢٦٠
الفرق بين الرياء والسمعة	٢٦٢
ما يتزين به العبد للناس	٢٦٣
أسباب الرياء	٢٦٦
علامات المرائي	٢٦٧
الإنسان والشيطان	٢٧١
العجب	٢٧٢
كسر العجب	٢٧٥
داء الرياء بعد الموت	٢٧٨
من ثمرات الإخلاص	٢٨١
الشهرة	٢٨٢
الإخلاص ومحبة المدح	٢٨٤
نماذج من الإخلاص	٢٨٧
الإخلاص سر بين الله وبين العبد	٢٨٨
غزوة في البحر	٢٩١

الصفحة	الموضوع
٢٩٣	أقسام العمل لغير الله
٢٩٦	من دقائق الرياء
٢٩٨	النية
٣٠٣	قصة العابد والشیطان
٣٠٩	علاج الرياء
٣١١	أمور لا تعد من الرياء
٣١٥	فهرس الموضوعات

* * *